

الشِّعرُ العربي

بَين الجمُود وَالتطوّر

محمّد عبد العزيز الكفراوى
دكتوراه في الفلسفة
من جامعة لندن

دار القلم
بيروت - لبنان


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الشعر العربي



محمد عبد العزيز الكفراوي
دكتوراه في الفلسفة
من جامعة لندن

دار القلم
بيروت - لبنان

ص.ب ٣٨٧٤
بيروت ـ لبنان

مقدمة الطبعة الثانية

نحمدك اللهم ونصلي على رسولك الكريم ونسألك العافية في الدين والدنيا . وبعد فاني اقدم الطبعة الثانية من هذا البحث المتواضع الى قراء العربية ، واعتذر اليهم مما عساه ان يكون فيه من تقصير ، فقد فوجئت بنفاده من المكتبات مع الحاجة السريعة اليه . ولذلك لم أدخل عليه كثيرا من التغيير . ومع ذلك فالفكرة الاولى لا تزال سليمة في رأينا . ولن انسى ان اشكر الزميل الدكتور شوقي ضيف على تلك الروح الطيبة التي تقبل بها هذا البحث رغم اختلافنا معه احيانا ، والحمد لله اولا واخيرا .

محمد عبد العزيز الكفراوي

شكر

يسرني ان أقدم خالص شكري للاستاذ عمر الدسوقي . استاذ تاريخ الادب ورئيس قسم الدراسات الادبية بكلية دار العلوم ، فقد كان له الفضل الاول في اخراج هذا البحث .

الاهداء

الى أولئك الذين وضعوا الاقــلام وحملوا السلاح من الطلاب .. الى كل من اشترك في معركــة بور سعيد اهدي هذا البحث ؛ ففي ظلال الحرية التي دافعوا عنهـا استطعنا أن نقرأ ونتنتج ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحاجة الى هذا البحث :

قد كان هناك إجماع او شبه اجماع بين مؤرخي الادب ونقاده على ان الشعر العربي ظل في صدر الاسلام والعهد الاموي صورة من الجاهلي حتى اذا جاء العباسي انحرف عن أصوله الجاهلية قليلا عند بشار وأبي نواس ، ثم اشتد به الانحراف في شعر مسلم بن الوليد ، وبلغ الذروة على يد ابي تمام . ولكنهم لم يفصلوا القول في ذلك مما اتاح لبعض نقاد الادب ومؤرخيه (١) ان يهاجم ذلك الاجماع ، ويتحداه بذكر أمثلة كثيرة . حاول بها أن يستدل على تطور الشعر العربي اثناء العصر الاموي .

ومع اننا نؤمن بكثير مما قاله القدامى ، وقليل مما جاء به الناقد الفاضل ، فاننا لن نقدم بحثنا في صورة الهجوم حتى لا يجر الى مثله فيلزم الدور والتسلسل كما يقول علماء الكلام . وبعد فله فضل اثارة هذا الموضوع وتوجيه الانظار اليه ، ولا يضيره بعد ذلك ان يكون هناك بعض المآخذ على بحثه . والرأي عندنا ان الشعر العربي اصابه تغير حقا في

---

١ ـ دكتور شوقي ضيف في كتابه «التطور والتجديد في الشعر الاموي» .

العصر الاموي وصدر الاسلام ، بل وأصابه عدة تغيرات اثناء العصر الجاهلي، لانه كائن حي يخضع كغيره من الكائنات لعوامل النشوء والارتقاء . وكل ما هنالك ان ذلك التغير يسير جدا وسطحي لا يمس العناصر الاولية ، والسمات الاصلية التي اتسم بها الشعر الجاهلي . وهذا هو السبب في اغفال جمهور النقاد له واعتباره مع الجاهلي كلا لا يتجزأ .

ولكي ننظم الجدل حول هذا الموضوع اتخذنا نقطة ارتكاز نبدأ بها وندور حولها . ونعني بها العناصر الاصلية للشعر الجاهلي . وهي تلك التي كان يقصدها القدامى حينما يتحدثون عن عمود الشعر العربي . وقد قسمنا بحثنا في ضوئها الى الخطوات التالية :

الباب الاول : ـ ويهتم بتحديد تلك العناصر ، وتعرّف الظروف الاجتماعية التي كونتها . والآثار التي ترتبت عليها في الشعر الجاهلي ، وقد تلمسناها فانتهينا الى انها الطبع ، والصدق ، والميل الى التصوير مع الدقة فيه ، والموسيقية ، واخيرا بناء القصيدة التقليدي وتقسيمها الى مقدمة وغرض .

الباب الثاني : ـ وقد قسمناه الى فصول .

الاول : في بيان الاسباب التي حالت دون تأثر الشعر العربي بالدين الجديد في صدر الاسلام ، وتلك التي وجهته شطر الجاهلية في العهد الاموي .

الثاني : في ذكر نموذج من الشعر الاموي يؤكد جمود ذلك الشعر عند الحدود التي رسمها شعراء الجاهلية .

الثالث : في الرد على القائلين بتطور الشعر العربي في العصر الاموي. وذلك بالتعرض لما اشاروا اليه من فنون ونماذج يبدو عليها سمات التطور واقامة الدليل على انها ليست الا امتدادا طبيعيا للشعر الجاهلي .

الباب الثالث : ـ في العصر العباسي ويتكون من اربعة فصول .

الاول : في بيان مدى ما اصاب بناء القصيدة العربية من تطور .

الثاني : في الاغراض وتطورها تبعا لتطور الحالة الاجتماعية في ذلك العصر .

الثالث : في ذكر ما اصاب عناصر الشعر من تطور . وفيه موازنة بين العباسي والاموي .

الرابع : في استرداد الشعر العربي لحريته على يد ابي الطيب المتنبي.

وقبل ان ندخل في تفاصيل هذه المباحث نلفت النظر الى ان جميع ما ورد الينا من الشعر الجاهلي الذي سيكون طرفا فيما سنعقده من موازنات،

انما هو من انتاج القرن السابق لظهور الاسلام . وقد يعجب القارىء لغزارة ذلك الانتاج وروعته حين يقاس بقصر الفترة التي قيل فيها . ويزيد من عجبه سكوت المؤرخين عما كان قبل ذلك من شعر وشعراء ، وربما سأل نفسه عن السر في كل هذا .

والذي ينبغي ان نذكره اجابة عن تلك الاسئلة ، ان الشعر العربي مر بأطوار طويلة من التثقيف والتهذيب قبل ان يصل الينا مكتملا ، وما امرؤ القيس ومعاصروه إلا الذروة العليا لجبل ضخم من الثلج يسبح معظمه هادئا متئدا في أعماق المحيط . ولم يتح لذلك الجبل ان يعرف اسبب يسير وهام في الوقت نفسه ، وهو ان الجزيرة العربية وثبت وثبة قوية اثناء القرن الخامس الميلادي (٢) ، تردد صداها في حياتهم الاجتماعية والسياسية والادبية ، بحيث صار البون شاسعا بين ماضيهم وحاضرهم في هذه الامور جميعا . ولما كان العرب يعتمدون في حفظ آثارهم الادبية وحوادثهم السياسية على الذاكرة فقط فقد شغلوا بما كان لهم اثناء تلك الطفرة من مواقف ، وما سجل فيها من اشعار عما كان لهم قبل ذلك من هذا او ذاك وهكذا الهى بني تغلب عن ماضيها اشعار مهلهل بن ربيعة وعمرو بن كلثوم. كما شغلت بكر بشعر طرفة بن العبد والحرث بن حلزة . وقريبا من ذلك فعلت كل قبيلة بشعر شعرائها . وضربوا صفحا عما كان قبل ذلك من اشعار لا تتسع لها الذاكرة (٣) .

---

٢ ـ اهم اسباب تلك الطفرة ما كان من حروب بين عرب الشمال والجنوب انتصر فيها الشماليون وتخلصوا من سيطرة الجنوبيين ، وقد خاض كليب بن ربيعة سيد تغلب ومن ورائه عرب الشمال اهم تلك المعارك وأبعدها اثرا في حياة الجزيرة العربية .

٣ ـ قال بعض الشعراء يتهكم ببني تغلب :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة ‌‌ ‌‌ قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

الباب الأول

العناصر الأصلية للشعر الجاهلي

الطبع : كان الشعراء الجاهليون يجرون مع طبائعهم فيسجلون كل ما تمليه عليهم شياطينهم ، او تجود به قرائحهم ، دون مراجعة طويلة ، يجعلون الفكرة رائدهم وإصابتها هدفهم صارفين النظر عن الزخارف اللفظيـــة والمعاني الغريبة ، وما سوى ذلك من امور شغف بها طائفة من شعراء العصر العباسي ، فأفسدت الطبع عندهم وأشاعت التكلف في أشعارهم .

وليس بعجيب ان ينحو الجاهليون هذا المنحى في أشعارهم ، فقد كانوا بدواً يعيشون عيشة ساذجة لا تكلف فيها ولا تعقيد ، وقد فطرتهم الصحراء على الحرية والصراحة في احاديثهم العادية التي يندفعون فيها اندفـــاع الرياح الهوجاء في عرض الصحراء . وطبيعي ان يسري عدوى ذلك الـــى آدابهم وأشعارهم .

وكأنما رأى الشاعر العربي انه مرهق بأغلال وتبعات مختلفة من اقامة الوزن وتسديد القافية والتماس الروي واصابة المعنى . فأحب الا يشغل نفسه عن ذلك كله بزخرفة اللفظ وتقليب العبارة . اما العودة الى الشعر بعد الفراغ منه ، واعادة النظر فيه بقصد تنقيحه وتنخله ، فأمـر وراء

طبائعهم القلقة ، وافكارهم التي لا تعرف الاستقرار الا بقدر ما تعرفه رحالهم، التي لا تفتأ تضطرب في عرض الصحراء من مكان لآخر . ولم يهتدوا الى هذا النحو من تنقيح الشعر وتهذيبه الا في اواخر العصر الجاهلي على عهد زهير بن ابي سلمى . وقبل ان نعرض لزهير نورد لك نموذجا من المطبوع لعبيد بن الابرص قالها لحجر بن عمر والكندي حين أقسم الا تساكنه اسد بأرض وكان ملكا عليهم وعلى غطفان (١) فطردهم من بلادهم بعد ان قتل كثيرا منهم ضربا بالعصا حتى سموا عبيد العصا وفيها يقول :

يا عين فابكي ما بني اسد فهم اهل الندامة (٢)
اهل القباب الحمر والنـ ـعم المؤبَّل والمدامة (٣)
وذوي الجياد الجرد والأ سل المثقفة المقامة (٤)
حلا أبيت اللعن حلا ان فيما قلت آمة (٥)
في كل واد بين يثـ رب فالقصور الى اليمامة (٦)
تطريب عان أو صيا ح محرّق او صوت هامة
ومنعتهم نجدا فقد حلوا على وجل تهامة
إما تركت تركت عفـ وا او قتلت فلا ملامة
انت المليك عليهم وهم العبيد الى القيامة
ذلوا لسوطك مثلما ذل الاشيقر ذو الخزامة (٧)

ونعود الى زهير فنذكر انه قد اجتمعت له عدة امور جعلت منه استاذا لمدرسة ظهرت في عهد النضج الاجتماعي الذي سبق ظهور الاسلام ومهّد له . وعرفت بتجويد الشعر وتنقيحه . نشأ زهير قريبا من شيخ شعراء

---

١ ــ عصر ما قبل الاسلام للاستاذ مبروك نافع ص ١١٦ .
٢ ــ ديوانه ص ٧٧ .
٣ ــ المؤبل : المتخذة للقنية (بكسر فسكون) لا للذبح .
٤ ــ جرد : قصيرة الشعر رقيقته من اثر التضمير . الاسل : مفرده أسلة ، شجر يتخذ منه الرماح فصار يطلق عليها . مقامة : مقومة مثقفة .
٥ ــ حلا : تحللا من يمينك . يشير الى ما كان منه من إقسامه ألا يساكن اسدا بأرضه آمة : عيب ، غضاضة .
٦ ــ القصور لعله يقصد قصور خيرين بالموصل .
٧ ــ الاشيقر : الجمل الاشقر ــ الخزامة : الحلقة التي توضع في أنف البعير .

الجاهلية اذ ذاك اوس بن حجر فقد كان روايته (٨) وعنه اخذ الاصول الفنية لصناعة الشعر ثم تفرّغ لها فوقف عليها جهده ، وصرف اليها همته وبلغ من ولوعه بتجويد شعره ان كلا من مطولاته كانت تستنفد عاما كاملا من وقته (٩) . وقد خالف بذلك سنة العرب في الارتجال على البديهة ، ولذا قال فيه الاصمعي (١٠) زهير والحطيئة وأمثالهما عبيد الشعر لانهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . والقارىء لشعر زهير يرى انه يمتاز بأمور ثلاث (١١) : دقة التصوير ، وتهذيب اللغة ثم البراعة في اختيار صفات المدح . اما الاول من هذه الثلاثة فسنتعرض له بعد قليل ، واما الثاني والثالث فنذكر نموذجا يوضحهما وذلك قوله يمدح هرم بن سنان بعد ان فرغ من الحديث عن ناقته (*) .

الى هرم تهجيرها ووسيجها تروح من الليل التمام وتغتذي (١٢)
الى هرم سارت ثلاثا من اللوي فنعم مسير الواثق المتعمد (١٣)
سواء عليه أي حين اتيته اساعة نحس تتقي ام بأسعد
أليس بضراب الكماة بسيفه وفكاك أغلال الاسير المقيد
كليث ابي شبلين يحمي عرينه اذا هو لاقى نجدة لم يعرّد (١٤)
وثقل على الاعداء لا يضعونه وحمال أثقال ومأوى مطرّد (١٥)
اذا ابتدرت قيس بن عيلان غاية من المجد من يسبق اليها يسود

---

٨ ـ الشعر والشعراء ص ٤٤ .

٩ ـ البيان والتبيين ج ٢ ـ ص ١٠ .

١٠ ـ الشعر والشعراء ص ١٦ .

١١ ـ معظم أحكامنا نسبية فقد يشاركه امرؤ القيس في صفاء اللغة وخلوها من الساقط والمرذول ، كما يشاركه النابغة وطرفة في دقة التصوير .

(*) ديوانه ص ٩٢ .

١٢ ـ تهجيرها : سيرها في الهاجرة ـ الوسيج : السير السريع ـ الليل التمام أطول ما يكون من الليل .

١٣ ـ اللوي : منقطع الرمل ـ وأراد به هنا مكانا بعينه .

١٤ ـ ابو شبلين : له شبلان في عرينه وذلك ادعى لفتكه حتى يطعمهما، وثورته على من يقترب منها ـ نجدة : شدة ـ يعرد : يفر .

١٥ ـ ثقل على الاعداء : شديد الوطأة عليهم ـ لا يضعونه : لا يستطيعون التخلص من ضغطه عليهم .

سبقت اليها كل طلــق مبرّز سبوق الى الغايات غير مجلد(١٦)
كفضل جواد الخيل يسبق عفوها الـ ـم سراع وان يجهدن يجهد ويبعد(١٧)

ارأيت لغة اعذب وانقى من هذه . ثم ارأيت اختيار الالفاظ وتكرار الى هرم اشارة الى ان السير اليه كان قصدا لا مجرد مصادفة ثم تأكيد ذلك بقوله «مسير الواثق المتعمد» اما الاوصاف التي اوردها فجميعها من أخص ما يعتز به اهل الجاهلية كما سنذكر بعد قليل . وأخيرا انظر الى البيتين الاخيرين من المقطوعة وانظر كيف شبه صاحبه في سبق الناس جميعا الى الخير بالجواد من الخيل يتقدم الركب دون ان يستحث ، كأنه يفعل الخير دون ان يدفع اليه او يحمل عليه .

وهكذا يتضح ان امتياز زهير على اخوانه من اهل الجاهلية لم يكن لادخاله شيئا من البديع او نحوه كما فعل العباسيون من بعد ولكن لهذه الدقة والحرص الشديد على تهذيب اللغة وصقل العبارة . وما دمنا نبحث الطبع والتكلف عند القدامى فلا بد لنا ان نذكر وجهة نظرنا في راي سبقنا اليه الدكتور شوقي ضيف وذلك ان جميع شعراء الجاهلية بدون استثناء كانوا متكلفين ، وأن الجاحظ كان مدفوعا بالعصبية للعرب حينما زعم انهم كانوا يقولون الشعر ارتجالا ، وبدون كد او عناء . وحجته في ذلك ان قرض الشعر صنعة ، وكل صنعة لها قواعدها التي ينبغي مراعاتها . ففي الشعر لا بد للشاعر من ملاحظة الوزن والقافية والروي وما الى ذلك . وهذا كاف لان يقول ان الشاعر الجاهلي كان صانعا ومتكلفا ، وان لم يبلغ مبلغ زهير. واظنه يوافقنا على اننا نتفاوت فيما بيننا تفاوتا كبيرا حين نتجه الى قاعة من القاعات لالقاء محاضرة عامة عن موضوع نعرفه جيدا ، او لاخذ طرف من مناظرة من المناظرات ؛ فمنا من يقضي ساعة او ساعتين منفردا بنفسه كي يعد ما سيقول ، ويفكر فيما يمكن ان يلقيه الطرف الاخر فيعد الجواب عليه . ومنا من لا يكاد يفكر في الامر الا وهو على منصة الخطابة . ان هذا بالضبط هو ما نعنيه حينما نقول ان العرب القدامى كانوا مطبوعين لا يطيلون الروية او يعملون الفكر فيما قالوا او ما سيقولون . وربما قال قائل : ان هناك فرقا بين هذا وذاك ، فالشعر محتاج لاقامة الوزن وما اليه من تكاليف

---

١٦ ـ الطلق : الطليق غير المقيد او الضاحك الوجه سماحة ـ مجلد مضروب .
١٧ ـ العفو : ما اتى عن سماحة وبغير مجهود .

الشعر . والجواب على ذلك ان طول المراس وتمكن الملكة يجعل هذه الامور اقرب منالا الى الشاعر القديم المطبوع مما نتصور . وكيف ننكر على القدامى مثل هذا مع ان بعض الشعراء العباسيين ممن لم تكن اللغة الفصحى لغة ابيه ولا جده كان يقول : لو اردت ان أجعل كلامي كله شعرا لفعلت (١٨) ثم يقول : ان الناس يتكلمون بالشعر في احاديثهم العادية وهم لا يشعرون ولو احسنوا تأليفه لكانوا شعراء (١٩) .

وبعد فلا أظن الا ان الجاحظ والاصمعي واضرابهما كانوا أعرف بلغة العرب منا ، لان التكلف في اللغة مقرون بالمشقة ، ولست أدري لاي مشقة تعرض طرفة بن العبد حينما قال في حبيبته هر وهو من خير شعره بشهادة الثقاة من النقاد (٢٠) .

لا تلمنــي انها مــن نسوة — رقد الصيف مقاليت نزر (٢١)
كبنــات المخــر يمأدن كمــا — أنبت الصيف عساليج الخضر (٢٢)
فجعوني يوم زمــوا عيرهــم — برخيم الصوت ملثوم عطر (٢٣)
ولها كشحا مهاة ــ مطفــل — تقتري بالرمل أفنان الزهر (٢٤)
تحسب الطــرف عليهــا نجدة — يا لقومي للشباب المسبكر (٢٥)

ألا توافقني على ان البيت الاول والاخير يعبران الينا اكثر من اربعة عشر قرنا ليمتزجا بلغة اهل الفتوة والمرح من ابناء عصرنا . حقيقة هناك بعض الفاظ عربية ولكنها غريبة عندنا فقط اما عند طرفة فانها عادية ومفهومة جيدا ، وان شئت مزيدا فاقرأ الابيات التي ختم بها قصيدته والتي يعتذر

---

١٨ ــ اغان ج ٣ ص ١٢٧ .

١٩ ــ الاغاني ج ٣ ص ١٤٠ .

٢٠ ــ الشعر والشعراء لابن قتيبة .

٢١ ــ ديوانه ص ٦٤ . مقاليت : لا يعيش لهن ولد . نزر : قليلات الاولاد.

٢٢ ــ بنات مخر : سحائب بيض يأتين قبل الصيف ــ يمأدن : يتثنين ــ العساليج: ما اخضر ولان من القضبان .

٢٣ ــ زموا العير : وضعوها في الأزمة للرحيل ــ ملثوم : عليه لثام اي نقاب .

٢٤ ــ الكشح : ما بين الخاصرة الى الضلع الخلف ــ تقتري : تتبع ــ أفنان : انواع.

٢٥ ــ النجدة : الشدة ــ المسبكر : المتد ، ولعله اراد بالمتد المتغطرس غير المكترث بمن حوله ــ وتحسب الطرف : اي رفع الطرف .

فيها الى قومه من سابق لهوه وعبثه عساك تظفر فيها بشيء من التكلف قال:

ولقــــد كنت عليكـم عاتبــــا فعقبتـــم بذنوب غـير مر (٢٦)
كنت فيكم كالمغطــــي رأسـه فانجلـى اليـوم قناعي وخمـر
سادرا أحسب غيي رشـــدا فتناهيت وقد صابت بقــــر (٢٧)

٢٦ ـ عقبتم : جدتم ـ ذنوب : نصيب .

٢٧ ـ سادرا : لا أبالي بشيء ولا بأحد ـ صابت : من الصوب وهو النزول . قر : قرار ، وفي الامثال «صابت بقر» اي نزل الامر في قراره فلا يستطاع له تحويل .

« الصدق أو التزام الحقيقة(★) »

وقد فطرهم على ذلك صراحتهم مع انفسهم تلك الصراحة التي لا بد وان تكون قد تسللت الى نفوسهم من حياة البادية . فالبادية واضحة مكشوفة لا ادغال فيها ولا أحراش . بل ولا بحار تطوي بين أمواجها اسرار من طوتهم من راكبي ظهورها . والسماء بعد ذلك صحو والشمس نهارا والقمر ليلا لا تكاد تترك بالبادية حجرا بل ولا حبة رمل حتى تجعلها تتوقد نارا ونورا .

وأخيرا يأتي دور الخيمة ـ التي يولد فيها العربي ويموت ـ فهي تلقنه دروسا لا تنتهي في الوضوح والصراحة وذلك بفضل حوائطها الرقيقة التي لا تكاد تخفي شيئا عن أعين الناس . وان زهير بن ابي سلمى الذي رسم الخطوط العريضة لحياة العرب في الابيات الاخيرة من معلقته (١) لم يفته

(★) كل أحكامنا تقريبا نسبية فحين نقول ان القدامى كانوا يلتزمون الحقائق لا نعني انهم ما كذبوا قط . ولكن نعني ان الغالب على شعرهم هو ذاك . وسنعرض هذا الموضوع مرة اخرى حين نتحدث عن المبالغة عند المحدثين لنرى ان غلو الجاهليين كان مع ندرته مستساغا .

١ ـ نقصد تلك الابيات التي يبدؤها بمن الشرطية مثل :

ومن لم يصانع في أمور كبيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

ومن يك ذا فضل ويبخل بفضله   على قومه يستغن عنه ويذمم

ان يشير الى هذه الحقيقة حين قال :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالهـــا تخفى على الناس تعلم

وتبدو آثار تلك النزعة عند العرب في البعد عن المبالغة والاغـــراق وتوخي القصد في المدح والفخر اقرأ ما شئت من الشعر فسترى دقـــة شديدة والتزاما تاما الحقائق . وإليك أبياتا لطرفة بن العبد من القصيـــدة التي عرضنا لها منذ قليل تمثل هذه النزعة ، قالها يفخر بقومه بني بكر :

لا تعز الخمر ان طافـــوا بها بسباء الشول والكوم البكر (٢)
فاذا ما شربوهـــا وانتشـــوا وهبوا كـل أمون وطمـــر (٣)
ثم راحوا عبَقُ المسك بهـــم يلحفون الارض هـــدّاب الازر
نحن في المشتاة ندعـو الجفلى لا ترى الادب فينا ينتقـــر (٤)
بجفـــان تعتري نادينـــا من سديف حين هاج الصنبر (٥)
كالجوابـــي لا تنــي مترعة لقرى الاضياف او للمحتضر (٦)
ثم لا يخزن فينـــا لحمـــه انما يخـــزن لحـــم المدخـــر

وشبيه بهذا أبيات لبيد التي ختم بها قصيدته وفيها يقول :

انا اذا التقت المجامع لم يـــزل منـــا لزاز عظيمة جشـامهـــا (٧)
ومقسّم يعطـي العشيرة حقها ومغذمـــر لحقوقهـــا هضامها (٨)

---

٢ ـ الشول : جمع شائلة وهي الناقة التي مضى على وضعها سبعة اشهر ـ الكوم : جمع كوماء كحمر وحمراء وهي الناقة العظيمة السنام ـ سباء الشول : شراؤها اي الخمر بالشول ـ البكر : الحديثات السن .

٣ ـ الأمون : ما يؤمن عثاره من الابل والخيل ـ الطمر (بكسر الطاء) الطويل . المشرف من الخيل .

٤ ـ الجفلى : ان يعم بدعوته الى الطعام .

٥ ـ الصنبر : بتشديد الصاد مع الكسر ، وتشديد النون مع الفتح او الكسر ، الريح الباردة .

٦ ـ الجابية : الحوض الواسع يحيى فيه الماء اي يجمع ـ المحتضر : النازل على الماء .

٧ ـ لزاز عظيمة : ملازمها اي حمالها .

٨ ـ مغذمر لحقوقها هضامها . مطلق اليد يعطي ويمنع من يشاء .

فضلا وذو كرم يعين على الندى سمح كسوب رغائب غنامها

فلم يزد لبيد هاهنا على ان جعل أسرته من أعز الأسر في قبيلته ، ولم يسرف فيخلع عليها من المحامد والمفاخر ما ليس من شأنها . وهذا نفسه ما فعله طرفة من قبله . وقد ازداد هذا الاصل قوة بفضل زهير ومدرسته . فقد جعله اساسا من أسسها ، والتزمه التزاما استرعى التفات عمر بن الخطاب الذي قدمه على الشعراء جميعا ولما سئل عن سبب ذلك قال : «كان لا يعاظل بين القول ، ولا يتبع حواشي الكلام ، ولا يمدح الرجل الا بما هو فيه» (٩) . وتبعه في ذلك حواريثه الحطيئة . استمع الى قوله يمدح بني لأي بن شماس بن انف الناقة بن قريع ويهجو الزبرقان بن بدر ابن عمهم ورهطه وقد كان بين الفريقين تنافس وتحاسد (١٠) .

اقلوا عليهم لا أبا لأبيكم من اللوم أوسدوا المكان الذي سدوا
أولئك قوم ان بنوا احسنوا البنا وان عاهدوا أوفوا وان عقدوا شدوا
وان كانت النعماء فيهم جزوا بها وان أنعموا لا كدّروها ولا كدوا
مطاعين في الهيجا مكاشيف للدجى بنى لهم آباؤهم وبنى الجد
ويحسدني افناء سعد عليهم وما قلت الا بالذي علمت سعد

فقد وصفهم بأجمل ما يتمنى ان يوصف به المرء من الوفاء بالعهد والابقاء على الصديق والسماحة والشجاعة وكرم المحتد ، كل ذلك في الفاظ يسيرة وعبارات عادية او كالعادية لا اثر فيها لمبالغة او اغراق .

وقوله في الزبرقان :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

آذاه رغم بساطته أشد ايذاء حيث رماه بسقوط الهمة وتفاهة التفكير . وقد بلغ من تأذي الزبرقان بها ان استعدى عليه عمر بن الخطاب ، فسجنه وهمّ بقطع لسانه ، او تظاهر بذلك على الاقل (١١) .

وبالرغم من ان ما ذكرناه كان الصبغة الغالبة على الشعر الجاهلي ، فقد كانت هنالك مخالفات اقتضتها الظروف السياسية والاجتماعية المختلفة ،

---

٩ ـ الشعر والشعراء ص ٤٤ .
١٠ ـ تهذيب الكامل ج ٢ ص ١٠٦ .
١١ ـ نفسه ص ١١٠ .

فالدارس للشعر الجاهلي يدرك ميل شعراء تغلب الى الغلو في تقدير شجاعتهم . ولم يحتمل منهم النقاد ذلك ، فقالوا في قول مهلهل بن ربيعة :

فلولا الريح أسمع اهل حجر صليل البيض تقرع بالذكور (١٢)

انه اول كذب سمع في الشعر . ومن الانصاف ان نقول ان مثل هذه الزلة لا ينبغي ان تذهب بما في بقية القصيدة من قصد يبدو في قول مهلهل:

وهمام بن مرة قد تركنا عليه القشعمين من النسور (١٣)
على ان ليس عدلا من كليب اذا طرد اليتيم عن الجزور
على ان ليس عدلا من كليب اذا ما ضيم جيران المجير
على ان ليس عدلا من كليب اذا خيف المخوف من الثغور
على ان ليس عدلا من كليب اذا برزت مخبأة الخدور

اما ما نراه في شعراء بكر كطرفة بن العبد والحرث بن حلزة من قصد واتزان فيرجع فيما نعتقد الى تلك الضربات المتوالية التي كالتها لها تغلب ، فقد ذاقت بكر مرارة الهزيمة بسبب اعتزال بعض بطونها الحرب ، ولذا كسبوا النصر النهائي بعد أهوال طوال ، ودفعوا له ثمنا غاليا من دمائهم وأموالهم . فعلمتهم التجارب الا يلقوا الكلام على عواهنه القاء .

وقد تعرضت هذه النزعة الكريمة الى محنة اخرى على لسان المتكسبين بأشعارهم من أمثال النابغة الذبياني ، فقد انتهى به حرصه على اطراء الممدوح الى مجاوزة القصد فيما يقول احيانا كما ترى في قوله يصف سيوف الغساسنة :

تقد السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الحباحب (١٤)

---

١٢ ـ الامالي جـ ٢ ص ١٣٣ ـ ١٣٤ ، حجر : قصبة اليمامة ، والمعركة بالجزيرة .

١٣ ـ المرجع السابق ص ١٣٢ ، القشعم : الهرم ، ولعله اراد القوي الذي بلغ أشده «على أن ليس عدلا من كليب» اي ان همام بن مرة او بجيرا المذكور قبله لا يغني غناء كليب وقت الشدة ، لان جميع الامور التي ذكرها من طرد اليتيم او العجز عن حماية الجار او خروج النساء من خدورهن لا يحدث الا في الأوقات العصيبة حين يشتد الجدب او يحدق بهم العدو .

١٤ ـ شعراء النصرانية ـ جـ٢ ص ٦٤٧ ، السلوقي : الدرع نسبة الى سلوق ببلاد الروم المضاعف نسجه : نسجت حلقاته مثنى ـ الصفاح : حجارة عراض ـ الحباحب : ذباب يرسل شررا او شعاعا اثناء الليل .

ولكن مثل هذه الابيات النادرة لا ينبغي ان تهدم القاعدة العامة التي سار عليها الشعر الجاهلي .

ولعله قد صار من واجبنا وقد انتهينا الى هذا الحد من البحث ان نشير الى ان اكثر الفضائل جريانا على ألسنة العرب الشجاعة والكرم ويدخل تحت الشجاعة حماية الجار ونجدة الملهوف . وانما عظم تقديرهم لهاتين الفضيلتين لان حياة البادية تفرض عليهم ذلك ، فانعدام الحكومة المركزية ، واضطراب الحال الاقتصادية عرضهم للغارات ، وجعلهم بحاجة الى من يرد عنهم ويلاتها، وسقوط الامطار دون انتظام كثيرا ما ينتهي بالجدب ، فتشتد عند ذلك حاجتهم الى من يغيثهم (١٥) .

الميل الى التصوير : يظهر ان هذا الميل فطري في الانسان ، فهو بطبيعته شغوف بأن ينقل الى غيره ما عساه ان يكون قد سبق اليه من مشاهد او تعرض له من تجارب . وقد وجدت هذه النزعة متنفسا عند الامم الكاتبة القارئة ، فظهر التصوير ممتزجا بالكتابة عندها اول الامر ثم استقل عنها بعد ذلك (١٦) وفي كلا الحالين استغلت تلك الامم أيديها لتصوير تجاربها ومشاهداتها .

ولكن الشعب العربي لا يكتب ولا يرسم وهو مع ذلك محتاج كغيره من الشعوب الى نقل تجاربه . بل هو اشد حاجة الى ذلك لقوة المشاركة الوجدانية عنده ولم يجد وسيلة الى ذلك سوى بضاعته الاولى وهي الشعر يرسم فيه صورا دقيقة لكل ما يقع تحت سمعه وبصره من مناظر وتجارب، ولذا تكثر تلك الصور في الشعر العربي اثناء العصر الجاهلي كثرة لا نرى لها شبها في عهد اخر سوى العهد الاموي الذي يحاول دائما ان ينسج على منواله ، واذا أعوزك الدليل على ذلك فاقرأ المعلقات السبع وتأمل وصف امرىء القيس لحبيبته وفرسه ولا تنس الابيات التي ختم بها معلقته وتحدث فيها عن الطبيعة . واذا انتقلت الى طرفة ومعلقته فقف قليلا او كثيرا عند

---

١٥ ـ لعل استعمال الندى بمعنى الطل وبمعنى الجود يوضح لنا مدى الترابط العقلي بين الامرين عند العربي ، فالاولى يتدارك البنات وقد اشرف على الجفاف فيرد اليه الحياة، والجواد يعمد الى المضطرين وقد اجهدهم الجوع والفقر فيمسك عليهم أنفاسهم الاخيرة.

١٦ ـ كانت الكتابة اول الامر صورية ثم مقطعية ثم تحولت على يد الفينيقيين الى رمزية .

وصفه او بعبارة أدق تصويره لناقته ، وانا لواثقون من انك ستسأل نفسك عما اذا كنت امام شاعر او مصور وذلك لكثرة ما فيها من تشبيهات تتوالى في اسراف عجيب ، ويجمل بهذه المناسبة ان نذكر ان أسلوب اهل الجاهلية في التصوير هو الاعتماد على التشبيهات الحسية لتصوير الحسيات والمعنويات جميعا ومثال الاول قول طرفة بن العبد :

وبلاد زعل ظلمانها كالمخاض الجرب في اليوم الخدر(١٧)

ومثال الثاني قول طرفة ايضا :

وظلم ذوي القربى اشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند(١٨)

واستعمال التشبيهات على هذا النحو مظهر من مظاهر البساطة والسذاجة والرغبة في الايجاز حيث لا يستطيع المتحدث ذكر تفاصيل المنظر الذي يريد تصويره فيكتفي بذكر شيء شديد الشبه به ومعروف لكل من القائل والسامع مستغنيا بذكره عن التعرض لدقائق الموصوف ، ولكي يكون الغرض من هذه التشبيهات واضحا نذكر الك مثالين يعينان على ما نريد اما اولهما فقول امرىء القيس يصف شعر حبيبته :

وفرع يزين المتن اسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل(١٩)
غدائره مستشزرات الى العلا تضل العقاص في مثنى ومرسل

فأنت تراه قد وصفه بأوصاف متعددة تؤكد غزارته وكثافته ولكنه مع ذلك لا يهدأ ولا يستريح حتى يقول بجانب ذلك كله «كقنو النخلة المتعثكل» وكأني به يرى ان تلك الصفات مهما توالت لا تنقل الصورة التي ارتسمت على مرآة فكره وهو يتطلع الى شعر حبيبته ، صورة قنو النخلة ولذا يبادر بتسجيله في شعره وشبيه بهذا قوله :

وكشح لطيف كالجديل مخضر وساق كأنبوب السقي المذلل(٢٠)

---

١٧ ـ زعل : نشيطة ـ المخاض : الحوامل من النوق ـ الخدر : الشديد البرد ، ديوانه ص ٦٦ .

١٨ ـ معلقته .

١٩ ـ نفسه .

٢٠ ـ معلقته .

بعد ابيات قلائل من قوله :

هصرت بفودي راسهــا فتمايلت على هضيــم الكشح ريا المخاخـل

وكأنه راى ان الايضاح بالنعوت والصفات أقل دُقة ووضوحا منــه بالتشبيه ، فعمد بعد ذلك الى تشبيهه بالجديل ، فانه على بساطته يتضمن الضمور واللطف وتداخل بعض الاجزاء في بعض مع الخلو من الفضــول والترهل .

وفي هذا الضوء يجب ان تقرأ الشعر الجاهلي ، وان تنظر الـى التشبيهات التي تمر بك في كثرة اثناء قراءته متتبعا الشاعر وهو يتنقل بك كالنحلة او الفراشة من زهرة الى اخرى او من منظر الى اخر واضعا بين يديك الصورة التي انطبعت في ذهنه عند رؤية هذا المنظر او ذلك . وفي هذا الضوء ينبغي ان نتدبر امثال قول طرفة في ناقته وقد خطرت به :

فذالت كما ذالت وليــدة مجلس ترى بها اذيال سحل ممـدد (٢١)

او قوله يصف امتلاء أطراف عشيقته :

كأن البُرين والدماليــج علّقت أو عُشر او خروع لم يخضّـد (٢٢)

او قوله متحدثا عن حدة قلبه ونفاذه في الامور :

انا الرجل الضرب الذي تعرفونــه خشاش كراس الحية المتوقـد (٢٣)

والتصوير اللفظي عند العرب يشبه اليدوي عنــد غيرهم من حيث اقتصاره على منظر جزئي بسيط كقول طرفة :

وبــلاد زَعِــل ظلمانهــا كالمخاض الجرب في اليوم الخدر(٢٤)

او اتساع اطرافه وتعدد جوانبه حتى يشبه اللوحات الضخمة .

وكانت روح الدقة التي تشيع في شعر زهير معينة له على تجويد هذا

---

٢١ ـ معلقته . . ومعنى البيت ان الناقة قد تبخترت في مشيها كأنها وليدة تتبختر في ثياب بيض .

٢٢ ـ نفسه .

٢٣ ـ نفسه .

٢٤ ـ راجع ص ٢٢ من هذا الكتاب .

النوع من التصوير كما ترى في قوله :

تبصّر خليلي هل ترى من ظعائن — تحملن بالعلياء من فوق جرثم (٢٥)
جعلن القنان عن يمين وحزنه — وكم بالقنان من محل ومحرم (٢٦)
علون بأنماط عتاق وكلة — وراد حواشيها مشاكهة الدم (٢٧)
كأن فتات العهن في كل منزل — نزلن به حب الفنا لم يحطم (٢٨)
فلما وردن الماء زرقا جمامه — وضعن عصي الحاضر المتخيم (٢٩)

على انه ينبغي الا نغلو في تقدير زهير فان معظم شعراء الجاهلية كانوا مصورين مثله ، بل ربما كان من الواجب ان نذكر انه كان مدينا لهم بأجمل ما عرف له من التصوير الا ترى ان قوله :

فبينا نبغي الصيد جاء غلامنا — يدب ويخفي شخصه ويضائله (٣٠)

مأخوذ من قول طرفة يتحدث عن بعض الفلوات :

يظلّ بها غير الفلاة كأنه — رقيب يخافي شخصه ويضائله (٣١)

وان أحببت امثلة على ما نقول فاقرأ قول النابغة حين يصور سعة عطاء النعمان مشبها اياه بالفرات :

فما الفرات اذا جاشت غواربه — ترمي او اذ به العبرين بالزبد (٣٢)
يمده كل واد مترع لجب — فيه ركام من الينبوت والخضد (٣٣)
يظل من خوفه الملاح معتصما — بالخيزرانة بعد الأين والنجَد

---

٢٥ ـ ديوانه ص ٤ ـ الظعائن : النساء على الابل جمع ظعينة .

٢٦ ـ القنان : جبل لبني اسد ـ والحزن ما غلظ من الارض ـ المحل : الذي لا عهد له كأنه يستحل مال الناس ودماءهم ـ المحرم : الذي له حرمة وذمة .

٢٧ ـ الانماط : ما يفترش من المتاع ـ الكلة : الستر ـ وراد حواشيها : حمراء .

٢٨ ـ العهن : الصوف ـ فتاته : ما تناثر منه ـ الفناء : شجر حبه أحمر .

٢٩ ـ الجمام : جمع جمة وجم وهو ما اجتمع من الماء وغزر ـ وزرقته دليل صفائه .

٣٠ ـ ديوانه ص ٢٧ .

٣١ ـ ديوانه ص ٣٩ .

٣٢ ـ النابغة الذبياني ص ١٧٦ .

٣٣ ـ الينبوت : شجر الخروب ـ الخضد : الحشائش .

يومـــا بأجود منـــه سبب نافلــة   ولا يحول عطاء اليــوم دون غـــد

او حين يقول مصورا سعة سلطانه وامتداد نفوذه :

فإنك كالليــــل الذي هو مدركــي   وان خلت ان المنتأى عنك واســـع
خطاطيف حجن فــي حبال متينــة   تمــد بهـــا أيد اليك نـــوازع

ولكي يثق القارىء ان هذا النوع من التصوير كان عاما في الشعــــر الجاهلي نزيده مثالين احدهما لطرفة والاخر لامير شعراء الجاهلية أمـــا طرفة فيقول :

ونحن اذا ما الدجن امسى كأنــــه   سماحيق غيم وهي حمراء حرجف(٣٤)
وجاءت بصر ّاد كـــان صقيعـــه   خلال البيوت والمبارك كرسف (٣٥)
وجاء قريع الشول يرقــص قبلها   الى الدفء والراعي لها متحرف (٣٦)
تبيت إماء الحمى تطهـــى قدورنــا   ويأوي الينا الاشعث المتجرف (٣٧)

فقد وصف السماء والارض وما يغطي احداهما من غيم رقيق كأنـــه اغشية الدهن وما ينتشر على وجه الاخرى من صقيع كأنه القطن المندوف . ووصف الابل وقد عادت مساء وعاد فحلها يرتعش ويستحث الخطا طلبا للدفء على حين تخلف عنها الراعي خوفا من البرد . كل ذلك ليعطينا صورة مما كان يحل بالبادية من أزمات في الشتاء يتولون هم تفريجها على المعسرين بإطعام الطعام في غير تقتير .

وابيات امرىء القيس في وصف السيل وأثره في البادية معروفـــة مشهورة ومنه في وصف الجبل والسباع والطير اثناء اندفاعـــه وعقب اقلاعــه :

كـــأن ثبيرا فـــي عرانين وبلـــه   كبير أناس في بجاد مزمّـــل (٣٨)

---

٣٤ ـ ديوانه ص ٤٣ ـ سماحيق الغيم : الرقيق منه ـ حرجف : شديدة البرودة .
٣٥ ـ الصراد كرمان : الغيم الذي لا ماء فيه ـ الصقيع : ما ينزل بالليل كأنه الثلج.
٣٦ ـ قريع الشول : فحلها ـ متحرف : مختلف عنها بسبب البرد .
٣٧ ـ المتجرف المعدم .
٣٨ ـ ثبير : جبل ـ عرانين وبله : أوائل المطر ـ البجاد : ثوب مخططة ـ مزمل: متلفف.

كـــأن ذرا راس المجيمـــــر حولـــه   من السيل والغثاء فلكة مغزل (٣٩)
كـــأن السباع فيـــه غرقى عشية   بأرجائه القصوى انابيش عتصل (٤٠)
كـأن مكاكـــي الجـــواء غديَّــــــة   صبحن سلافا من رحيق مفلفل (٤١)

وهي وان كانت جزئيات منفصلة الا ان تجاورها يكوّن منها وحدة عامة تعطينا صورة دقيقة لمنظر من مناظر البادية عند هبوب العواصف الممطرة .

وقد عرضنا لنظرية التصوير لانها تفسر لنا تفسيرا تاما ميل العرب الى تحرّي الدقة في تشبيهاتهم واستعاراتهم . وقد مر بنا تشبيه طرفة للظلمان بالمخاض الجرب ولا يكاد يخفي قوة وجه الشبه بينهما . واليك صورتين اخريين اولاهما لشاعر جاهلي والاخرى لآخر عباسي . قال امرؤ القيس في عقاب يشبه بها فرسه ثم يشير الى كثرة ضحاياها من الطيور :

كـــأن قلوب الطير رطبـــــا ويابسا   لدى وكرها العناب والحشف البالي

ويحدثنا بشار انه ظل يحسد امرأ القيس على هذا التشبيه المزدوج حتى قلده بقوله :

كــــأن مثار النقـــع فوق رءوسنا   وأسيافنا ليـــل تهاوي كواكبــــــه

واظننا ندرك بسهولة قوة التشابه عند الاول فالرطب من قلوب الطير يكاد يختلط بالعناب حجما وشكلا ولينا كما ان اليابس منها يكاد يشتبه على المرء بالحشف من البلح ، والوضع بخلاف ذلك عند بشار لاسباب سنعلمها ان شاء الله عندما نتحدث عن التصوير وما اصابه من تطـــور في العصر العباسي .

---

٣٩ ــ المجيمر : اكمة معينة ــ الغثاء : ما جاء به السيل من حشيش او شجر ونحوه فسلكه المغزل : رأسه ، شبه دوران السيل حول الأكمة بدوران فلكة المغزل .

٤٠ ــ العنصل : البصل البري ــ الانابيش : جذور النبات ، مفردها انيوش (بالضم) لانه ينبش عنها ، شبه السباع وقد اختلط الطين بشعرها بجذور البصل البري حين يختلط بها الطين ، واختار البصل البري لان جذورة اقرب للشعر .

٤١ ــ المكاكي : ضرب من الطير مفردها مكاء كزنار . مفلفل : عليه الفلفل .

« الموسيقية »

لا يكاد القارىء للشعر الجاهلي يخطىء سيطرة الموسيقية عليه ، فأبياته مقسمة الى مقاطع متوالية متناسقة ، وقوافيه محوطة بسياج من الشروط التي توجب ان تكون صورتها متحدة في القصيدة كلها من حيث الحركات والسكنات .

والروي يجب الا يتغير او يتبدل مهما طالت القصيدة . والذي يمكن ان يصل اليه الباحث من هذا كله ان الشاعر العربي يهتم بإرضاء الأذن ، كأنه يعلم انها تتوقع عند سماع الشعر صورة صوتية خاصة تطرب لسلامتها وتضطرب لاضطرابها ، ولاسيما اذا كان ذلك الاضطراب في القافية ، الذي يمتد طنينها في الأذن اكثر من اي كلمة اخرى في البيت لوقوعها في آخره وهذا هو السبب في ان قوما سمعوا قول النابغة :

زعم البوارج ان رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الاسود
لا مرحبا بغد ولا أهلا به ان كان تفريق الأحبة في غد

فلم يغتفروها له وكبر عليهم ان يجمع بين الكسر والضم في الروي . واحتالوا للامر فأوحوا الى قينة بغناء الابيات في حضرته على النحو السابق ، ففطن الى خطئه (1) ويروي قول امرىء القيس :

---

1 ـ الشعر والشعراء ص ٣٨ .

كأن ثبيرا في عرانين وبله كبير أناس في بجاد مزمّل

بكسر اللام في مزمل مع انها تستحق الضم وصفا لكبير محافظة على الروي (٢) والسبب في عناية الشاعر العربي بالأذن واهتمامه بالموسيقى تبعا لذلك ان اللغة العربية لغة مسموعة لا مكتوبة حيث يجهل اهلها القراءة والكتابة وقد كان لهذه الخاصة فوائدها وأضرارها ، أما من حيث المزايا فقد ساعدت على شيوع تلك الروح العذبة التي تطل من خلل الشعر الجاهلي، وكل ما نسج على منواله من شعر العصور التالية ، روح لا تلبث ان تستولي على نفس القارىء والسامع فتعمل فيه عمل السحر . ونحن لا نشك في ان هذا هو شعور القارىء لقول المرقش الاكبر :

سري ليلا خيال من سليمى فأرقّني وأصحابي هجود (٣)
فبت أدير امري كل حال وأرقب اهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرفي لنار يشب لها بذي الأرطى وقود
حواليها مها جم التراقي وأرآم وغزلان رقود (٤)
نواعم لا تعالج بؤس عيش أوانس لا تروح ولا ترود
يسرن معا بطاء المشي بدا عليهن المجاسد والبرود (٥)
فما بالي أفي ويخان عهدي وما بالي أصاد ولا أصيد

ونحن نعتقد ان قدرا كبيرا من اعجابنا بهذه الابيات يعود الى اتصالها الوثيق بعواطف مشتركة بين الناس جميعا ، ولكننا لا نشك في ان قسطا كبيرا ايضا من هذا الاعجاب يرجع الى ما فيها من موسيقية . وان هذا الاعجاب كان يمكن ان يضعف او يتلاشى لو ان تلك العواطف قد صبّت في عبارات معقدة تنقصها السلامة والعذوبة والموسيقية . وحتى لا يخدع القارىء فيظن ان التأثير كله او معظمه عائد الى موضوع الشعر فقط نثني بقول ابي العلاء :

---

٢ ـ الوساطة ص ٧ .

٣ ـ المفضليات ص ٢٣ .

٤ ـ التراقي : جمع ترقوة وهي مقدم الحلق في اعلى الصدر ـ وجه : قد غطى اللحم عظامها ، والمفرد جماء كحمر وحمراء .

٥ ـ مجاسد : جمع مجسد بصيغة اسم المفعول ، وهو الثوب المصبوغ بالجساد اي الزعفران ـ البرد : الثوب المخطط . بد : جمع بداء كحمر وحمراء ، وهي الغليظة الفخذين.

حيـــاة عناء ومـــوت عنـــا فليت بعيـــد حمـــام (٦)
يد صفـــرت ولهـــاة ذوت ونفس تمنت وطـرف رنـــا
وموقد نيرانـــه فـي الدجـى يـــروم سناء برفـــع السنـــا
يحاول من عاش ستر القميص ومـلء الخميص وبرء الضنـــا
ومن ضمه جـــدث لم يبـــل على ما افاد ولا ما اقتنـــى (٧)
يصير ترابا ســـواء عليـــه مس الحرير وطعـــن القنـــا

فبالرغم من انها تدور حول الموت فاننا على يقين من ان قارئها سيطرب لها سواء كان من عشاق الموت او الحياة ، وأن جزءا كبيرا من ذلك الاعجاب يرجع الى موسيقيتها . وقد اشرنا في اول هذا الفصل الى الشروط التي تتعاون على جعل الشعر موسيقيا وهي الوزن السليم وفقا لبحر خاص من البحور المعروفة لدارسي العروض مع خفة القافية واتحاد الروي . ولكن هذه جميعا قد لا تحقق سوى ادنى مراتب الموسيقية كما سنرى في الشعر المتكلف المصنوع ولا بد ان ينضم اليها أمور اخرى للارتفاع بالشعر الى اعلى المراتب في هذه الناحية . منها صدوره عن عاطفة جياشة وجريانه مع الطبع وخفة بحره (٨) ووضوح معانيه . ولعل ابرز شيء في القصيدة التي بين أيدينا بعد خفة بحرها ، ما نراه من اختيار مفرداتها بحيث يتفق معظمها مع التفعيلات العروضية كما هو واضح بأدنى ملاحظة .

اما الآثار السيئة التي يمكن ان تعزى الى حرص الشعراء والنقاد على موسيقى الشعر فأهمها احتفاظه بالوعاء الشكلي الذي ورد به عن الجاهلية من اتحاد الوزن والروي مع تشابه القوافي في القصيدة الواحدة (٩) وقد بلغ من عناية الشعراء والنقاد بالقوافي واحتفالهم لها ان قالوا : «ان حظ جودة القافية وان كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت» (١٠) .

---

٦ ـ اللزوميات ص ٥٩ .

٧ ـ حذف الالف للتخفيف وعلى غير قياس (تاج العروس . مادة بلي) .

٨ ـ لا شك ان بعض البحور أخف من بعض . وهذا هو السبب في تسميتهم المتدارك بالبحر المرقص .

٩ ـ وقد وضع النقاد وعلماء العروض كثيرا من الشروط التي تضمن تشابهها في جميع أبيات القصيدة .

١٠ ـ البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٦ .

وما من شك في ان هذه الامور جميعا ، رغم اسهامها في تحقيق الموسيقية تشبه السلاسل والاغلال التي تعوق الشاعر احيانا عن متابعة ما يدور براسه من افكار ، او يعتلج في صدره من عواطف ، لان جزءا كبيرا من نشاطه الفكري يضيع في ملاحظتها . ولعل الروي بخاصة اسوؤها اثرا ، واثقلها حملا ، فان الشاعر العربي ربما قص اغصانا مثمرة من الفكر ، او غيَّرها ، بل ربما ضحَّى بها جمعاء في سبيل المحافظة على وحدة الروي .

ولا يعلم احد غير الله تعالى ما كان يمكن ان ينتهي اليه الشعر العربي من حيث اتساع الاغراض ، وقوة الأداء لو انه صادف من ابنائه ما صادفه الشعر الانجليزي على عهد اليزابث من مارلو الذي استطاع ان يحرره من وحدة الروي ، وبذلك مهد لظهور الشعر المسرحي على يد شكسبير . حقيقة حاول الشعراء العباسيون كأبي العتاهية في ارجوزته ، وأبان اللاحقي في نظمه لكتاب كليلة ودمنة ان يحطموا هذا القيد ، ولكنهم لم ينجحوا لشدة اعتزاز الأذن العربية بالروي . ونحن لا نشك في ان هذه الفكرة لو اعتنقها شاعر فحل كالمتنبي ابعد اثرا من هذين واشباههما ولعل هذا الميل الطبيعي بين شعراء العربية ونقادها الى المحافظة على موسيقى الشعر كان الصخرة التي تحطمت عليها محاولة ابي تمام تجديد الشعر العربي في معانيه واصباغه التي تستمد الوانها من المحسنات البديعية . فقد كان غَوص ابي تمام على المعاني وبحثه عن المحسنات صارفا له عن العناية بموسيقى الشعر مما أضعف تحمس الناس له ، بل أثار النقاد عليه . وأكبر الظن ان عناية البحتري بموسيقى الشعر عناية فائقة لم تكن مجرد مصادفة ، بل كانت محاولة موفقة منه لاستغلال الظروف السائدة وتحويل ثورة النقاد على ابي تمام الى عاصفة من التصفيق له وقد نجح في ذلك أيما نجاح . وكان مما أثر عنهم في بيان سبب تعصبهم له انه يحافظ على عمود الشعر ولم يحددوا بالضبط ماهية ذلك العمود وأوصافه الا اننا نستطيع الاهتداء اليه بتتبع أبرز الخواص التي يمتاز بها شعر البحتري من جهة والتي يلتقي فيها مع شعراء الجاهلية من جهة اخرى وقد وجدنا بعد البحث الطويل ان اول ما يصادف المرء في ذلك الصدد الطبع الموسيقية .

بناء القصيدة

ونختم حديثنا عن الشعر الجاهلي ببيان الخطوط العريضة في بناء

القصيدة الجاهلية . ولعل اول ما ينبغي التنبيه عليه هنا أن الشعر الجاهلي كأخيه الاسلامي لم يرو جميعه في صورة قصائد مطولة ، بل منه مقطوعات قصيرة أنشدت في مناسبات غير خطيرة . او اكتنفتها السرعة ، فلم يشأ او لم يتمكن الشاعر من اعطائها ما تستحقه من عناية واهتمام ، ومنـــه قصائد مطولة جمع لها الشاعر شعاب نفسه واستغل فيها فنه ومواهبه الى ابعد حدود الاستغلال . والنوع الثاني هو موضوع بحثنا الان . اما الاول فليس له بناء خاص جدير بالدراسة بل كان يلقي به الشاعر دون ان يلقــي له بــالا .

ولعل أتم صورة للنوع الثاني المعلقات العشر وان كان بجانبها مئات من القصائد بدؤها بالوقوف على ديار الحبيبات بعد رحيلهن ، والدعاء لها حينا والبكاء عليها احيانا ، ووصل ذلك بالحنين الى صواحبها ، واستعراض شيء من ذكريات الشاعر عنهن ، او علاقته بهن بمثل هذا يبدأ معظم الجاهليين قصائدهم مسرفين او مقتصدين . ثم يفترقون بعد ذلك وفقا لمشاربهم . فامرؤ القيس مثلا ينتقل من التشبيب الى الصيد وما التبس به مـــن وصف الخيل .

وطرفه يذكرنا بأن له هواية غير الصيد وهي الضرب في عرض الصحراء على ظهر ناقته التي يسرف في الحديث عنها اسرافا يضيق به من لم يألف الشعر الجاهلي . وبعد الفراغ منها يأخذ في غرضه الاصلي ، من الفخــر بنفسه ، والدفاع عنها امام لائميه على شربه وتبذيره .

على ان هناك أمثلة قليلة لمعلقات او قصائد بدئت بالغزل والتشبيب دون تعرض للاطلال والدمن كمعلقة عمرو بن كلثوم . ونوع ثالث وان كان أقل من القليل لم يتعرض فيه صاحبه التشبيب الا تائبا منه مستغفرا . وقد استبدل به وبالاطلال وصف الطبيعة والصيد منتقلا من ذلك الى المدح . ونشير بذلك الى قول زهير بن ابي سلمى يمدح حصن بن حذيفة بن بــدر الفزاري :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله ... وعُرّي أفراس الصبا ورواحله (١١)
واقصرت عمـــا تعلمين وسُدّدت ... عليّ سوى قصد السبيل معادلــه

---

١١ ــ ديوانه ص ٢٤ .

وغيث من الوسمي حُوٌّ تلاعـــه		اجابت روابيه النّجاء هواطلـــه (١٢)
هبطت بممسود النواشر سابـــح		ممر أسيل الخد نهد مراكلـــه (١٣)

فانه يستمر بعد ذلك في وصف حصانه رابطا بين ذلك وبين الصيد ثم يخلص الى غرضه من مدح حصن بن حديفة . ولندع هذه الامثلة النادرة جانبا ، ونتقدم لنسأل انفسنا عن السبب في حرص الشعراء الجاهليين على ان يبدؤا قصائدهم بمقدمات تمهيدية خارجة عن الموضوع الاصلي قد يكون مدحا او فخرا او نحوه ، ولماذا لا يهدفون الى الغرض الاساسي من القصيدة مباشرة ثم لماذا كان النسيب وذكر الديار البالية أحب الموضوعات اليها ، واخيرا ما الضرورة الى ذكر الناقة والصحراء بحيوانها ونباتها ؟

لقد نقلَ ابن قتيبة (١٤) عن ناقد لم يذكره اجابة لهذه الاسئلة نذكرها مع الاختصار قال : «سمعت بعض اهل العلم يقول ان مقصِّد القصيدة انما بدأها بذكر الديار فشكا وبكى ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها ثم وصل ذلك بالنسيب ليميل نحوه القلوب ويستدعي اصغاء الاسماع اليه لان النسيب قريب من النفوس . فاذا تأكد من اصغاء الناس اليه عقّب بايجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وإنضاء الراحلة فاذا علم انه اوجب على صاحبه حق الرجاء بدأ في المديح فهزه على السماح وفضّله علـــى الاشبـــاه » .

وفي رأينا ان اجابة ابن قتيبة جزئية وجانبية ، لانه ان امكن في ضوئها تعليل قول الاعشى في مدح الرسول (ص) :

ألم تغتمض عيناك ليلـة أرمـــدا		وبت كما بات السليم مسهـــدا (١٥)
وما ذاك من عشق النساء لاننـــي		تناسيت بعد اليوم خلّة مهـــددا
ولكن ارى الدهر الـــذي هو خائن		اذا أصلحت كفاي عاد فأفســـدا

---

١٢ ـ الوسمي : اول المطر ـ التلاع : مسايل الماء ـ حو : جمع حـــواء ، أي ان اطراف النبات سوداء من شدة الخضرة والخصب .

١٣ ـ ممسود : مفتول ـ النواشر : جمع ناشرة وهو عصب الذراع ـ الممر : المحكم ـ المراكل : جوانب الفرس التي تركلها رجل الفارس ـ نهد : ضخم .

١٤ ـ الشعر والشعراء ص ١٤ .

١٥ ـ ديوانه ص ١٣٥ ـ الارمد : الذي يشكو وجعاً في عينه ـ السليم : الـــذي لدغته الحية .

شباب وشيب وافتقار وثروة فلله هذا الدهر كيف ترددا
وما زلت أبغي المال مذ كنت يافعا وليدا وكهلا حين شبت وأمردا
وابتذل العيس المراقيل تغتلي مسافة ما بين النجير فصر خدا (١٦)
الا أيهذا السائلي اين يممت فان لها في اهل يثرب موعدا
فآليت لا أرثي لها من كلالة ولا من حفي حتى تلاقي محمدا (١٧)
متى تناخي عند باب ابن هاشم تريحي وتلقي من فواضله يدا (١٨)
نبي يرى ما لا يرون وذكره اغار لعمري في البلاد وانجدا (١٩)

حيث يدل روح القصيدة وهذا المزج بين الاسفار وحب المال ان الشاعر كان حريصا على ان يلفت نظر الرسول الى الغرض من تحمله هو وناقته المشاق . او امكن بها تعليل كثير من قصائد المدح التي جاءت بعد عصر الاعشى كقول جرير في عبد الملك مثلا :

أتصحو ام فؤادك غير صاح عشية هم صحبك بالرواح

حيث يذكر عدة أبيات في الغزل ثم ينتقل الى ذكر رحلته باختصار فيقول :

سيكفيك العواذل أرحبي هجان اللون كالفرد اللياح (٢٠)
يعز على الطريق بمنكبيه كما ابترك الخليع على القداح (٢١)

فانه لا يمكن في ضوئها ولا ظلالها تعليل كل ما ورد من ذلك قبل عصر الاعشى واخوانه وقبل ان يصير الشعر مرتزقا وطريقا لكسب المال والثروة. بل ولا تعليل ما جاء بعد ذلك من أشعار في غير المدح من أغراض كالفخر

---

١٦ ـ المراقيل : التي ترقل في سيرها أي تسرع ـ تغتلي : تسرع ـ النجير : مكان بحضرموت ـ صرخد : مكان الجزيرة .

١٧ ـ الكلالة : الكلال والتعب .

١٨ ـ اراح : رجعت اليه نفسه بعد الاعياء .

١٩ ـ أغار : سار الى الغور وهو ما انخفض من الارض ، وأنجد : صعد النجاد وهي المرتفعات .

٢٠ ـ ارحبي : نسبة الى فحل لبني أرحب من همدان ـ الفرد : الثور المنفرد . اللياح : الابيض .

٢١ ـ يعز : يشتد ـ الخليع المقامر ـ القداح : سهام الميسر .

والهجاء . اذن فالمسألة في حاجة الى نظرة أشمل وتوجيه أدق (وهذا ما نستعين بالله عليه) واليك رأينا في هذا الصدد :

يظهر ان الشعر العربي كما يفهم من اشتقاقه بدأ اول الامر في صورة نجوى بين المرء ونفسه يترجم بها عن مشاعره ، ويتغنى فيها بآماله وآلامه ، وعواطفه ونزعاته كلما طال عليه الليل ، او امتد به الطريق ، فيحيل تلك المشاعر والعواطف الحانا عذبة ، وأغاريد شجية . وأي شيء أحب الى نفسه والصق بفؤاده من حبيبته يسترجع ذكرياته معها حلوها ومرها ، او يبثها هواه وشكواه ، ان قدر له ان يلقاها او يلقى من يلقاها فان حال الزمان بينهما فارتحلت عن ديارها على عادة البدو ، لم يجد سوى الربع الخالي يروي ارضه بدموعه حينا ، ويسأله عن الحبيبة الراحلة احيانا ، ويتلمس في جوانبه موطىء أقدامها ، ومضجع جنبها . فاذا أعياه التماسها هناك ، التمس صورتها في وجه القمر ، وتسمع حديثها في هديل الحمائم ، وتنسم أنفاسها عند الأصائل والاسحار .

ومن يدري لعل الشاعر العربي لم يكن يبكي حبيبته او يرثي لعشهما المهجور فقط ، بل كان يبكي من حيث لا يشعر ذلك الحظ التعس الذي مني به هو وأمثاله من البدو حين فرضت عليهم ضرورة الحياة ، الا يزالوا متنقلين على رقعة الصحراء كأنهم قطع الشطرنج ، تاركين في كل مكان فلذة من أكبادهم وقطعة من تاريخهم ، فهم دائما غرباء وهم دائما على سفر ، في اجتماع وافتراق ، ووصل وهجران ، مختارين حينا ، ومكرهين احيانا .

ولست ادري مدى ما يمكن ان يكون في قولنا من صواب ، اذا ذهبنا الى ان ارتباط الرجل العربي بالمراة من جهة وبالبيت من جهة اخرى اقوى مما نتصور . فلم يكن عبثا ان يقول الله تعالى وهو العليم بسرائر خلقه «والله جعل لكم من بيوتكم سكنا» ويقول في آية اخرى «ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها» .

ان الشيء الذي يمكن ان يهدينا اليه مجموع هاتين الآيتين هو ان المرأة تمثل في حياة العربي بعامة والبدوي بخاصة عنصر الاستقرار النفسي والحسي الذي كان يود بجدع الانف ان لو ادركه في بيئته المضطربة القلقة: أليس خباؤها هو المكان الوحيد الذي يأوي اليه من كل تلك الصحراء العريضة حين يفرغ من مشاكل البادية التي لا تنتهي فيصادف فيه نوعا من الراحة والاطمئنان ، أليست الحياة دائما في تجدد وتنكر امامه الا وجهها ينظر اليه كلما دارت به الحياة ، فيدرك انه لا يزال في يده شيء جوهري من

ماضيه العزيز يمكن ان يبنـــي عليه مستقبله ، ثم يستأنف رحلته في طريق الحياة الذي لا ينتهي الا حيث ينتهي جميع الاحياء . وهذا هو السر فـــي تعلقه بها ، وحنينه اليها ، وربطه بينها وبين الديار ، ديارها اولا ، وديار الجنس المشرد ثانيا . وإذن فنحن نظلم العرب ، ونسيء الى الشعر العربي، حينما نقول ان حب العربي للمرأة كان حب الجسد للجسد فقط ، فلو كان كذلك لما طال بهم الحنين اليها . فأشد الناس شغفا بالجسد أسرعهم نسيانا له حين يختفي عن نظره . ونظلم الحقيقة حينما ندعي ان العرب اهانـــوا المرأة بترديد ذكرها في مطالع قصائدهم (٢٢) .

شغل العربي اذن بنفسه وعواطفه اول الامر ، وكانت المرأة وديارها أهم تلك العواطف وأكثرها جريانا على لسانه (٢٣) وقد حسن موقع اغانيه تلك من نفسه ومن نفوس السامعين ، وظهر تأثير الشعر على النفس البشرية ، فوجدت فيه القبيلة سلاحا هاما تدافع به عن نفسها في السلم والحرب ، واستعمله الشاعر رافعا من شأنها ، واضعا من شأن اعدائها ، وظل مع ذلك يبدأ بنفسه اول القصيدة ، متحدثا كما كان يفعل من قبل عن مشاعـــره وعواطفه وأي خير فيه وفي شعره ان لم يكن له منه نصيب الاسد بـــدأ الشاعر بنفسه اعتزازا بها وبعواطفها من جهة ، وجريا على قديم عادته من جهة اخرى ، ولكنه ما لبث ان ادرك بوضوح ان مثل هذا البدء يخدم غرضه الجديد (٢٤) من ناحيتين اولاهما انه يقوي انفعاله ، ويذكـــي شاعريته ، ويرضي شيطانه ، فيمده بكل جديد وعجيب من المعاني والافكار (٢٥) .

---

٢٢ ـ الشعر الاندلسي ص ٥٧ .

٢٣ ـ ان معلقة امرىء القيس صورة مكبرة لذلك النوع الذي لم يفكر فيه الشاعر فيما وراء نفسه ، ولم يشتغل بما وراء عواطفه . وهذه المعلقة تعتبر فريدة من هذه الناحية بين بقية المعلقات التي لم تخل من غرض هام بجانب اللهو المرح ولعل السبب في ذلك ان امرأ القيس أنشدها في الفترة الاولى من حياته التي وهبها للذة وللشيطان ، ولم يكن اثناءها يحفل بما سواها من أمور الحياة .

٢٤ ـ العناية بشؤون قبيلته .

٢٥ ـ مما قدمنا نعلم ان بدء الرثاء بالغزل معيب لان الموقف موقف حزن . وقد خالف ذلك ابن المعتز في رثائه للمعتضد شماته به . وذلك حين يقول :

صدت وأغـــرت طيفها بمتيـم ... ان الفـــراق لمغـرم بالمغــــرم
وبدت تحسبك مـــن وشاح ناطق ... كثرت وساوسه وحجـــل مفعـم

ثانيهما : انه يخدر السامعين ويسحرهم بتلك العواطف الانسانية العامة التي يرى فيها السامع صورة من عواطفه ومغامراته ، فتأخذه هـــزة ونشوة تنسيه المنطق الجاف ، بل والوقار والتعقل ، وتجعله اداة طيعة في يد الشاعر يوجهه بها كيفما شاء ، فان كانت دعوته الى حرب هب القوم الى سلاحهم فلبسوه ، وان كانت الى سلم عادوا اليه فخلعوه .

وبما قدمنا من ان تأثير هذه المقدمات مزدوج يتناول الشاعر والمستمع كليهما ، يبدو ما في تعليل ابن قتيبة من قصور ، حيث يفهم منه ان المتأثر هو السامع فقط ، ومن اجله حيكت تلك المقدمات ، ولكي نزيد الامر وضوحا نضرب مثلا بالمقدمات الموسيقية التي تعزف بين يدي الاغاني عند انشادها. أيتأثر بها الجمهور المستمع فقط ام يشاركه المغني والمغنية ذلك الشعور ؟ اكبر الظن ان جميع من شاهد المحافل الكبرى يؤكد معنا اهتزاز المغنين والمغنيات الشديد لتلك المقدمات مثل الجمهور تماما ، بل اكثر وأعمق من الجمهور . وأكبر الظن انهم بدون تلك المقدمات قد لا يحسنون الغناء ، بل ولا يستطيعونه .

على ان الظروف قد تجعل هذا الغزل ضرورة في بعض المواقف كما هو الحال في نقائض جرير والفرزدق فان فيها كثيرا من السباب والترامي بالتهم وهذه الامور يثقل على النفوس الاخذ فيها ابتداء ، وكأنني بجرير حين يقول:

بكـــرت حمامة أيكـــة محزونـــة تدعو الهديل فهيجت أشجانـــــي
لا زلت فـــي غلل يسرك ناقـــــع وظـــلال أملس وارف الاغصـــــان

كأنني به يخدر الاعصاب ويستميل الاسماع حتى تتجاوز عما عساه أن يأتي به بعد ذلك من ايذاء للذوق العام بهجومه على أعراض خصمه ونهشه لحمه (٢٦) وبالرغم مـــن كل ما سقناه فربما رفض بعض الشعراء احيانـــا الاستعانة بالغزل على الدخول في المديح ، كما ترى في مثل قول المتنبي يمدح سيف الدولة :

---

٢٦ ــ وفي هذا المعنى او قريب منه يقول ابن الرومي :

ألـــم تر انني قبل الاهاجـــي أقدم فـــي أوائلهـــا النسيبـــا
لتخرق فـــي المسامع ثم يتلو هجائي محرقـــا يكوي القلوبـــا
كصاعقـــة اتت فـــي اثر غيث وضحـــك البيض تتبعه النحيبـــا

(ديوانه ص ١٣٥ . تصفيف كيلاني) .

اذا كان مدح فالنسيب المقدم اكل فصيح قال شعرا متيم
لحب ابن عبد الله أولى فانه به يبدأ الذكر الجميل ويختم
اطعت الغواني قبل مطمح ناظري الى منظر يصغرن فيه ويعظم

واكبر الظن ان اعتداد المتنبي بنفسه وتمكنه من الاستيلاء على نفوس السامعين دون كبير عناء ولاسيما في الشطر الثاني من حياته كان يجعله في غير حاجة الى تملق السامعين عن طريق الغزل ، بل كان يفرض نفسه عليهم فرضا .

وتتدخل الظروف احيانا ايضا لتخرج احاديث الطلال والدمن عن ثوبها التقليدي وتجعل منها موضوعا حيا كما ترى في قول الحرث بن حلزة :

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاوٍ يمل منه الثواء
بعد عهد لنا ببرقة شمَّا ء فأذنى ديارها الخلصاء
فالمحيَّاة فالصفاح فأعنا ق فتاق فعاذب فالوفاء
فرياض القطا فأودية الشر بب فالشعبتان فالأبلاء
لا ارى من عهدت فيها فأبكي اليوم دلها وما يرد البكاء

او قول عبيد الله بن قيس الرقيات :

اقفرت من عبد شمس كداء فكدي فالركن فالبطحاء
فمني فالجمار من عبد شمس مقفرات فبلدح فحراء
فالخيام التي بعسفان فالجحفة منهم فالقاع فالأبواء
موحشات الى تعاهن فالسقيا قفار من عبد شمس خلاء
قد اراهم وفي المواسم اذ يغدون حلم ونائل وبهاء

الى ان قال :

حبذا العيش حين قومي جميع لم تفرق أمورها الأهواء

فهذا الاسراف في ذكر الاماكن يدل على ان للشاعر غاية من ورائها اسمى وأعمق من المحافظة على بناء القصيدة ، وغرض ابن قيس الرقيات واضح فهو يتفجع على مجد قريش . ثم يوازن بين عبد شمس وحفدتهم الامويين فيذكر ان الاوائل كانوا ابر بالحجار وأهله من الاواخر . فهؤلاء جمعوا قريشا تحت لواء واحد وأولئك فرقوا كلمتها وضيعوا وحدتها ونقلوا الخلافة من الحجاز الى الشام في أحضان القبائل اليمنية المنتشرة هناك .
فاستعراض الاماكن المذكورة هنا يراد به اثارة الماضي حيث يمثل كل

مكان مجموعة من الذكريات العزيزة على نفس كل حجازي وقرشي فهو أشبه بتلك المناظر التي تمر بخيال الحالم كلما عاد بذاكرته الى الماضي . او بلغة العصر الحاضر هو أشبه بتلك الصور والمناظر التي يقحمها المخرجون من رجال الخيالة فيما بين أيديهم من قصص فيقطعون بها سير الحوادث كلما ارادوا العودة بأبطال القصة والنظارة معهم الى ماض بعيد .

واكبر الظن ان الحرث بن حلزة لم يكن مشغولا اثناء تعداده لهذه الاماكن بحبيبته أسماء رغم الربط الظاهري بينها وبين تلك الديار ، بل كان مشغولا بقومه وقبيلته . ولعله كابن قيس الرقيات كان يشير الى ما مضى من زمن كانت تغلب وبكر فيه اخوين متواصلين غير متقاطعين ، متقاربين غير متدابرين ، ويؤكد هذا قوله يعقب ذلك :

لا ارى من عهدت فيها فأبكي   اليوم دلها وما يفيد البكاء

فان اللاشعور قد فضحه في هذا البيت اراد ام لم يرد .

هذا ما كان من شأن المراة وما يتصل بها من دمن واطلال . والآن ما شأن الناقة والصحراء والرحلة والاسفار ؟ لقد رأينا صورة من ذلك في شعر الاعشى وجرير ، واتخذنا منه نموذجا للمتكسبين بأشعارهم . فماذا كان موقف الناقة قبل ان يصير الشعر مطية لكسب المال ؟

اخطرت في شعر الاوائل من الجاهليين ، وما كان الغرض من ذكرها مع انهم لم يكونوا اذ ذاك امام سادة يمدحونهم ، ويعرضون لهم بما تحملوه في سبيل الظفر برؤيتهم من مشاق واهوال ؟ وجواب ذلك ان احاديث الناقة والضرب بها في عرض الصحراء وكبد البادية قد ورد كثيرا في شعر الجاهليين الاوائل على انه نوع من تلك المغامرات الحبيبة الى نفوسهم . فهم يستعيدون بذكر الناقة والصحراء عصر المخاطرة والفتوة والشباب الذي تركوه وراء ظهورهم . وهو لذلك جزء مكمل لما بداه الشاعر من الحديث عن عواطفه وذكرياته اثناء الحديث عن المراة . وهذا هو السبب في ان مالك ابن الريب وقد حضرته الوفاة بمرو بعيدا عن دياره بجزيرة العرب، قد لخص أمانيه من الحياة في بيتين (٢٧) :

الا ليت شعري هل ابيتن ليلة
بجنب الغضي ازجي القلاص النواجيا

---

٢٧ ـ ذيل الامالي ص ١٣٥ .

فليت الغضي لم يقطع الركب عرضـــــه
وليت الغضي ماشي الركـاب لياليـــــا

ومثله قول جميل بثينة :

الا ليت شعري هل أبيتن ليلـــــة بوادي القرى اني اذن لسعيـد (٢٨)
وهل ازجرن حرفا علاة شملـــــة بخرق تباريهـــا سواهم قـــود (٢٩)
على ظهر مرهـــوب كـــأن نشوزه اذا جاز هلاك الطريق رقـــود (٣٠)
وهـــل اهبطن ارضا تظـــل رياحها لهـــا بالثنايا القاويـــات وئيد (٣١)

والمتأمل في شعر الاوائل من الجاهليين يدرك صدق ما قدمناه ألا ترى طرفة مثلا يقول في قصيدته الراثية بعد ان فرغ من التشبيب بحبيبته هر:

وبـــــلاد زَعِـــــل ظلمانهـــــا كالمخاض الجرب في اليوم الحذر (٣٢)
قـــــد تبطنت وتحتـــــي جسرة تتقي الارض بملثـــــوم معـــر (٣٣)
فترى المـــــرو اذا مـــــا هجرت عـــن يديهـــا كالفراش المشفتر (٣٤)
ذاك عصر وعدانـــــي انـنـــــي نابنـــــي اليوم خطـــــوب غير سر
مـــــن أمـــــور حدثت امثالهـــــا تبتري عـــــود القوي المستمر (٣٥)

---

٢٨ ـ الامالي ج٢ ص ٢٩٩ .

٢٩ ـ حرف : ناقة ضامرة ـ العلاة : الناقة المشرفة ـ الشملة السريعة ـ الخرق : الفضاء الواسع ـ سواهم : جمع ساهمة بمعنى ضامرة ـ قود : طيعة ، منقادة : جمع قوداء، كسود وسوداء .

٣٠ ـ نشوزه : جمع نشز (بفتح الشين وسكونها) وهو المكان المرتفع عما حوله . ـ هلاك الطريق : المسافرون المتعرضون للهلاك فيه ، اي أقطع بهذه الناقة طريقا تبدو نشوزه حين أمر بها وكأنها قوم ينلم .

٣١ ـ الثنايا : المنعطفات ـ القاويات : الخاليات ـ وئيد صوب .

٣٢ ـ ديوانه . زعل : نشيط ـ ظلمان : جمع ظليم وهو الذكر من النعام ـ المخاض: الحوامل من النوق . الحذر : الشديد البرد .

٣٣ ـ تبطنت : صرت في بطنها اي جست خلالها ـ جسرة : ناقة عظيمة ـ معر : ذهب شعره .

٣٤ ـ المرو : الحجارة البيض ـ هجرت : سارت وقت الهجرة ـ المشفتر : المتفرق .

٣٥ ـ المستمر : ماض في شأنه لا يضعف ولا يلين .

الست ترى ان البيتين الاخيرين يمكن ان يبسطا على النحو التالي : تلك ايام عذبة جميلة مضت لسبيلها ولن تعود ، فقد حل بي اليوم من هموم الحياة ومشاغلها ما حال بيني وبين المتعة والاسفار . ويروي ذكر الرواحل مقترنا باللهو والهوى والشباب في قول زهير :

صحا القلب عن سلمى واقصر باطلـه وعرّى أفراس الصبا ورواحله (٣٦)

على ان امرأ القيس قد قطع كل جدل حول هذا الموضوع بأبياته التي عدد فيها هواياته في الحياة وجعل الضرب بالعيس في مناكب الارض احداها، وذلك اذ يقول :

فأصبحت ودعت الصبـا غـير انني أراقب خلات من العيش أربعـا (٣٧)
فمنهن قولي للندامـى ترفقــوا يداجون نشاجـا من الخمر مترعـا
ومنهـن ركض الخيل ترجـم بالقنا يبادرن سربـا آمنا ان يفزعـا
ومنهن نـص العيس والليـل شامل ييممن مجهولا من الارض ببلقعا (٣٨)
خوارج مـن برية نحـو قريـة يجددن وصلا او يرجّين مطمعـا

وما زال منظر الابل وقوافلها يسحر الشاعر الاموي كما كان يسحـر سلفه في الجاهلية فترى كثير عزة في معرض قسمه لها يرسم لنا لوحـة بديعة لقافلة من الابل تسير بالحجيج الى مكة رسما يدل على رقة ومشاركة وجدانية فيقول :

حلفت برب الراقصات الى منـى خلال الملا يمددن كـل جديـل (٣٩)
تراهـا رفاقـا بينهن تفـاوت ويمددن بالاهلال كل أصيـل (٤٠)
تواهقـن بالحجاج مـن بطن نخلـة ومن عزور والخبت خبت طفيل (٤١)

---

٣٦ ــ ديوانه (المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٣ هـ) ص ٢٦ .
٣٧ ــ ديوانه ص ١١٢ .
٣٨ ــ العيس : الابل ــ نصها سوقها .
٣٩ ــ الامالي جـ٢ ص ٦٣ . الراقصات : النوق لانها تهتز في سيرها كأنها ترقص ــ الملا.
٤٠ ــ الإهلال : قول (لا إله الا الله) فلعله يريد ان هذا الاهلال يفعل فيها فعل الحداء فتسرع في سيرها وقت الاصيل .
٤١ ــ تواهقن : تبارين ــ بطن نخلة ، عزور ، خبت طفيل اماكن بعينها .

بكل حــرام خاشع متوجــــه الى الله يدعـــوه بكـــل نقيل (٤٢)
على كـل مذعان الرواح معيـــدة ومخشية ألا تعيـــد هزيـــل (٤٣)
شوامذ قـــد ارتجن دون أجنـــة وهوج تباري في الأزمـــة حول (٤٤)

واخيرا أليست الناقة شريكة العربي في مسراته وأحزانه ومعوانه على بلوغ مأربه وإمضاء همومه . وبذا قويت الرابطة بينهما حتى ليكاد يناجيها بخلجات نفسه وتناجيه . استمع الى قول عروة بن حزام ، وقد ترك اليمن خلفه واتجه نحو العراق في طلب حبيبته وابنة عمه ، ثم انظر كيف يمزج بين عواطفه وعواطف ناقته ، ان صح ان للنوق عواطف وأهواء .

هوى ناقتـــي وقدامـــي الهـــوى وانـــي وإياهـــا لمختلفـــان
هواي عراقـــي وتثنـــي زمامهـــا لبرق اذا لاح النجـــوم يمـــان
متى تجمعـــي شوقي وشوقك تظلعي ومالـــك بالعبء الثقيل يـــدان

---

٤٢ ـ النقيل : الطريق .

٤٣ ـ المذعان : المذللة ـ معيدة : عاودت السير .

٤٤ ـ الشوامذ : الشائلات الاذناب ـ حول جمع حائل وهي التي لا تلقح .

الباب الثاني

الفصل الأول

عصر صدر الاسلام

الآن وقد حددنا أهم سمات وملامح الشعر الجاهلي نستطيع ان نتخذ منها اساسا او ميزانا نقيس عليه او به مدى ما اصاب الشعر الجاهلي من جمود او تطور على مر العصور . وقبل ان ندخل في تفاصيل ما تم من ذلك في صدر الاسلام ، ينبغي ان نتفق على قاعدة عامة ، وهي ان الشعر كفن من فنون الادب يركد ويجمد حين تركد الحياة وتصاب بالشلل الفكري ، ويتطور ويخطو الى الامام قدما حين تتطور الحياة وتتجدد بما يطرأ عليها من احداث داخلية او اتصالات خارجية .

فلننظر اذن الى الاسلام ، أيمكن ان يسمى حدثا هاما ؟ الذي لا شك انه لم يكن حدثا وكفى ، بل ثورة ، بيضاء هادئة ما وجدت الى ذلك سبيلا، حمراء صارمة ما اعوزها الصبر ، وأعيتها الحيل . ثورة على الاوضاع الاجتماعية الظالمة ، والانظمة السياسية البالية ، والخرفات الدينية المزرية.

لم تكن ثورة هوجاء او عمياء ، بل ثورة متعقلة لها فلسفتها العملية والنظرية ومن خلفها كتاب مقدس يمثل اعظم ثورة ادبية اعلنها كتاب من الكتب في اية لغة من اللغات . فأين أثر ذلك جميعه او بعضه في الشعر العربي ؟ اننا ننظر هنا وهناك فلا نرى شيئا ، اللهم الا مفردات او شبه

مفردات اقتبسها من القرآن حسان واخوانه من شعراء الرسول (ص) في ردودهم على شعراء قريش ، ردود لا تكاد تختلف عن الهجاء الجاهلي في قليل ولا كثير . فأين روح الاسلام وتسامحه ، واين صرخاته المدوية في سبيل العدل والمساواة ، الم يأخذ كل ذلك طريقه الى شعراء الصدر الاول للاسلام ؟ بل واين تأثر الشعر العربي بالقرآن من حيث الاسلوب والمعنى، اسئلة كثيرة سنحاول الاجابة عليها فيما يلي :

لم تكن العداوة بين الدعوة الاسلامية والشعر سرا خافيا ، فقد كان الشعراء شديدي الوطأة على الرسول (ص) ، آذوه في شخصه وفي اهله، وفي دعوته . وكان يود مخلصا لو هادنهم وهادنوه . ولذا بادر باطلاق سراح ابي عزة الجمحي عندما وقع اسيرا في يده يوم بدر دون فدية او اذى . ولكنهم ابوا الا على ان يحتضنوا قضية الباطل في تحمس واخلاص . ومع ان مؤرخي الادب ورواته قد تحرجوا (١) من تدوين تلك الهجمات الشعرية التي شنها القرشيون على الرسول وصحبه ، فاننا لا نشك في انها كانت لاذعة ومقذعة . وإلا ما استحل الرسول وهو الرؤوف الرحيم دماءهم ، واعلنها حربا عليهم لا هوادة فيها ولا مهادنة فمنهم من قتل ومنهم من القى السلاح ، ورمى بنفسه بين قدمي الرسول عائذا تائبا .

ولم يتخلف القرآن عن تلك الحرب فهاجم الشعراء في اكثر من موضع وقد رسم للشعر دستورا لا يتعداه وحدا لا يتخطاه في قوله «والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر انهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» .

وظاهر الآية ان الشعر بجميع انواعه والوانه غير مرغوب فيه الا اذا جرى في ركاب الدعوة الجديدة . وقد تقيد الصحابة بتلك الآية حرفيا ، فأقسم لبيد الا يقول شعرا ووقف الباقون مواهبهم على خدمة الدعوة برد هجمات قريش ؛ حتى اذا وضعت الحرب الادبية بين قريش والرسول اوزارها لاذوا بالصمت . وهكذا خمدت انفاس الشعر في مكة والمدينة واضطربت قوائم عرشه في باقي الجزيرة العربية . ولعل الحطيئة هو خير من يمثل محنة

---

١ ـ من العجب ان القرآن نفسه لم يجد بأسا في الاشارة الى بعض ما ينسبه المشركون الى الرسول من الجنون والسحر والافتراء وعدم الانجاب . وبهذا صار الرواة ملكيين اكثر من الملك ، وضاعت تلك الآثار ، والويل للمغلوب .

الشعراء في تلك الفترة . فقد كان الشعر مرتزقه وصناعته ، أعد لها نفسه اعدادا كاملا ، فلما جاء الاسلام شغل الناس عنه وعن شعره بالدعوة الجديدة ، وبكتابها الذي فاق الشعر حتى كاد يكون سحرا ، فصبر مغيظا محنقا ، حتى اذا قامت فتنة المرتدين حب فيها ووضع ، وود ان لو عادت جذعة حتى يستعيد هو وأمثاله مجدهم السالف وسلطانهم الغابر ، وقد حفظ لنا التاريخ شيئا من شعره في ذلك الصدد وفيه يقول :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لابي بكر
أيورثها بكرا اذا مات بعده لتلك لعمر الله قاصمة الظهر

ويفيء المرتدون الى ظل الاسلام الوريف ، ويعود الحطيئة معهم وعباءة الجاهلية فوق كتفيه ، وقوافيه المسمومة تتطاير هنا وهناك تطاير المريش من السهام ؛ فيضطر عمر بن الخطاب الى القائه في السجن ، وتهديده بقطع لسانه حتى يكف عن الناس (٢) .

ولعل روح الدين الجديد الذي ينهي عن التعظم بالآباء ، ويحرّم الخمر ، وينفر من التعرض لأحساب الناس بالهجاء ، وأعراضهم بالتشبيب — لعل كل ذلك كان سببا في ضعف الشعر العربي بضعف الدوافع اليه . وإلا فماذا يقول الشعراء في مدائحهم وقد صار ابو هريرة وابن مسعود وبلال وغيرهم من المغمورين أكرم على الله وعلى الناس ، بفضل تقواهم من صناديد قريش وقادة العرب . ثم في اي شيء يحوض الشعراء ، وقد حرمت اهم الموضوعات التي تثير الشعور وتعين عليه ، من شرب وغزل وهجاء ونحوه ، واذا كان الحطيئة قد زار السجن بسبب الهجاء ، فان أبا محجن الثقفي قد زاره ايضا في سبيل الخمر (٣) ؛ كما عزل نعمان بن عدي عامل عمر على البصرة بأبيات قالها فيها (٤) .

---

٢ — تهذيب الكامل — ٢ — ج — ص ١١٠ .

٣ — عمر بن ابي ربيعة ص ١٦٨ .

٤ — عمر بن ابي ربيعة ص ٦٦ ومن قوله فيها :

من مبلغ الحسناء أن حليلها بميسان يسقي في زجاج وحنتم
اذا شئت غنتني دهاقين قرية وصناجة تجذو على كل منسم
اذا كنت ندماني فبالاكبر اسقني ولا تسقني بالاصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ عمر ذلك قال : اي والله انه ليسوءني ذلك ، وعزله .

ولقائل ان يقول : فما بال الشعراء لم يتجهوا الى الحديث عن المبادىء التي جاء بها الاسلام ، من زهد في الدنيا ، وعمل للآخرة وجهاد في سبيل الله ؟ والجواب على ذلك يتطلب الالمام بعدة حقائق .

اولا : ان المسلمين في الصدر الاول للاسلام كانوا على العمل أحرص منهم على القول . ولذا كانوا يرضون عواطفهم الدينية عن طريق الاول لا الثاني . وكانت فرص العمل امامهم كثيرة بسبب الفتوح والغزوات .

ثانيا : ان سلطان الكتاب الجديد على نفوسهم كان اقوى من ان يدع لهم فرصة للتفكير في سواه وماذا كان ينقص القرآن في لغته واسلوبه او معانيه وأهدافه حتى يطلبوه في سواه ؟ الم تقل عنه قريش : انه سحر حينا ، وشعر احيانا . اذن فبحسب المسلم ان يتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، وله على تلاوته أجر كأجر الصلاة والصيام .

ثالثا : ان لغة القرآن كانت مقدسة ومعجزة ، ولعل الجيل الاول من المسلمين قد ظنوا ان مجرد التفكير في محاكاتها ، او النسج على منوالها يعد تحديا لقول الله تعالى : «قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» اذا عرفت كل ذلك ادركت لماذا صمت الشعراء ، وجمد الدم في شرايين الشعر ثم ادركت بعد هذا لماذا لم يتردد صدى الثورة الاسلامية ، وروحها العالية في الشعر وأخيرا ادركت لماذا لم يحاول المسلمون محاكاة أسلوب القرآن بما فيه من محسنات بديعة مختلفة وخصائص اخرى ليس هذا مكان تفصيلها .

«العصر الاموي»

عرفنا ان الصبغة الغالبة على الشعر العربي في صدر الاسلام كانت الصمت او ما يشبه الصمت . سمه توقفا عن الحياة والحركة ، او جمودا او ما تشاء من الاسماء . ولكن ذاك العصر قد انتهى وانتهت معه الظروف التي أدت الى شحوب ضوء الشعر ـ فالناس لا ينظرون الى الشعر على انه رجس من عمل الشيطان ، ثم هم لا يقفون طويلا عند آيات القرآن ليروا ما تأمر به او تنهي عنه(٥) . وقامت احزاب سياسية مختلفة من شيعة وزبيريين

---

٥ ـ الاشارة هنا الى قول الله تعالى «والشعراء يتبعهم الغاوون» .

وامويين وخوارج . ووصل المسلمون في الغرب الى جبال البرانس وفي الشرق الى الهند والصين وفي الشمال الى ابواب القسطنطينية . وسيطرت اساطيلهم على جزء كبير من مياه البحر الابيض . واختلطوا بكثير من الشعوب والاجناس . وبالاجمال صارت لهم امبراطورية بكل ما تتحمله هذه الكلمة من معان واخيلة . فأين كان الشعر العربي من كل ذلك اما زال يغط في ذلك السبات العميق الذي سكن اليه خلال الصدر الاول للاسلام ام نهض منه ؟ وسؤال اشد من هذا اهمية ، وأكثر مناسبة لبحثنا (٦) الى اي شطر ولى الشعر وجهه اثناء تلك الحقبة ؟ كان الشعر العربي اذ ذاك يقف في مفترق الطرق ، فكان يستطيع ان يأخذ عن الدول التي فتحها ، وبعضها كان اعرق حضارة من العرب ، وكان يستطيع ان يأخذ عن الدعوة الاسلامية وكتابها ، وقد كان يستطيع اشياء اخرى كثيرة الى جانب ذلك ولكنه آثر ان يثب وثبة طويلة الى الوراء فيعود الى الشعر الجاهلي ينسج على منواله ، ويجري في ركابه . بم تسمي مثل هذه الحركة اذن ؟ أنسميها جمودا لانها الى الوراء ، ولأن الشعر فيها جمد عند أصوله الاولى ، ام نسميها تقليدا لانه أولع بتقليد الماضي . نترك لك الخيار مرة اخرى في ان تسميها بأحب الاسماء اليك ، وأعذبها وقعا في آذان القارئين الا التطور .

فان كنت لا محالة فاعل فلي معك حديث ارجو الا يطول : وكأني بك تنسبني الى الغلط او المغالطة فيما أدعيه من تشابه تام او شبيه بالتام بين الامويين والجاهليين ، نتيجة لتقليد هؤلاء الأولئك . وأنا اعلم ان كتابا قيما قد ألف في هذا الموضوع (٧) وان صاحبه قد أنفق كثيرا من وقته كي يقنعنا بأن تطورا خطيرا قد اصاب الشعر العربي اثناء ذلك العصر ، ولكن ماذا أجداه ذلك المجهود الجبار ، والجبروت لا يغني شيئا ما دامت القضية من اساسها خاسرة .

لقد قيل لنا ان نقائض جرير مع الفرزدق والاخطل كانت بدعا من الشعر ومن الهجاء وأن مثل ذلك او قريبا منه يمكن بل ينبغي ان يقال في غزل عمر بن ابي ربيعة ، وحديث ذي الرمة عن البادية ، واحتجاج الكميت لآل البيت ، ونحن نعتقد ان في مثل هذا القول مخالفة كبيرة ، لا لرأي السابقين من النقاد فقط بل للشعر الاموي نفسه ، حيث لا ترى فارقا

---

٦ ـ لانا نبحث هنا عن تطور الشعر واتجاهاته لا قوته وضعفه .

٧ ـ التطور والتجديد في الشعر الاموي للدكتور شوقي ضيف .

كبيرا بينه وبين شعر الجاهليين .

ولا نقول هذا لاننا ننكر انكارا تاما ان هناك فروقا بين شعراء العهد الاموي وأسلافهم من الجاهليين ، وكيف يمكن هذا والحياة والاحياء في حركة دينية مستمرة . ولكن الذي نحب اي ننبه اليه هو ان تلك الفروق يسيرة وهينة بحيث لا ينبغي ان تسمى تطورا في الشعر العربي ، وانما كانت هينة لانها لا تمس احد الاصول التي يقوم عليها الشعر الجاهلي والتي اشرنا اليها من قبل .

والراي الذي يمكن في ضوئه تحديد مدى ما بيننا وبين غيرنا من تقارب او تباعد في هذا الصدد هو ان الشعر العربي بعد ما ثبتت أصوله في العصر الجاهلي كان جديرا كأي كائن حي ان يتطور رويدا ، وان يلائم دائما بين منهجه وبين الظروف التي مر بها . ولكن عواملا خارجية كانت تتدخل من حين الآخر ، لوقف هذا التطور او تعويقه كما حدث في صدر الاسلام وفي العصر الاموي . او لإذكاء روح التجديد والتطور كما تم في عهد بني العباس .

هذه كلمة عامة احببنا ان نمهد بها لحديثنا عن العصر الاموي . وقد بقي امامنا امران .

اما اولهما : فبيان الاسباب التي جعلت شعراء هذا العصر يترسمون خطا الجاهليين .

واما ثانيهما : فبيان مظاهر وامثلة ذلك التشابه في أشعارهم .

وسنبدأ بالاول منها .

لماذا اتجه شعراء ذلك العصر الى الشعر الجاهلي

«من دخل الكعبة فهو آمن ، ومن دخل بيت ابي سفيان فهو آمن» .

بمثل هذا التكريم حاول الرسول (ص) ان يتألف قلوب بني امية النافرة ، وانما نفرت لانها كانت تعتقد ان ظهور امر محمد سينال من ذلك المجد الذي احرزوه في اواخر العهد الجاهلي .

ودخل بنو امية الاسلام حين دخل الرسول مكة فاتحا ، اي أسلموا حين لم يكن من الاسلام بد ، وخضعوا لما خضع له بقية المسلمين من سيطرة عمر وابي بكر راغمين ، حتى اذا ولي عثمان الامر وهو منهم ، وان

كان خيرهم ، وثبوا الى السلطة فشاركوه فيها ، وبذلك استردوا بعض ما كان لهم من سلطان في الجاهلية . وحين قتل عثمان كشفوا القناع عن حقيقة نواياهم ، وما قصة المطالبة بدمه الا سلما ارتقاه معاوية الى مآربه واطماعه ، وما حرب الجمل وصفين وتقسيم صفوف المسلمين الا ثمرة من ثمار تلك الاطماع . أطماع لم يبق فيها معاوية على روح الاسلام الا بقدر ما أبقي به عليها خلفاؤه من بعده حين اباحوا المدينة ، وحرقوا الكعبة .

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر

وكأن محمدا لم يقف على منبرها منذ قليل داعيا الى الأخوة والتسامح.

وان دل كل هذا على شيء فعلى ان روح الاسلام لم تكن قد تغلغلت في قلوب كثير ممن استظلوا بظله ، او ساروا تحت لوائه . وبنو أمية دون شك من هؤلاء الكثيرين . وكان معاوية بن ابي سفيان يمثل في كثير من تصرفاته شيوخ القبائل اكثر مما يمثل الخليفة الاسلامي الدارس لاحكام الدين ، الواقف عند حدوده فهو يجمع الانصار حوله على حساب بيت مال المسلمين ، ويتصرف فيه كما يتصرف في ماله الخاص وهو يسارع الى التخلص من اعدائه السياسيين بالقتل ، وان أعوزه الدليل على استحقاقهم له (٨) وهو يورث ابنه يزيد الملك بعد مسرحية سياسية تذكرنا بمسرحية التحكيم وبطلها عمرو بن العاص . لم يتعمق الاسلام اذن قلوب بني أمية ، وما زال بها بقية من جاهلية ، والذي يهمنا هو صدى تلك الروح الجاهلية في اذواقهم الادبية ، فقد جعلتها دائما تحن الى الشعر الجاهلي ، وتعود اليه من وقت لآخر لكي تجد فيه مثلها العليا في الشجاعة والكرم وما اليها، وسيرتهم تؤيد ذلك وتؤكده . قال عبد الملك يوما لجلسائه أي المناديل افضل؟ فقال قائل : مناديل مصر كأنها غرقى البيض . وقال اخر : مناديل اليمن كأنها نور الربيع ، فقال : مناديل عبدة بن الطبيب حيث يقول (٩) :

لما نزلنا نصبنا ظل أخبية وفار للقوم باللحم المراجيل
ورد وأشقر ما يأنيه طابخه ما غير الغلي منه فهو مأكول
ثمة قمنا الى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل

---

٨ ـ من ذلك قتل حجر بن عدي وصحبه تاريخ الفتح الاسلامي للاستاذ فخر الدين ص ٥٩١ .

٩ ـ تهذيب الكامل ج١ ـ ص ٣٠٤ .

لم يكن عبد الملك اذن مترفا يفكر في مناديل مصر او غيرها وانما كان فارسا محاربا يعيش بين مظاهر الحرب والفروسية بشخصه حينا ، وبخياله وتفكيره احيانا ، وهو بعد ذلك بدوي يحب البساطة فيحن الى ظلال الخيام ويهوي الصيد والتهام اللحم على عادة البدو نيئا او كالنيء (١٠) .

ويمدحه عبيد الله بن قيس الرقيات فيقول :

يأتلـق التاج فـوق مفرقـه   علـى جبـين كأنـه الذهب

فيعترض عبد الملك قائلا :

تمدحني بالتاج كأني من ملوك العجم ، وتقول في مصعب :

انما مصعب شهاب مـن اللـه   تجلت عـن وجهـه الظلمـاء !

لم يكن عبد الملك اذن يريد ان يكون صورة من كسرى او قيصر رغم عظم ملكهم وقدم حضارتهم فأين كان يجد مثله الاعلى ؟ ان موقفه مع كثير عزة يجيب عن ذلك السؤال ، فقد اخذ يوما يمدحه حتى اذا وصل الى قوله :

على ابن ابي العاصي دلاص متينـة   أجاد المسدي نسجها فاذا لهـا

قال عبد الملك : كان الاعشى خيرا منك حين قال في قيس بن معدي كـرب :

واذا تكـون كتيبـة ملمومـة   خرساء يخشى الدارعون نزالهـا
كنت المقـدم غـير لابس جنـة   بالسيف تضرب معلمـا أبطالهـا

فقال كثير : وصف الاعشى صاحبه يا امير المؤمنين بالخرق ، ووصفتك بالحزم (١١) ولم يعلم كثير ان ممدوحه لم يكن يبالي أكان أخرق ام حازما ، ما دام الشعراء يخلعون عليه نفس تلك الصفات البدوية التي خلعوها من قبل على أبطال الجاهلية فأعجب بها أيما اعجاب وتاقت نفسه الى ان يمدح بمثلها ، ومن اجل ذلك جاهد وخاطر ، وقاتل وقوتل .

وما قيل في عبد الملك يمكن ان يقال في الحجاج بن يوسف وغيره من ولاة الاقاليم ، ورؤساء الدولة . بل لعل الحجاج وأشباهه كانوا أشد جهالة من الجاهليين انفسهم وما أظن ان كليبا وتأبط شرا او سواهما من طغـاة

---

١٠ ـ طعام نيء كنيل لم ينضج .

١١ ـ نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ٢٢ .

الجاهلية وذؤباتها كانوا يستطيعون ان يقولوا خيرا او شرا مما قاله الحجاج حين ولي العراق في خطبته المشهورة (١٢) .
وقد مدحته يوما ليلى الاخيلية فقالت :

اذا هبط الحجاج ارضا مريضة تتبع اقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها غلام اذا هز القناة سقاها

فقال لها : هلا قلت همام . أتبصر الروح الجاهلية من ثنايا تلك المراجعة انه لا يريد ان تلين لغة الشعر او تتكسر ، ولذا يبادر بتقويم الشعراء كلما بدرت منهم بادرة في ذلك الاتجاه . ولسنا بذلك نحاول ان نحمل رجال الدولة الاموية أوزار ذلك العصر ، ولا ان نلقي عليهم وحدهم ما كان فيه من ثبوت الشعر العربي على الاسس التي أرسى عليها الجاهليون بنيانه . وكل ما نود ان نقوله هنا : ان لهم نصيبهم الموفور وحقهم المعلوم من هذه التبعة وتلك الاوزار ، فالملوك وانصاف الملوك كالسوق يحمل اليها الناس ما يروج فيها من بضاعة ، وأي غرابة في ذلك ؟ الم يكن الشعر اذ ذاك سلعة تباع وتشترى ، فلماذا لا يتحرى فيها الشعراء رضا المشترين ؛ وسترى حينما نعرض للشق (١٣) الثاني من هذا البحث مدى التشابه بين شعر هذا العصر والعصور السابقة .

على اننا نحسن الظن بشعراء هذه الفترة حينما ندعي انهم كانوا بحاجة الى من يشجعهم على ان يتخذوا مثلهم العليا من حياة الجاهليين ، او ينسجوا على منوالهم في أشعارهم فلسنا ندري الى اي حد ، أخلصت القبائل البدوية ــ وهم معظم العرب ــ للاسلام حينما علقت شارته على صدورها ولكن الذي نعلمه يقينا ان الرسول ألف قلوبهم بالمنال حتى أسخط فريقا من الصحابة . وان الله تعالى يقول فيهم «الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء والله سميع عليم» ولا تكاد الآية الكريمة تستثني من اهل الجزيرة العربية الا سكان المدن الثلاث مكة والمدينة والطائف (١٤) وقد صدقتها الحوادث حيث

---

١٢ ــ نعني تلك التي بدأها بقوله :

انا ابن جلا وطلاع الثنايا متى اضع العمامة تعرفوني

١٣ ــ مدى مظاهر التشابه بين الشعر الاموي والجاهلي .

١٤ ــ الاعراب معناها البدو او سكان البادية .

ارتدت جميع القبائل العربية تقريبا عدا تلك المدن . على ان بعض القبائل رأت نفسها في غير حاجة الى المسالمة كقبيلة تغلب التي اعتزت بقوتها فرفضت الخضوع للاسلام ، وبقيت على جاهليتها الاولى قلبا وقالبا ، ولنسأل انفسنا عن كبار الشعراء في ذلك العصر ، أهم الاخطل وجرير والفرزدق ؟ ان الاول منهم لم يزر الاسلام قلبه ، الا بقدر ما زار الاعشى او طرفة او غيرهما من شعراء الجاهلية . اما الاخير فقد أوشك الاسلام ان يمس قلبه يوما من الايام ، فحبس نفسه على القرآن يحفظه ، ولكنه ما كاد يعلم ان جريرا علا صوته في هجاء قومه حتى فر من سجنه ، ولم يعد اليه حتى مات .

وبعد فقد كان اخذ الامويين عن الجاهليين امرا طبيعيا ، فهم يرون نموذجا يحتذونه ، وقد عجز شعراء الاسلام عن ان يبتدعوا لانفسهم نوعا جديدا من الشعر يستمدون من الدين روحه ، ومن كتابه لغته وأسلوبه ، بل عجزوا عن ان يتركوا في الشعر اثرا يذكر اذا ذكرت الآثار . فلم يبق أمام الشعراء الامويين اذن سوى الشعر الجاهلي يمدون أبصارهم اليه ، ويسيرون على ضوئه وهداه . اما الفتوح الاجنبية والاتصالات الخارجية ، فما كان لنا ان نتوقع منها اية مساعدة في ذلك الاتجاه ، حيث كانت آثارها لا تزال محصورة في الناحية الحربية والادارية ، فان تجاوزت ذلك قليلا فالى اقامة شعائر الدين وتدارس كتابه ، وحديث رسوله . اما فلسفة الاغريق وأدب الفرس والهنود فلم يكن قد وجد طريقه الى اللغة العربية اذ ذاك . وهكذا بقي الشعر الجاهلي وحده في الميدان بلغته ومعانيه ، او بعبارة اخرى بعناصره التي اشرنا اليها .

الفصل الثاني

مظاهر تشابه الشعر في العصرين الأموي والجاهلي

مهما كانت درجة نجاحنا في عرض هذه النظرية فستظل موضع شك حتى يقوم الدليل العملي القاطع على صدقها . وذلك بأن نبرهن على احتفاظ الشعر العربي في هذا العصر بالعناصر التي تحدثنا عنها . وسنحاول ذلك بوسائل شتى بادئين بذكر نموذج من شعر جرير ، ونعني قوله في عبد الملك بن مروان :

أتصحو أم فؤادك غير صاح ... عشية هم صحبك بالرواح (١)
يقول العاذلات علاك شيب ... أهذا الشيب يمنعني مراحي
يكلفني فؤادي من هواه ... ظعائن يجتزعن على رماح
ظعائن لم يدنّ مع النصارى ... ولا يدرين ما سمك القراح
وبعض الماء ماء رباب مزن ... وبعض الماء من سبخ ملاح
سيكفيك العواذل أرحبي ... هجان اللون كالفرد اللّياح (٢)
يعز علي الطريق بمنكبيه ... كما ابترك الخليع على القداح (٣)

---

١ ـ ديوانه ص ٩٦ .

٢ ـ الارحبي نسبة الى أرحب من همدان ـ هجان اللون ابيض اللون. الفرد اللياح: الثور الابيض .

٣ ـ يعز : يسرع ويشتد ـ الخليع : المقامر .

تعــزت أم حــزرة ثــم قالت ... رأيت الواردـيــن ذوي امتنــاح
ثقــي بالله ليس لــه شريــك ... ومــن عند الخليفــة بالنجــاح
سأشكــر ان رددت علــيَّ ريشي ... وانبت القــوادم في جناحــي
الستــم خير مــن ركب المطايـا ... وانـــدى العالمين بطــون راح
وقوم قــد سموت لهــم فدانوا ... بدهــم فــي ململمــة رَداح (٤)
أبحت حمــى تهامــة بعد نجـد ... ومـــا شيء حميت بمستبــاح
لكــم شــم الجبال مــن الرواسي ... ومعظــم سيل معتلج البطــاح (٥)
دعـــوت الملحديــن أبا خبيب ... جماحــا قد شفيت مــن الجمـاح
فقـــد وجـدوا الخليفـة هبرزيا ... ألف العيص ليس من النواحــي (٦)
فما شجرات عيصـك فـي قريش ... بعشَّات الفروع ولا ضواحــي (٧)

وأول ما يمكن ان نلاحظه عليها محافظتها على بناء القصيدة الجاهلية ، حيث اشار الى انتقال الأحبة عن ديارهم ، واثر ذلك في نفسه وعقله ، ثم مال مع الصبا بالحديث عن حبه وهواه ، وتحدث عن رحلته الى الخليفة معرضا بتأميله وتأميل من خلفه فيه . وبعد هذه المقدمة التقليدية الدقيقة يأخذ في غرض القصيدة الاصلي وهو المدح .

اما الطبع فيها فأقوى من ان يحتاج الى ايضاح او تبيان ، فالمتأمل في انسياب الابيات وعذوبتها ، وأخذ بعضها بحجز بعض ، مع خلوها مــن التعقيد ومن المحسنات ومن التكلف ، لا يشك في انها وليدة طبع خالص. وأما الموسيقية فتبدو في خفة ألفاظها وتلاؤم بعضها مع بعض ، كما تبدو في جمال البحر وعذوبة القافية . وكذلك يشيع فيها التصوير الذي يذكرنا بتصوير الجاهليين من حيث صلته بالبادية ونقله عنها ، ووقوفه عند المظهر الخارجي المحسوس ، مع قوة التشابه بين الاصل والصورة . ترى ذلك في تشبيهه لبعيره بالثور الوحشي ، وتشبيهه إكبابه على السير والجد فيــه بأكباب اللاعب على قداحه . أليس جرير في الصورة الاولى ـ وان لــم

---

٤ ـ ململمة : مجتمعة ـ رداح : ثقيلة الضخامة عددها .

٥ ـ معتلج البطاح : يفيض عليها في قوة وغزارة .

٦ ـ هبرزيا : خالصا من الشوائب ـ ألف العيص من دوحة ضخمة ، واجمة متكاثفة (ليس من النواحي) اي انه من وسط الاجمة وليس من الاطراف .

٧ ـ العشة : الدقيقة الفروع ـ الضواحي : المكشوفة للشمس .

يشعر ـ يصدر عن نفس العقلية التي أصدر عنها طرفة حين قال :

وبـــلاد زَعِـــل ظلمانهـــا كالمخاض الجرب في اليوم الخـــدر

وفي الثانية يصدر عن تلك التي يصدر عنها عنترة حين يقول :

وخلا الذبـاب بها فليس ببـــارح غـردا كفعـــل الشارب المترنـــم
هزجا يحـك ذراعـــه بذراعـــه قدح المكتب على الزناد الأجـــذم

وفي قصيدة جرير صورة ثالثة تلفت الانظار وهي تشبيهه قريشا بأجمة يحتل بنو أمية وسطها وذلك حين يقول :

فقد وجدوا الخليفـــة هبرزيـــا ألف العيص ليس من النواحـــي
فما شجرات عيصك فـــي قريش بعشات الفـروع ولا ضواحـــي

والمتأمل في هذه الصور الثلاث يجدها منتزعة من البادية بما فيها من الثيران الوحشية والابل والعيص وما اليها .

وبعد فهل تلاحظ معي هذه الروح وذلك الجو الجاهلي البدوي الذي يبدو في قوله :

وقوم قـد سموت لهم فدانـــوا بدهـــم فـــي ململمـــة رداح

الا تراه يرجع بذاكرته وخياله الى منظر ذلك البدوي المتقشف الـذي يتسلق الجبال في طلب صيد او شبيه به ، ثم ماذا ترى في ذكره نجـدا وتهامة في قوله :

أبحت حمـــى تهامة بعـــد نجد ومـــا شيء حميت بمستبـــاح

مع انه يريد العراق والحجاز حيث يتحدث عن قتل عبد الله بن الزبير بعد مصعب اخيه ؟ ألست معي في انه يحن الى نجد وتهامة لانها اكثر دورانا على السنة القدامى من العراق والحجاز . وفي تكراره للفظ الحمـــى واستباحته اشارة الى ما كان يعتز به العرب من حماية حماهم والاغارة على من سواهم .

وأخيرا ينبغي ان نلاحظ ان الصفات التي خلعها جرير على عبد الملك هي نفس الصفات القديمة المرتبطة بحياة البادية من كرم وشجاعة وضخامـــة الاسرة وما اليها .

الفصل الثالث

النقائض والغزل بنوعيه امتداد للشعر الجاهلي

نقائض جرير مع الفرزدق والغزل الحسي والعذري امتداد للشعر الجاهلي ولا تمثل تطورا في الشعر العربي .

يرى بعض [1] النقاد ان نقائض جرير مع الفرزدق والاخطل تمثل تطورا خطيرا في الشعر العربي ، حيث يختلط الهجاء بالمدح ممتزجين بالتاريخ ، وحيث كانت تنشد في مسارح او شبه مسارح شعبية بقصد إلهاء الناس وإضحاكهم .

اما فيما يختص بالناحية المسرحية في هذا الحديث او تلك النقائض فكم كان يسرنا ان لو استطعنا قبولها كي ندفع عن الشعر العربي عيبا طالما اخذه الناس عليه ، وحتى نفاخر مع المفاخرين بأن المسرحية الشعرية عند جرير والفرزدق سبقت اختها عند شكسبير بعدة قرون . وانا لنعجب حين يدعي الدكتور شوقي ان تلك النقائض لم يكن يقصد بها سوى إلهاء الناس وإضحاكهم مع ان فيها أقذع سباب عرفه الشعر العربي [2] ونحن لا نشك في ان الدكتور قراه . واعتقد انه كان ينم عن روح غير اسلامية وخصومة غير شريفة . واذا احببت ان تؤمن بما نقول فاقرأ ما كان من ذلك في مأساة

---

١ ـ الاشارة هنا وفيما يلي الى رأي الدكتور شوقي ضيف «التطور والتجديد ...» .

٢ ـ اقرأ رأي المؤلف بالتفصيل في كتابه «جرير ونقائضه مع شعراء عصره» .

جعثن مع بني منقر وستجد اشارة اليها في جميع نقائض جرير تقريبا مع القصد حينا والاسراف مع الإقذاع احيانا . وأما فيما يختص باختلاط المدح بالهجاء وامتزاج هذا وذاك بالتاريخ فقد سبقت منه أمثلة كثيرة في العصر الجاهلي . فقد التقت الوفود في مجلس النعمان بن المنذر وعمرو بن هند من قبله ، بل وفي مجلس الرسول (ص) وجرى بينها من المفاخرات مثلما كان يجري بين جرير وصاحبه ، ولم تقم الدنيا لذلك ولم تقعد . ولم يقل احد ان الحرث بن حلزة وعمرو بن كلثوم كانا بطلين من أبطال التمثيل ، ولعل الاخير كان أجدر من اي شاعر اخر بأن يكون بطل مسرحية حيث تنـــاول سيف بن هند من خلفه ــ على ما يقال ــ وقتله به . ولعلك لا تزال في شك ولو يسير مما نقول فاليك قصيدتين احداهما جاهلية والاخرى أموية . الاولى لعمرو بن كلثوم وفيها يقول مفاخرا بالسابقين من رجال قبيلته :

ورثنـــا مجد علقمة بـن سيـــف ... أبـاح لنا حصـــون المجد دينـــا
ورثت مهلهـــلا والخـــير منـــه ... زهـــيرا نعـم ذخر الذاخرينـــا
وعتّابـــا وكلثومـــا جميعـــا ... بهـــم نلنـــا تـراث الاكرمينـا
وذا البُرَة الـــذي حدثت عنـــه ... بـــه نحمي ونحمـي المجحرينـــا
ومنـــا قبلـــه الساعـــي كليب ... فـــأي المجـــد الا قد ولينـــا

والثانية لجرير وفيها يقول مخاطبا محمد بن عمير بن عطارد وكان قد رشا الاخطل كي ينصر الفرزدق عليه :

لمـــا انهزمت كفي الثغور مشيّــع ... منـــا غداة جبنتَ غـــير جبان (٣)
شبَث فخـــرت بـــه عليك ومعقل ... وبما لـــك وبفـارس العلهـــان
هلا طعنت الخيـــل يـــوم لقيتها ... طعن الفوارس من بني عُقفـــان
كذب الاخيطـــل اني قومي فيهـم ... تـاج الملـــوك ورايـــة النعمان
منهـم عتيبة والمحـــل وقَعنب ... والحنتفـــان ومنهـــم الرِّدفان

ولا شك انك ستدرك الشبه القوي بينهما من حيث التمدح بمن ظهر في قبيلة كل منهم من أبطال والاسراف في تعداد أسمائهم . اما اذا اردت ان ترى صورة من تعداد موقف الشجاعة هنا وهناك فاقرأ للحرث بن حلزة :

---

٣ ــ ديوانه ص ٥٧٠ راجع شرحها في الجزء الثاني من المنتخب ص ١١٠ .

هـل علمتم ايـام ينتهب النـا   س غوارا لكـل حي عـواء (٤)
اذا رفعنا الجمال مـن سعف البحـ   ـرين سيراً حتى نهاهـا الحسـاء
ثـم ملنـا على تميـم فأحرمـ   ـنـا وفينا بنات قـوم إمـاء
لا يقيـم العزيـز بالبلـد السهـ   ـل ولا ينفع الذليـل النجـاء

ثم اقرأ لجرير :

أبنـا عدلت بنـي خَضاف مجاشعا   وعدلت خالك بالاشد سنـان (٥)
شهدت عشية رَحرحان مجاشـع   بمجارف جحَف الخزيـر بطـان
وطئت سنابـك خيل قيس منكـم   قتلـى مصرعة علـى الأعطـان
للـه در يزيـد يـوم دعاكـم   والخيـل مجلبة علـى حلَبان
لاقـوا فوارس يطعنـون ظهورهم   نشـط البزاة عواتـق الخربـان
ان رمت عبد بنـي أسيدة عزفـا   فانقل مناكب يذبـل وذقـان

والبيت الاخير يذكرنا بقول ابن حلزة من نفس القصيدة السابقة :

وكـان المنـون تـردي بنا أر   عن جونـا ينجاب عنه العمـاء
مكفهـرا علـى الحـوادث لا تر   تـوه للدهـر مؤيد صمـاء (٦)

فاذا تقدمنا الى الغزل بقسميه وجدناه صورة من غزل الجاهلية . فشعر عمر بن ابي ربيعة يكاد يختلط بشعر امرىء القيس . ولا عجب في ذلك فقد تشابهت حياتهما شبابا وفراغا وجدة فأخذ كل منهم يهذي بالمرأة وبنفسه . وان من يتتبع شعر هذا وذاك لا يكاد يخطىء اتحـاد العناصر الاساسية لكلا الشعرين . ضع ان شئت قول امرىء القيس :

سموت اليها بعد مـا نام اهلها   سمو حباب الماء حالا على حـال
فقالت سباك الله انـك فاضحي   الست تر السمّار والناس احوالـي
فقلت يمين الله أيـرح قاعـدا   ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالـي
حلفت لهـا بالله حلفـة فاجـر   لناموا فما ان من حديث ولا صال

---

٤ ـ المعلقات العشر .

٥ ـ ديوانه ص ٥٧٠ وما بعدها والجزء الثاني من المنتخب ص ١١٠ وبعدها .

٦ ـ واذا قيل لنا : ان نقائص جرير وصحبه كانت تتحد غالبا في الروي والبحر ، قلنا وكذلك كانت أشعار قريش في الرد على حسان واخوانه ، ومع ذلك لم يقل احد انها تمثل تطورا في الشعر العربي ، لاتحاد مجرها ورويها .

فلما تنازعنا الحديث واسمحت هصرت بغصن ذي شماريخ ميال
وصرنا الى الحسنى ورق كلامنا ورضت فذلت صعبة أي اذلال
فأصبحت معشوقا واصبح بعلها عليه القتام سيىء الظن والبال
يغط غطيط البكر شد خناقه ليقتلني والمرء ليس بقتال
أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال
ليقتلني اني شغفت فؤادها كما شغف المهنوءة الرجل الطالي

ضع هذا بجانب قول عمر :

فلما فقدت الصوت منهم واطفئت مصابيح شبت بالعشاء وأنور
وغاب قمير كنت أرجو غيابه وروّح رعيان ونوّم سمر
ونفضت عني العين أقبلت مشية ا حباب وركني خيفة القوم أزور
فحييت اذ فاجأتها فتولّهت وكادت بمكنون التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان فضحتني وانت امرؤ ميسور امرك أعسر

ويمضي في وصف ما كان بينهما حتى يسمعا القوم وقد استيقظوا فتضطرب وتسأله عما يمكن ان يفعلا فيرد بهذه الابيات :

فقلت اباديهم فإما أفوتهم وإما ينال السيف ثأرا فيثأر
فقالت: أتحقيقا لما قال كاشح علينا وتصديقا لما كان يؤثر

وانتهى الامر بأن جاءت اختاها فأحطن به جميعا وهيأن له سبيل الخلاص .

والمتتبع القصيدتين يرى الاخير يسير في اعقاب الاول شبرا بشبر فكلاهما يدب الى حبيبته ليلا كما تدب الذئاب وان لم يفطنا الى ذلك ، وكلاهما يتعرض للقتل ويتخطى الحراس ويحظى بما يريد . أليس في هذا ما يكفي لبيان قوة الشبه بين أسلوبيهما في الغزل ومسلكها في الحياة ؟ قد يقال لنا كلا فان عمر غيّر منهج الغزل حين جعل نفسه محور عواطف المرأة وكان القدامى يفعلون عكس ذلك . ويكفي للرد على هذه الدعوى (٧) ان تلفت النظر الى البيتين السابع والعاشر من أبيات امرىء القيس لنعلم ان عمر حتى في هذه كان تلميذا وفيا لتعاليم استاذه امرىء القيس .

ونزيد هنا كلمة قد لا ترضي بعض الناس ، وتلك ان عمر كان يحاكي امرأ القيس عامدا ويعارضه جاهدا . ويحتال على نقل بعض الفاظه وعباراته

---

٧ ـ راجع التطور والتجديد للدكتور شوقي ضيف .

حتى يلفت النظر الى تلك المحاكاة والمعارضة . وإلا فهل تظن ان قوله : «فأقبلت مشية الحباب» وقوله : «وقالت وعضت بالبنان فضحتني واشباهها» على كثرتها كانت مجرد مصادفة لم يفطن لها ولم يقصد اليها عمر ؟ اكبر الظن انه يغضب ويتألم لو علم ان القراء لا يدركون الشبه القوي الواضح بينه وبين استاذه رغم حرصه الشديد على اعلانه وإيضاحه ، فقد كانت احدى امانيه ان يرى الناس فيه صورة من امير الشعراء ، ولا يضيره بعد ذلك ان يكون مقلدا او مجددا .

والغزل المسمى بالعذري او العفيف مفترى عليه ايضا او على الاسلام فيه ، ويشق علينا ان نرانا مضطرين الى مخالفة راي بعض اساتذتنا حوله (٨) حيث ذهب الى ان هذا النوع من الغزل كان نتيجة من نتائج «التقوى والزهد والتصوف والمثل الاعلى في الحياة الخلقية ، وغير ذلك من الامور التي جاء بها الاسلام» .

ولست ارى مبررا لمثل هذه الدعوى . فشعراء هذا الفن لم يكونوا زهادا ولا انصاف زهاد ، لا في حياتهم الخاصة ولا في غزلهم . وفوق هذا فالمرء لا يكون زاهدا في امر من الامور حتى يتمكن منه ثم ينصرف عنه . ولم يكن الحال كذلك عند هؤلاء الشعراء فقد تركوا من يحبون مرغمين ، فهذا الغزل نتيجة للحرمان لا للزهد .

ونرى ان كلا نوعي الغزل العذري والحسي متفقان من حيث النشأة ، ففي كل منهما تتجه النفس البشرية الى الاتصال بمن تحب من الجنس الاخر اتصالا تتحد دوافعه واهدافه . ثم تختلف وسائله ونتائجه تبعا لاختلاف الشخصيات ، فيسلك اصحاب المذهب الحسي مسالك عملية يصحبها دائما النجاح في الوصول الى من يحبون ، بينما يتعثر اصحاب المذهب الاخر ، لانهم في الغالب ممن تغلب عليهم العواطف وتنقصهم الجراة والمرونة والخبرة العملية وغير ذلك من الامور التي تمكن المرء من بلوغ اهدافه ، وتحقيق مآربه في الحياة ، فيقضون الحياة على ابواب معبد الحب حيارى، لا يدرون ماذا يفعلون سوى ترتيل اناشيد الشوق والهيام ، وإراقة الدموع ممزوجة بالآلام ، مشيعة بالأنات والزفرات .

وهكذا نرى ان الفرق بين النوعين من حيث الوسائل والنتائج لا يعود الى زهد او ورع بقدر ما يعود الى اختلاف الشخصيات من عملية الى

---

٨ ـ الدكتور طه حسين (حديث الاربعاء) ـ جا ص ١٨٥ .

عاطفية وجدانية . ومما يؤكد براءة الاسلام من الغزل المسمى بالعفيف وجود أمثلة كثيرة منه في العصر الجاهلي ، بحيث لا يكاد المرء يرى فرقا بين هذا وذاك ، ويباعد بين اصحاب هذا المذهب والزهد ، بل أدنى درجات التقوى ما عرف عن بعضهم من التعلق بنساء ذوات ازواج شرعيين وناهيك بمثل هذا العمل بعدا عن الدين والمروءة (٩) .

وينبغي ألا ننسى اننا ننسى او نتناسى ونحن في نشوة مما يثيره الغزل العذري في أنفسنا من عواطف وانفعالات ما يختفي تحت هذا الغلاف الخارجي من ضعف واضطراب يؤكدان ان معظم أبطال هذا الفن لم يكونوا من ذوي الشخصيات القوية ، وإلا لما استرسلوا مع عواطفهم الى هذا الحد المزري . والشخبة المتزنة فيما نعتقد هي التي تزن الامور بميزان العقل ، فاذا كانت فرص النجاح والظفر بمن تحب مواتية فيها وإلا بحثت عن مخرج سريع ، أما ترك نفسه نهبا للعواطف الجامحة وفريسة للاضطرابات النفسية المستمرة فمن علامات ضعف الشخصية . حقيقة ان الفن والادب قد أثريا على حساب هؤلاء البائسين ثراء عريضا ولكن هذا لا يعوقنا عن وضع الامور في نصابها .

وان كل ما يمكن ان نتتبعه من آثار الاسلام في ذلك الفن لا يخرج عن امرين .

أولهما : ان الاسلام بما جاء به من قوانين صارمة في تحديد فرص الاتصال بين الرجل والمرأة وتنظيم العلاقة بينهما تنظيما دقيقا قد أكثر من فرص الحرمان الذي يعد السبب الاول في نشأة هذا النوع من الحب والغزل .

ثانيهما : ظهور بعض صور وأفكار جزئية منقولة عن الدين او القرآن ربما دل ظهورها على تأثر الغزل بوصفه فنا شعريا بهما ، ولكنها لا تدل على تأثر عاطفة الحب نفسها بالدين ولا بالقرآن . ومن أمثلة ذلك تلك الصورة او اللوحة البديعة التي عرضها كثير في قصيدته .

ألا حييا ليلى أجد رحيلي　　　وآذن أصحابي غدا بقفول

---

٩ ـ من ذلك قول كثير :

يقولون ودع عنك ليلى ولاتهم　　　بقاطعه الافران ذات حليل

الامالي ج ٢ ص ٦٤ .

وفيها يصف قوافل الابل متوجهة بالحجيج الى مكة وقد سبق ذكرها (١٠) . وقد حاول بعض الزملاء ان يتتبع أثر الاسلام في الغزل العذري فانتهى الى راي لا يختلف كثيرا عن رأي الدكتور طه حسين ، وان فصل احدهما وأجمل الاخر .

وانا لنرانا مضطرين الى ان نستعرض ما ساقه الزميل من أدلة ذاكرين وجهة نظرنا فيها . وأول ما يلفت نظرنا من ذلك قوله : ان القرآن ضرب مثلا لعفة المؤمن في قصة يوسف كما دعا اليها الرسول حين جعل اهل العفة من المحبين بين اولئك الذين يشملهم الرحمن بظله يوم لا ظل الا ظله (١١) .

ويضرب لنا مثلا على مدى تأثير أمثال هذه الآيات والاحاديث في اهل ذلك العصر بما كان من عبد الرحمن حين قالت له سلامة : انا احبك . فقال: وأنا والله أحبك . قالت : فما يمنعك ؟ فوالله ان الموضع لخال ؟ فأجاب : سمعت الله تعالى يقول : «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين» .

والذي نعتقده ان أثر الاسلام قد ظهر في اهل النسك والورع من أمثال عبد الرحمن القس المذكور وعروة بين أذينة وأشباههم . ولكن هؤلاء من سوء الحظ لم يكونوا من كبار الشعراء ، ولم يخلدوا عواطفهم ، ولا تأثير الدين عليهم في أشعار ، ولو فعلوا ذلك ، ولو قال قائلهم مثلما قال ابن فرج الجيّاني (١٢) :

وطائعة الوصال عففت عنها ... وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت في الليل سافرة فبانت ... دياجي الليل سافرة القناع
وما من لحظة الا وفيها ... الى فتن القلوب لها دواعي
فملكت النهي جمحات شوقي ... لأجري في العفاف على طباعي
وبت بها مبيت السقب يظما ... فيمنعه الكِعام من الرضاع (١٣)

لقلنا ان الغزل في تلك الفترة قد تأثر او على الاقل يحتمل ان يكون قد تأثر بالاسلام فصار يدعو الى اظماء النفس رغم سهولة المورد محافظة على

---

١٠ ــ يمكن ان يضاف الى ذلك فكرة الشهادة لمن قتل في سبيل الله ، والقضاء والقدر .

١١ ــ ليلى والمجنون ص ١٢ .

١٢ ــ نفح الطيب ج٢ ص ١٤٣ .

١٣ ــ السقب : ولد الناقة ــ الكعام ما يشد به فمه .

الدين ، اما وانهم لم يقولوا شيئا من ذلك ، أما وزعيم تلك المدرسة يقول :

ألم تعلمي يا عذبة الريق انني أظل اذا لم ألق وجهك صاديا (١٤)

ويقول :

ألا ليت ايام الصفاء جديد ودهرا تولى يابثين يعود (١٥)

فلا نستطيع ان ننسب اليه زهدا ولا عفة . انه زهد العاجز وعفة اليائس . ترى لو كان جميل محظوظا مثل ابن ابي ربيعة تسعى النساء اليه أكان يفر منهن الى قمة احد الجبال ، ثم يرتل اناشيد العفة والزهادة ؟ ألا حدثني بربك ماذا كان يستطيع ان يفعل جميل اكثر مما فعل او انه كان أشد كفرا بالله من فرعون وهامان . أكان يستطيع الحديث عن مقابلات وهمية ومغامرات خيالية ، وهو عاجز محروم لم يحظ بحبيبته يوما من الايام كما حظي عمر بن ابي ربيعة ؟ ان كل ما بينه وبين ابي ابي ربيعة من فرق هو ان الحب عنده وقف عند مرحلة أولية رغم أنفه لسوء حظه وعجزه عن متابعة خطواته بتوفيق ، ولذا ظل يندب حظه ، ويتمنى أتفه انواع الوصال من حبيبته ، اما الزهد وأما انتظار ثواب الله على هذا الجهاد الذي يتفضل به عليهم بعض اساتذتنا وزملائنا الكرام(١٦) فلم يخطر لهم ببال، فقد كانوا أعرف بأقدارهم ، وأعظم تواضعا فيما بينهم وبين انفسهم من ان يدعوا لها شيئا من ذلك . ولو عرف جميل ان بعض الباحثين يجعلون قوله :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأي جهاد بعدهن أريد (١٧)
لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل بينهن شهيد

دليلا على انه كان يعتقد حقا انه سيموت شهيدا اذا سقط صريعا تحت أقدام بثينة ، لتوارى حياء وخجلا من تلك السذاجة التي يرميه الناس بها لمجرد انه شاعر يقول ما لا يعتقد كغيره من الشعراء . بل وربما تذكر شيئا مخجلا بجانب ذلك وهو ان يذهب شباب المسلمين لجهاد عدوهم من الفرس والروم ، ويظل هو بجانب حبيبته يجاهدها حينا ويجاهد نفسه

---

١٤ ـ الادب العربي في صدر الاسلام ص ٢٩٠ .
١٥ ـ الامالي ج٢ ص ٢٩٩ .
١٩ ـ ليلى والمجنون ص ١٢ .
١٧ ـ نفسه ص ١٣ .

احيانا ثم يدّعي بعد ذلك انه مسلم زاهد ، وانه متأثر في حبه وزهادته تلك بالاسلام . ويروي اصحاب هذا المذهب الابيات التالية لكثير ويجعلها مظهرا من مظاهر التقديس الذي ظهر في الغزل العذري ابان العصر الاموي :

رهبان مكـــة والذيــن عهدتهـــم يبكون من خوف العذاب قعودا (١٨)
لو يسمعون كما سمعت حديثهـــا خروا لعزة ركعـــــا وسجـــودا
والميت ينـشر ان تمس عظامـــــه مسـا . ويخلد ان يراك خلـــودا

مع ان بعض هذه الابيات يكاد يكون نقلا حرفيا عن قول النابغة فـــي المتجـردة :

لو انهـــا عرضت لأشمــط راهب يخشى الا لــه صرورة متعبـــــد
لرنا لبهجتهـــا وحســـن حديثها ولخالـه رشدا وان لـم يرشـــد

أما الثالث فمأخوذ من قول المرقش الاكبر في حبيبته :

أينمــــا كنت او حللـــت بأرض او بلاد احييت تلك البـــلادا (١٩)

مما يدل على ان العذريين كغيرهم من اصحاب الغزل المكشوف كانـــوا ينسجون على منوال الجاهليين . ويحتذون مثلهم . واذا كنا لم نتتبع تلك الشواهد والادلة واحدا واحدا فما ذلك الا لان الامر في نظرنا أيسر من ان نأخذه بجد وحد .

على اننا نجد من بين شعر الجاهليين مقطوعات لا تقل في نغمتها العفة الصابرة المحتسبة عن غزل العذريين وان شئت فاستمع لقـــول المرقش الاصغـر :

وانـــي لأستحيي فطيمة جائعـــا خميصا واستحيي فطيمة طاعما (٢٠)
واني لأستحييك والخرق بيننـــا مخافـــة ان تلقي أخا لي صارمـــا
واني وان كلت قلوصـــي لراجـــم بهـــا وبنفسي يا فطيم المراجمـــا
افاطم ان الحب يعفو عن القلـــى ويجشم ذا العرض الكريم المجاشما
ألا يا اسلمي بالكواكب الطلق فاطما وان لم يكن صرف النوى متلائمـــا

---

١٨ - ليلى والمجنون ص ١٥ .
١٩ - المفضليات ج٢ - ص ٢٢١ .
٢٠ - مفضليات ج٢ - ص ٤٦ .

أفاطم لو ان النساء ببلدة وأنت بأخرى لا تبعتك هائما

اننا نظلم الجاهليين كثيرا ، ونعتقد انهم كانوا جميعا طلاب متعة وأصحاب لهو ، مع ان شاعرا من شعرائهم ، بل صعلوكا من صعاليكهم ، قد ترك لنا صورة المرأة المثالية عنده فاذا بها تفوق في الدلالة على عفته وعفتها ما رسمه لنا جميل زعيم مدرسة الغزل العفيف في العصر الاموي حين قال:

ألم تعلمي يا أم ذي الودع انني أضاحك ذكراكم وأنت صلود

اما الشاعر الجاهلي فهو الشنفري ، واما ابياته فتلك التي يقول فيها :

لقد أعجبتني لا سقوطا قناعها اذا ما مشت ولا بذات تلفت (٢١)
تحل بمنجاة من اللوم بيتها اذا ما بيوت بالمذمة حلت
كأن لها في الارض نسيا تقصه على أمها وان تكلمك تبلت
اميمة لا يخزي نثاها حليلها اذا ذكر النسوان عفت وجلت
اذا هو امسى آب قرة عينه مآب السعيد لم يسل اين ظلت
فدقت وجلت واسبكرت وأكملت فلو جن انسان من الحسن جنت

وأخيرا نحب ان نعرف موقف الزهاد والمتصوفين من الابيات التالية لجميل :

سبتني بعيني جؤذر وسط ربرب وصدر كفاثور اللجين وجيد (٢٢)
تزيف كما زافت الى سلفاتها مباهية طي الوشاح ميود
اذا جئتها يوما من الدهر زائرا تعرض منقوض اليدين صدود
يصد ويغضي عن هواي ويجتني ذنوبا عليها انه لعنود
فأصرمها خوفا كأني مجانب ويغفل عنا تارة فنعود

ضع البيت الثاني من هذه المقطوعة بجانب أبيات الشنفري ، وانظر الى ما في هذه من فتنة وإغراء وعبث بجانب ما في تلك من جد وعفة . وأخيرا ليت شعري من هذا الذي كان يحرسها من شيخ الزهاد ، لعله زوجها الشرعي ، ولا ينبغي ان نعجب او نأسي لما ناله من أذى ، فان حظه على اية حال كان خيرا من حظ زوج عزة الذي يقول فيه شريكه او منافسه فيها كثير :

---

٢١ ـ نفسه ج١ ـ ص ١٠٧ .
٢٢ ـ الامالي ج٢ ـ ص ٢٩٩ .

يكلفها الخنزير شتمي وما بهـــا   هواني ولكن للمليـك استذلت (٢٢)

وأخيرا ارجو ان يتسع صدر القارىء الكريم لي اذا قلت : انني لا ارى بل لا ارضى ان يكون بين مثل هذا الحب والاسلام صلة ما من قرب او بعد. انه مثل حب عمر بن ابي ربيعة تماما سوى ان احدهما بلغ غايته والآخر تعثر دونها .

اما ذلك العفيف الذي يمكن ان نلمس أثر الاسلام فيه فهو حب الزهاد من أمثال عبد الرحمن القس كما اسلفنا .

واخيرا نحب ان ننبه القارىء الى ان واجبنا وادلتنا على قرب الشعر الاموي من الجاهلي وبعده عن العباسي لم ينتهيا بعد . وكل ما أسلفناه انما هو مجرد ازالة لما قد يعلق بالاذهان من قول القائلين بتطور الشعر العربي في العهد الاموي .

وسنتخذ من هذه القضية موقفا ايجابيا بنائيا حين نتحدث عن تحول الشعر العربي عن أصوله الاولى خلال العصر العباسي ذاكرين بعض النماذج التي تؤيد نظريتنا من الشعر الجاهلي والاموي القديم ، والعباسي الحديث.

---

٢٣ ـ ذكر صاحب الاغاني في سبب هذا البيت ان زوج عزة ثار عليها حين عرف انها استعانت به في بعض امورها فكلفها سبه (الاغاني جـ٨ ـ ص ٣٧) .

الباب الثالث

مقدمة

العصر العباسي

سمع ابن الأعرابي أبا تمام ينشد شيئا من شعره فقال : «ان كان هذا شعرا فكلام العرب باطل» (١) وهذه العبارة على ما فيها من بساطة ومبالغة عذبة تصور رأي ذلك العصر في شعر ابي تمام وكل من سلك مسلكه من الشعراء فشعره فيما نعتقد يمثل حركة انفصال عن القديم او ثورة عليه ، بدأت في أوائل العصر العباسي ثم ما زالت تستشري وتستفحل ، وتقوى وتعنف ، حتى كان لها في أذهان الناس ومخيلاتهم ذلك الصدى العميق الذي تصوره العبارة السابقة .

وبدء حركة الانفصال عن القديم مع قيام دولة بني العباس ليس مجرد مصادفة ، وربطنا بين الحدثين او الحركتين ليس من قبيل التاريخ بالحوادث

---

١ ـ الموازنة ص ٨ .

العامة ، بل كانت هذه ناشئة عن تلك ، ومرتبطة بها أوثق ارتباط ، ولكن الانسان دائما ينسى الاحداث الماضية التي ما تزال تتضاءل وتتلاشى على مر الايام ، حتى يضعف احساسه بخطورتها ، وحتى تبدو وكأنها شيء لا يستحق الذكر ، فمن منا يذكر شيئا عن الحروب الصليبية وأهوالها او بعض أهوالها ، ومن منا يذكر الطوائف المختلفة التي ناهضت الخلافة الاسلامية في جميع عصورها من خوارج ، وزنج وقرامطة ؟ بل ومن منا يذكر او يتخيل ان الامة العربية قد شملها اثناء القرن الثاني للهجرة ـ على ايام المهدي والرشيد والمأمون ـ من التحول السياسي والتطور الاجتماعي ، والتقدم الثقافي ما لم تشهد له مثيلا في عصر من العصور . وبوصفنا مؤرخين للادب سيكون من واجبنا استعراض هذه الظواهر الثلاث مع الاشارة الى صداها في الشعر العربي .

اما التحول السياسي : فأهم مظاهره تغلغل النفوذ الفارسي في شؤون الحكم . فقد قامت الدولة العباسية على اسنة الرماح الزاحفة من الشرق بقيادة ابي مسلم الخراساني . فلم يكن هناك بد من مجاملة هذا الشريك الجديد ، فصار منهم قواد الجيوش وحكام الاقاليم والوزراء والحجاب. وما مقتل ابي مسلم على يد المنصور والبطش بالبرامكة في عهد الرشيد الا محاولة جريئة من ملوك العرب لوقف النفوذ الفارسي المتحفز للطغيان والسيطرة .

وقد كان لهذا النفوذ السياسي صداه في الحياة الادبية ، فقد اضعف العصبية لكل ما هو عربي من اشعار وآداب وتقاليد ، وسنرى بعد قليل ان ذلك قد كال ضربة قوية لبناء القصيدة العربية . كما ارتفعت اصوات الموالي بمفاخرة العرب فنشأ عن ذلك شعر الشعوبية .

وقد صحب هذا النفوذ السياسي نفوذ ثقافي اجتماعي ، استحث خطوات الشعر العربي نحو التطور والتحول . وقبل ذلك كان اتصال العرب بغيرهم من الدول محصورا في دائرة ضيقة لا تتجاوز الناحية الحربية والادارية ، وازالة الصعوبات التي قد تعترض نشر الدين في ابسط مظاهره وتعاليمه . اما في هذا العصر فقد صار التفاعل بين العرب والدول الطارئة على الاسلام قويا ولاسيما الدولة الفارسية التي اعطت العرب واخذت منهم الكثير في النواحي الدينية والادبية (٢) .

---

٢ ـ نعني بالناحية الدينية اخذ الفرس الاسلام عن العرب واعطائهم مذهب ماني ومزدك.

واذا كان تأثير الفرس قد انحصر في الناحية الادبية ، فان تأثير الروم كان اقوى واعمق فقد اخذ العرب عن الروم علومهم المختلفة من منطق و فلسفة وما اليها . وقد طبعت هذه العلوم الدخيلة مناهج البحث في العلوم الشرعية بل واللغوية بطابع جديد ما لبث ان تسرب الى الشعر فظهر واضحا في انتاج هذا العصر . اما من الناحية الاجتماعية فقد تغير وجه الحياة امام العرب تغيرا كبيرا فاتخذوا القصور الشماء ، والرياض الفيحاء ، واستمتعوا بكل ما نستمتع به ، او بعبارة أدق يستمتع به المترفون فينا من الوان الترف والنعيم وغزتهم الدول الشمالية بسيل جارف من الجواري والغلمان ذوي الجمال البارع ، فكان منهم الخدم والمغنيات في القصور ، وسقاة الخمر في الحانات ، وطوائف اخرى كثيرة في اماكن مشابهة وقد لقي منهم المجتمع بلاء كبيرا ، فقد كانوا يفرقون العرب رقة وجمالا ، وحذقا لفنون الاغراء . وكان تأثيرهم يتفاوت باختلاف الظروف ، فسلك اهل الدين والشرف في الاتصال بهن مسلكا شرعيا عن طريق الشراء والمتعة او الزواج ، اما المتحررون او المتحللون من الشعراء ومن لف لفَّهم ، فقد اعلنوها حربا صريحة على المجتمع والتقاليد ، وراحوا يهذون في اشعارهم بالغزل في هؤلاء الغلمان غزلا لا يقل عن تشبيب امرىء القيس بفاطمة او المرقش بسلمى .

ويغفل المؤرخون عادة امرين او تيارين خطيرين التقيا معا وتعاونا سويا على خلق هذا النوع الشاذ من السلوك وانواع اخرى بجانبه لا تقل عنه غرابة وان تزيت بأزياء مغرية ، وتسمت بأسماء لامعة كتزاهد ابي العتاهية ، وتشاؤم ابن الرومي وثورة ابي العلاء . ونعني بهذين التيارين :

اولا : خيبة آمال اهل العراق وهزائمهم المتوالية . فقد ضحوا بما لم يضح به شعب في سبيل نقل الامر من يد قتلة الحسين الى اهله وعشيرته . ولكنهم تبينوا اخيرا ان مجهوداتهم ذهبت مع الريح ، وأن بني العباس استبدوا بالامر دون بني علي ، وهم بعد ذلك لا يقلون عن سلفهم من بني أمية جراة على الله ، واستهانة بحفدة رسوله (٣) صلى الله عليه وسلم .

ثانيا : تعاليم ماني ومزدك التي دخلت بغداد تحت ظلال رايات ابي مسلم

---

٣ ـ قام أهل العراق بثورات مختلفة هدفها نقل السلطان الى بني علي . ولكن بني العباس انضموا الى صفوف الدعوة السرية واستطاعوا بمهارتهم وخداعهم أن يستولوا على السلطة دون ابناء عمومتهم . ولما حاول بنو علي اغتصابها منهم قابلهم بنو العباس بقسوة وعنف أنستهم وأنست شيعتهم كل ما رأوه من نكال ايام الامويين .

ومن معه ، فصادفت بيئة صالحة ، وأمة سيئة الظن بنفسها وبولاة امورها، يائسة من مستقبلها ، شاكة او كالشاكة في دينها .

وكان ان انقسم الناس حيال هذين التيارين او تحت تأثيرهما الى طوائف مختلفة فمنهم من لبس سلاحه ، واستأنف جهاده ضد العباسيين كما كان يفعل مع سلفهم ، ومنهم من آثر العافية ، واستعمل التقية ، فأقام ساخطا متربصا ، وفريق ثالث غلب عليه الشقاء فقويت عنده عوامل الشك، فأقبل على الحياة يغترف من معينها غير مفرق بين حلال وحرام ، مستمتعا بحاضره ، مطرحا وراء ظهره ما عسى ان يأتي به المستقبل من ثواب او عقاب. والى الفريق الثاني ينتسب الساخطون من الشعراء أمثال ابي العتاهية وابن الرومي وأبي العلاء . وشعر الاول كان يلقى من بقية الطائفة عطفا وتأييدا ظاهرا ومستورا ، والى الفريق الاخير ينتسب بشار بن برد وحماد عجرد ومطيع بن اياس ووالبة بن الحباب والحسين بن الضحاك ووارث ادبهم جميعا بما فيه من خير قليل وشر كثير ابو نواس .

ونكتفي بهذه المقدمة العامة في ايضاح ما طرأ على الحياة خلال هذا العصر من تطور وتحول على ان نعود اليها مع شيء من التفصيل كلما عرضنا لفن من الفنون او ظاهرة من الظواهر الادبية التي تأثرت بذلك التغير والتطور .

الفصل الاول

بناء القصيدة

آثرنا ان نبدأ بالحديث عن بناء القصيدة ، وان لم يكن أخطر ما اصاب الشعر من تطور لانه كان اسبق ظهورا من غيره ، ولان حامل لواء الدعوة اليه لم يصانع او يداهن في نشر مبادئه بل رفع عقيرته بها ما وسعه ذلك .

وقد عرفنا فيما سبق صورة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، وعرفنا انها تتكون من مقدمة وغرض ، وان المقدمة تجمع عادة بين الحنين الى الأحبة الراحلين والبكاء على ديارهم الى اخر ما قلناه هناك . وقد ظل لهذا الوضع قداسته طوال العصر الاموي فلم يمار فيه احد من الشعراء ، بل على العكس من ذلك كانوا يحاولون تأكيد ولائهم لسلفهم من الجاهليين بنقل بعض مطالعهم نقلا حرفيا . وما زال جرير يتحرى حتى اختار لكبرى قصائده مطلعا جاهليا فقال :

لمن الديار ببرقة الروحان اذ لا نقيس زماننا بزمان

أخذه من قول عبيد بن الابرص في مطلع احدى روائعه :

لمن الديار ببرقة الروحان درست وغيرها صروف زمان

واخذه الاخطل ايضا فقال :

لمن الديـــــار بحايـــــل فوعـــــال   درست وغيرها سنـــــون خـوال

وشبيه بهذا ما فعله الاخطل حين قال يمدح بشر بن مروان :

صحا القلب عن أروي وأقصر باطله   وعاد له من حب أروي أخابلــــه

أخذه من قول زهير يمدح حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله   وعُرّيّ أفراس الصبا ورواحله (١)

والناس يخطئون اذ يظنون ان مثل هذا من الشعراء مجرد عبـــــادة للقديم ، والحقيقة ان الشاعر يستغل اعجاب الناس بروائع الفن القديم التي بهرت عقولهم ولعبت بمشاعرهم وعواطفهم حينا من الدهر ، فيجعل فـــي انتاجه شبها منها كي يضفي عليه شيئا من قداسة القديم وروعته . وهم يصيبون في تقديرهم هذا فنحن نطير اعجابا بكل خطيب او ممثل او مغن يبدأ تمثيله او غناءه بما يشعرنا انه تقمص شخصية بطل معروف من أبطال التمثيل او نجم لامع من نجوم الغناء . ولهذا يخطىء النقاد حين يضعون هذا الاقتباس العلني في باب السرقات . دارت الايام بعد ذلك دورتها وتحولت الخلافة الى بني العباس ، حاملة على جناحها كل ما اشرنا اليه من تطورات، وهناك في ركن او حانة من حانات بغداد لعب الشيطان او لعبت الخمر برأس طائفة من المتحررين الذين اشرنا اليهم سابقا فأقبلوا على ما يقبل عليه أمثالهم في كل عصر وبلد من استعراض الحياة الادبية حولهم ، وجرهم الحديث الى الاطلال والدمن ، فناقشوها في جو مطلق ، وبعقلية متحررة وانتهوا فيها الى رأي اتخذ صورة شعرية في قول احد أفرادها :

---

١ ـ وربما تجاوز الشاعر هذا القدر اليسير من الاقتباس كما فعل الكميت حين قال :

قـف بالديار وقـوف زائـر   وتـأن انـك غير صاغـر

ماذا عليـك مـن الوقـو   ف بهامـد الظالمين دائـر

درجت عليـه الغاديـات الرا   ئحـات مـن الاعاصر

بعد قول امرىء القيس بن عابس :

قـف بالديـار وقـوف حابس   وتـأن انـك غـير آيس

ماذا عليك مـن الوقـو   ف بهامـد الطالمين دارس

لعبت بهـن العاصفـات الرا   ئحـات مـن الروامس

الوساطة ص ١٩١ .

لأحسن من بيد يحـــاربها القطـــا ومن جبلـــي طي ووصفكما سَلْما (٢)
تلاحـــظ عينـــي عاشقين كلاهما له مقلة فـــي وجه صاحبه ترعـــى

وسرعان ما تلقف ابو نواس هذه الهمسات فكون منها مذهبا جديدا اخذ يدعو له ويناضل عنه حتى نسب اليه وعرف به .

ويتلخص هذا المذهب في استهجان المقدمات الجاهلية بكل ما تشتمل عليه من وقوف على ديار الأحبة ، او تعرض للصحراء ، بل وتشبيب بالمرأة وحجته في ذلك ان الحياة قد تغير وجهها ، حيث هجر العرب البادية ، واستقروا بالمدن ، وصار الشاعر يقيم على بعد خطوات من الممدوح، فالعودة الى البادية واطلالها والصحراء ورمالها اذ ذاك ضرب من العبث المضحك ، او الضحك المزري ، والمتتبع لشعر ابي نواس يرى مذهبا أحسن صاحبه تحديده والاحتجاج له . ولكي نوفّي هذا البحث حقه يجب ان ننظر اليه من النواحي التالية :

اولا : سبب تحمس ابي نواس لهذا المذهب وبلائه في سبيله ، بـلاء انفرد به عن شعراء عصره بل وشعراء العربية جميعا .

ثانيا : احتجاجه لمذهبه .

ثالثا : مدى تقيده في شعره برايه ومذهبه .

رابعا : مدى تأثيره او تأثير دعوته في شعراء عصره ، ومن جاء بعدهم .

اما الاسباب التي دفعت بأبي نواس الى تكوين هذا المذهب (٣) فينبغي ان نتلمسها في شخصيته . وهي شخصية معقدة متعددة النواحي ضللت الباحثين ، حتى حاول بعضهم ان يطبق عليها علم النفس فأجهد نفســـه وأجهد الدارسين معه (٤) ولكننا نفضل ان نفهمه في ضوء احاديثـــه وتصريحاته . ولعلنا لا نكون بمعزل عن الحقيقة اذا ربطنا بين هذه الثورة الفنية ونقمة الشاعر على العرب بعامة وعرب الشمال بخاصة لاسبـــاب

---

٢ ـ الاغاني ج ١٢ ـ ص ٩٨ بتصرف .

٣ ـ نعني بذلك تعصبه ضد ذكر الاطلال مع ان كثيرا من معاصريه كانوا يشاركونه هذا الرأي ، فلم يشغلوا انفسهم او الناس به مثلما فعل هو . بل لا نكون مبالغين اذا قلنا ان الشك في جدوى مثل هذا البكاء كان اقدم من ابي نواس وعصره ، من هذا قول الاعشى :

مـــا بكاء الكبيـر بالاطـــلال وسؤالـــي ومـــا يرد ســـؤالي
دمنـــة قفرة تعاورهـــا الصيـ ـف بريحين مـــن صبا وشمـــال

٤ ـ الاستاذ عباس العقاد .

سنشرحها فيما بعد (٥) . وقد رأى ابو نواس في التغني بتلك الاطلال تمجيدا وذكرا لعرب الشمال وباديتهم وآثارهم وتقاليدهم ، فأعلنها ثورة على الامرين جميعا ومما يؤكد وجهة نظرنا هذه ربط الشاعر بينهما في قوله :

دع الرسم الذي دثرا ... يقاسي الريح والمطرا (٦)
وكن رجلا اضاع العلـ ... ـم في اللذات والخطرا (٧)
الم تر ما بني كسرى ... وسابور لمن غبرا
منازه بين دجلة والـ ... ـفرات أحفَّها الشجرا
بأرض باعد الرحمـ ... ـن عنها الطلح والعشرا
ولم يجعل مصايدها ... يرابيعا ولا وجرا
ولكن حور غزلان ... تراعي بالملا بقرا

ثم يتهكم بالمرأة البدوية ويفضل الغلمان عليها فيقول :

تعد الشيح والقيصو ... م والقفعاء (٨) والسمرا
جني الآس والنسريـ ... ـن والسوسان ان زهرا
ويغنيها عن المرجا ... ن أن تتقلد البعرا
وتغدو في برا جدها ... تصيد الذئب والنمرا
اما والله لا أشمرا ... حلفت به ولا بطرا
لو ان مرقشا حي ... تعشق قلبه ذكرا
كأن ثيابه أطلعـ ... ـن من ازراره قمرا
يزيدك وجهه حسنا ... اذا ما زدته نظرا

اما الحجج التي يقدمها شاعرنا بين يدي دعواه ، فقد مر بعضها في الابيات السابقة حيث يسخر من تلك الاطلال التي أطال العرب النوح عليها مع انها لا تعد شيئا بجانب ما تركته الدول الاخرى من آثار ، ويضرب مثلا لذلك ببلاد فارس ومنازهها الجميلة ، وسهولها الخصبة ، مقارنا بينها وبين بادية العرب التي لا ترى فيها من النبات سوى الاعشاب الشوكية ، ولا من

---

٥ ـ كان ابو نواس متحيزا لعرب الجنوب لان ولاءه فيهم .

٦ ـ ديوانه ص ١٦٤ .

٧ ـ لعل ابا نواس في هذا البيت يشير الى ما في دعوته من مخالفة لدراسته المستفيضة لاشعار العرب دراسة كانت تفيده كثيرا لو انه أحسن استغلالها .

٨ ـ القفعاء : مسك البر (مخصص جا ١١ ـ ص ١٩) .

الحيوان سوى الوجر واليرابيع ، وغيرها من الحيوانات والنباتات التي يصر شعراء العرب على التغني بها ، وكان جديرا بهم ان يستحوا من ذكرها ، او العودة بأذهانهم الى ماضيها البغيض .

وكأنه لم يقنع بمهاجمة الاطلال وحدها بل هاجم الغزل ايضا ، لم يعدم قولا ، فقد وصف البدوية بالتخلف عن ركب المدنية ، مما يضعف ناحية الاغراء فيها ، ويزعم بعد ذلك ان الغلمان الوافدين الى الجزيرة العربية من بلاد الترك والفرس أقدر على خلب العقول وتصيد الالباب منهن ، حتى ان مرقشا لو تأخر به الزمن الى العصر العباسي لما ترك هؤلاء الغلمان في قلبه فضلا لسلمى ولا ليلى .

ويقول في مطلع قصيدة اخرى يمدح بها العباس بن عبيد الله بن المنصور:

ديار نـــوار مـــا ديار نـــوار كسونك شجواهن منـه عوار (٩)
يقولون في الشيب الوقار لأهلـــه وشيبي بحمـــد الله غـــير وقـار
اذا كنت لا أنفك عن طاعة الهـــوى فان الهوى يرمي الفتى ببـــوار
فها ان قلبـي لا محالـــة مائـــل الى رشأ يسعـى بكأس عقـــار
كأن بقايا ما عفا مـــن حبابهـــا تفاريق شيب فـي سواد عـــذار

فهو يبدأ قصيدته متهكما من نوار وديارها ، متسائلا عن مدى ما لها من خطورة استحقت عليها كل ذلك الاهتمام ، ويلفت النظر الى انها حجارة صماء لا تعي ولا تعقل ، تثير في انفسنا أشد العواطف مرارة ، وفي الوقت نفسه لا تشاركنا في حمل شيء منها .

ثم يعلن بعد ذلك اطراحه للوقار في سبيل ملذاته ، كما اعلن فـــي القصيدة السابقة إضاعته للعلم في سبيلها ايضا . ومن فوق منارة عالية(١٠)، يرسلها صرخة مدوية في الآفاق ، فيخبرنا بأن آماله وأمانيه قد تبلورت في امرين وان شئت في امر واحد ، غلام كأنه الظبي الغرير يسعى بكأس من الخمر ، وما دامت تلك هي أمانيه في الحياة ، وشغله الشاغل ، فلماذا لا يكون من حقه ان يبدأ بها شعره ، وأن يسترضي بها شيطانه ، واذا كـان القدامى قد بدأوا بالاطلال او غيرها ، فلأن ذلك كان يستهوي عقولهم ، اما هو فهواه وعواطفه تدور حول أمور اخرى .

---

٩ ـ ديوانه ص ٧٢ .

١٠ ـ يدل على ذلك استعماله «ها» التي للتنبيه .

ولعل الابيات التالية من خير ما قاله ابو نواس في الدفاع عن مذهبه :

مالي بدار خلت من اهلها شغـــل ... ولا شجاني لها شخص ولا طلل (١١)
ولا رسوم ولا ابكـــي لمنزلـــة ... للأهل عنهـــا وللجيران منتقـــل
ولا قطعت علـــى حرف مذكـــرة ... في مرفقيها اذا استعرضتها فتـل
بيـــداء مقفرة يومـــا فأنعتهـــا ... ولا سرى بـــي فأحكيه بها جمـــل
ولا شتـــوت بها عامـــا فأدركنـي ... فيها المصيف فلي عن ذاك مرتحـــل
ولا شددت بها مـــن خيمة طنبـــا ... جاري بها الضب والحربـــاء والورل
فهاك من صفتـــي ان كنت مختبرا ... ومخبرا نفرا عنـــي اذا سألـــوا

وحجته هنا في غاية البساطة والوضوح . انه لا يعرف البادية ولا صلة بينه وبينها فلماذا اذن يبكي لها او عليها ، ولم يركب الى الممدوح ناقة ولا جملا فما حاجته اذن الى وصفها ، أليس من الخير اذن ان يتحرى الصدق ويلتزم الواقع فيتحدث عما امتطاه حقيقة الى ممدوحه ؟ ان هذا هو ما فعله حين قال في مدح الفضل البرمكي ، مشيرا الى الاحذية .

اليك أبا العباس من دون من مشى ... عليها امتطينا الحضرمي الملسنـــا (١٢)
قلائص لم تسقط جنينا من الوجـــى ... ولم تدر ما قرع الفنيق ولا الهنا (١٣)
نزور عليها مَـــن حرام محـــــرم ... عليه بأن يعدو يزائـــزه الغنـــى

مدى تقيده برأيه هذا :

قد يعجب المرء حين يرى بعض قصائد لابي نواس مبدوءة بذكر الاطلال والدمن رغم هذه الحملة الشعرية التي اعلنها عليها . ولكن مهلا فالامر أدق من ذلك ، فلم يكن شاعرنا يخبط خبط عشواء ، ولكنه كان يتلون ويتصرف حسب الظروف والمناسبات ، فاذا مدح شخصا يتهيبه كهرون الرشيد ، سلك مسلك القدامى طوعا او كرها او وقع قريبا منهم ، فهو يعلم ان هرون يكره منه الخروج على تقاليد العرب ، ولاسيما اذا كان ذلك عن كراهية او

---

١١ ـ ديوانه ص ٣٢٢ .
١٢ ـ ديوانه ص ٧٦ الخضرمي الملسنا : الرقيق من النعال .
١٣ ـ قلائص جمع قلوص وهي الشابة من الابل ـ الوجي : الجفا ـ قرع الفنيق ضراب الفحل ـ الهنا : القطران يطلى به الاجرب من الابل .

احتقار لهم ، ويعلم ان سخط الخليفة ربما انتهى به الى السجن (١٤) ولذا نراه يشتمل شملة الأعراب حين يمدحه فيقول :

حي الديار اذ الزمان زمان وإذ الشباك لنا حرى ومعان (١٥)
يا حبذا سفوان من متربع ولربما جمع الهوى سفوان
واذا مررت على الديار مسلما فلغير دار اميمة الهجران
انا نسبنا والمناسب ظنة حتى رميت بنا وانت حصان

وكأنما عز على ابي نواس ان يخالف مذهبه حتى في أدق المواقف وأحرجها ، فاذا به يخز الاطلال والدمن وخزة خفية في البيت الثالث .

وفي قصيدة اخرى يقول :

خلق الشباب وشرتي لم تخلق ورميت في غرض الزمان بأفوق (١٦)
تقع السهام وراءه وكأنه اثر الخوالف طالب لم يلحق
وارى قواي تكاءدتها ربئة فاذا بطشت بطشت رخو المرفق
ولقد غدوت بدستبان (١٧) معلم صخب الجلاجل في الوظيف مسبق
حر صنعناه لتحسن كفه عمل الرفيقة واستلاب الأخرق

ويستمر في الحديث عن صقره واستعانته به على صيد البط والاوز من بعض البرك القريبة من بغداد فيذكرنا بما يجري في عصرنا الحاضر احيانا . وقد يخيل الى المرء ان ابا نواس مبتدع هنا ، والحقيقة انه يسير في خطا زهير بن ابي سلمى في قصيدته التي يمدح حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري والتي يبدؤها بقوله :

صحا القلب عن سلمى واقصر باطلة وعرّى افراس الصبا ورواحله

---

١٤ ـ ربما جاهر الشاعر بأنه انما يعود الى ذكر الاطلال احيانا خوفا من الخليفة وامتثالا لامره كما في قوله :

أعر شعرك الاطلال والمنزل القفرا فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا
فسمعا امير المؤمنين وطاعة وان كنت جشمتني مركبا وعرا

١٥ ـ ديوانه ص ٥٨ . حري ومعان علمان على مكانين .

١٦ ـ نفسه ص ٦٠ .

١٧ ـ دستبان : صقر .

وفيها يأخذ في وصف الطبيعة ، ثم ينتقل الى الصيد ومنه الى المدح . وكل ما هناك من فرق بين زهير وأبي نواس ان كلا منهما ذكر نوعا من الرياضة والصيد يناسب عصره فالاول كان يصيد الغزلان وحمر الوحش، اما الثاني فيتحدث عن رياضة هينة لا يعني بها الا اهل الترف والنعيم .

ومن هذا الباب قصيدة قالها في الفضل بن يحيى البرمكي ، وكان معروفا بالصرامة والجد واحترام النفس ، ويبدؤها بقوله :

اربع البلى ان الخشوع لباد — عليك واني لم أخنك ودادي (١٨)
فمعذرة مني اليك بأن ترى — رهينة أرواح وصوب غوادي
ولا أدرأ الضراء عنك بحيلة — فما انا منها قائل لسعاد
وان كنت مهجور الفنا فبما رمت — يد الدهر عن قوس المنون فؤادي
وان كنت قد بدلت بؤسي بنعمة — فقد بدلت عيني قذي برقاد
سأرحل من قود المهاري شملة — مسخرة لا تستحث بحاد
مع الريح ما قامت وان هي أعصفت — تهوس براس كالعلاة وهاد

وقد تعجب اذا قلنا لك ان هذا المطلع من خير ما قيل في الاطلال حتى ذلك العصر ؛ حيث كان القدامى يمرون عليها مر الكرام في بيتين او ثلاثة ويكتفون بقطرات من الدمع يريقونها على ارضها الصادية . اما ابو نواس فيربط بين صنيع الزمان به وبالربع ربطا عجيبا وجميلا . وانما عجبنا لانه من رافع لواء الثورة على الاطلال . ويظهر انه اعتصر ذهنه هنا ليثبت لمنافسيه انه قادر على وصف الاطلال لو شاء ، او كأنه يقول لهم اذا شئتم بكاء الاطلال فهكذا وإلا فلا .

اما اذا كان بينه وبين الممدوح الفة تذهب بالتوقر والتكلف فانه يسترسل على طبيعته ويقدم لمدحه بالخمر والغزل بالمذكر كما رأينا في قصيدته التي انشدها في العباس بن عبد الله . وربما جاوز المذكر والغزل فيه الى ما هو شر منه كما نرى في احدى مدائحه للفضل بن الربيع وفيها يقول :

يا ربع شغلك اني عنك في شغل — لا ناقتي فيك لو تدري ولا جملي (١٩)
علي عين وأذن من مذكرة — موصولة بهوى اللوطي والغزل
كلاهما نحوها سام بهمته — على اختلافهما في موضع العمل (٢٠)

---

١٨ ـ ديوانه ص ٧٣ .

١٩ ـ ديوانه ص ٨٦ .

٢٠ ـ يشير الى ان الاول يهيم بدبرها والثاني بفرجها .

يا فضل غاية خلق الله كلهم   اذا ضربنا بجود غاية المثل

اثر عودة ابي نواس في غيره من الشعراء :

لقد نجح ابو نواس في ان يسلط الاضواء على قضية المطالع ، وجعلها موضوع دراسة ومناقشة وشكك الناس في قداستها وبذلك فتح الطريق لكل ما اصابها بعد ذلك من تغير وتطور . ومع ان كثيرا من الشعراء لم يتقيدوا بمذهبه حرفيا ، الا انهم رغم ذلك تأثروا به من قريب او بعيد . وكان إسرع الشعراء استجابة له معاصره ومنافسه ابو العتاهية (٢١) ، وقد ظهر ذلك في قصيدة يمدح بها موسى الهادي وفيها يقول :

لهفي على الزمن القصير   بين الخورنق والسدير (٢٢)
اذ نحن في غرف الجنا   ن نعوم في بحر السرور
في فتية ملكوا عنا   ن الدهر أمثال الصقور
ما منهم الا الجسو   ر على الهوى غير الحصور
يتعاورون مدامة   صهباء من حلب العصير
عذراء رباها شعا   ع الشمس في حر الهجير
ومقرطق يمشي أما   م القوم كالرشأ الغرير
بزجاجة تستخرج السر   الدفين من الضمير
ومخصرات زرننا   بعد الهدو من الخدور
غر الوجوه محجبا   ت قاصرات الطرف حور
والى أمين الله مهربنا   من الدهر العثور
وإليه أتعبنا المطا   يا بالرواح وبالبكور
صعر الخدود كأنما   جنحن أجنحة النسور

والناظر اليها يدرك بدون تأمل ان الشاعر التزم فيها مذهب ابي نواس نصا وروحا ؛ حتى الابل عنده لبست زيا جديدا حيث وضع لها أجنحة كالنسور . على انه ينبغي الا نغفل تأثير ابي نواس فيما شاع بعد ذلك من اقتضاب المطالع . ويظهر ان الذوق العام كان سائرا اذ ذاك في نفس الاتجاه .

---

٢١ ـ يظهر ان ابا العتاهية خشي ان يبوء ابو نواس بفخر ذلك النوع من التجديد ، فأنشد القصيدة المشار اليها ، وهي كما ترى حافلة بالحديث عن الخمر ومجلسها وسقاتها.

٢٢ ـ الاغاني ج٣ ـ ص ١٥٦ .

ويؤكد هذا ما روي (٢٣) من ان أبا العتاهية لما مدح عمر بن العلاء في قصيدته التي يقول فيها :

ان المطايا تشتكيك لانها قطعت اليك سباسبا ورمالا
فاذا وردن بنا وردن مخفة واذا رجعن بنا رجعن ثقالا

اعطاه سبعين الف درهم أثارت حسد زملائه من الشعراء وبخاصة مروان بن ابي حفصة فجمعهم عمر وقال لهم : يا معشر الشعراء عجبا لكم، ما أشد حسد بعضكم بعضا ، ان احدكم يأتينا ليمدحنا بقصيدة يشبب فيها بصديقته بخمسين بيتا ، فما يبلغنا حتى تذهب لذاذة مدحه ورونق شعره، اما ابو العتاهية فقد شبب بأبيات قليلة ثم قال : وذكر البيتين السابقين، ويروي صاحب تاريخ بغداد (٢٤) ان مروان رؤي واقفا بباب الجسر كئيبا أسفا ينكت بسوطه في معرفة دابته فقيل له : ما الذي نراه بك يا أبا السمط ؟ قال : اخبركم بالعجب ، مدحت الامير فوصفت له ناقتي من خطامها الى خفيها ، ووصفت الفيافي من اليمامة الى بابه ارضا ارضا ، ورملة رملة حتى اذا أشفيت منه على غنى الدهر جاء ابن بائعة النواخير — يعني ابا العتاهية — فأنشده بيتين ضعضع بهما شعري . وأشار الى البيتين السابقين .

ويصعب على الباحث ان يضع المحاولات المختلفة التي قام بها الشعراء بعد دعوة ابي نواس لتطويع المطالع لظروف العصر وظروف الموضوع تحت عنوان او اثنين لكثرتها وافتنان الشعراء فيها . وبالرغم من ذلك يمكن مع شيء من التساهل تقسيمها الى نوعين :

الاول منها حاول الشعراء فيه خدمة الغرض الاساسي من اول القصيدة مباشرة . وذلك بتكييف الجو العام للغزل تكييفا خاصا بحيث يلقي أضواء وظلالا مختلفة ويحدث ارتباطات متنوعة شعورية ولا شعورية ، تلتقي فتأتلف وتتعاون جميعا على اصابة الهدف الذي يرمي اليه الشاعر ، وأهم ما يتوسلون به الى ذلك اختيار ضمائر الخطاب في الغزل بحيث تصلح للمذكر والمؤنث ، ثم دس المعاني او الشكاوي التي يريدون ايصالها الى اذن الممدوح ، فتصل اليها بين التعريض والتلميح ، وتقع من النفوس اجمل

---

٢٣ — ابن خلكان ج ١ — ص ٧٢ .

٢٤ — الجزء السادس ص ٢٥٨ .

موقع واعذبه . ومن امثال ذلك قول ابي العتاهية في مطلع مدحته لعمر بن العلاء (٢٥) :

يا صاح قد عظم البلاء وطالا   وازددت بعدك صبوة وخبالا
حملت ممن لا أنوه باسمه   ثقلا كأن به على جبالا
ماذا لقيت من الهوى وسقامه   فيها تبارك ربنا وتعالى
يا من تفرد في الجمال فلا ترى   عيني على احد سواه جمالا
أكثرت في شعري عليك من الرقي   وضربت في شعري لك الامثالا
فأبيت الا جفوة وتمنعا   وأبيت الا صبوة وضلالا

وقول البحتري يمدح المتوكل :

عذيري فيك من لاح اذا ما   شكوت الحب حرقني ملاما (٢٦)
فلا وابيك ما ضيعت عهدا   ولا أبيك ما فارقت ذاما
الام على هواك وليس عدلا   اذا احببت مثلك أن الاما
لقد حرمت من وصلي حلالا   وقد حللت من هجري حراما

وقوله يمدح الفتح بن خاقان ويعاتبه :

عنت كبدي قسوة منك ما ان   تزال تجدد فيها ندوبا (٢٧)

ومنه ايضا قول ابي الطيب المتنبي ، يعاتب سيف الدولة ويمدحه :

واحر قلباه ممن قلبه شبم   ومن بجسمي وحالي عنده سقم (٢٨)
مالي أكتم حبا قد برى جسدي   وتدعي حب سيف الدولة الامم
ان كان يجمعنا حب لغرته   فليت انا بقدر الحب نقتسم

وقول ابن المعتز في مفتتح مدحه للمعتضد ، وقد نفاه وحال بينه وبين مجالسه :

اتسمع ما قال الحمام السواجع   وصائح بين في ذرا الأيك واقع
منعنا سلام القول وهو محلل   سوى لمحات او تشير الاصابع
واني لمغلوب على الصبر انه   كذلك جهل المرء للحب صارع

---

٢٥ ـ برانق في ابن العتاهية ص ١٧٧ .
٢٦ ـ ديوانه ص ٢٢٤ .
٢٧ ـ ديوانه ص ١٥ .
٢٨ ـ ديوانه ج ٢ ـ ص ٣٦٢ .

فظاهر هذه المطالع جميعها التشبيب بفتيات معروفات للشعراء . ولكننا مع ذلك واثقون من ان قول ابي العتاهية مثلا :

يا من تفرد في الجمال فلا ترى عيني على احـــد سواه جمالا

لا بد ان يسترعي انتباه ابن العلاء ، حتى ليكاد يظن انه المخاطب به دون غيره من البشر ؛ لان خلوه من ضمير المؤنث يجعله صالحا لان يوجه له مباشرة اليس من الجمال ما هو خلقي يصلح للرجال وغير الرجال ؟

ومثل هذا يمكن ان يقال في قول البحتري للمتوكل :

الام علـــى هواك وليس عـــدلا اذا احببت مثلـــك أن الامـــا

وأما قوله للفتح بن خاقان :

عنت كبـدي قسوة منـــك ما ان تزال تجـــدد فيهـــا تدوبـــا

وقول ابن المعتز للمعتضد :

منعنـــا سلام القول وهـــو محلل سوى لمحات او تشير الاصابـــع

وقول ابي الطيب لسيف الدولة :

واحـــر قلبـــاه ممن قلبه شبـم ومـن بجسمي وحالي عنده سقـم

فلا بد ان يلفت نظر المدوحين الى موقفهم من الشعراء عند بـــدء القصيدة مباشرة . ولمثل هذه المبادرة خطرها حيث تثير شكوى الشاعـر بطريق غير مباشر ؛ فتخف على الاسماع وتسرع الى القلوب .

ولعلنا الان قد ادركنا الفرق بين غزل هذا العصر وغزل العصور السابقة من مثل قول كعب بن زهير :

بانت سعاد فقلبـــي اليوم متبـــول متيم اثرها لـــم يفد مكبـــول

فانه على جودته محصور في دائرة ضيقة هي دائرة الغزل بالمرأة . اما الامثلة التي سقناها آنفا فهي كالقطعة الثمينة من الماس يحسن الصانـــع صقلها بحيث ترسل اشعاعات مختلفة ، تخلب الابصار ، وتبهر العقول .

ومما لا شك فيه ان الشعراء الاوائل لم يكونوا يلقون بالا الى مثل تلك المعاني الجانبية والاشارات الخفية ، فقصيدة «بانت سعاد» السالفة الذكر متضمنة الأمور لم تسترع التفات الشاعر ولا الرسول ، وإلا لكانت هجوما صريحا على الاخير كقوله :

فيالهـــا خلـــة لو انهـــا صدقت بوعدها او لو ان النصح مقبول (٢٩)
لكنهـــا خلـــة قد سيط من دمها فجع وولـــع وإخلاف وتبديـــل
فما تدوم على حال تكـــون بهـــا كما تكون في أثوابهـــا الغـــول
ولا تمسك بالوعد الذي وعـــدت الا كما يمسك المـــاء الغرابيـــل
كانت مواعيـد عرقوب لها مثـــلا ومـــا مواعيدهـــا الا الاباطيـــل

وانما بدأوا يفطنون لها في عصور متأخرة بعد ان لفت الممدوحـــون انظارهم اليها ، اذ يبدو ان الممدوح وهو المقصود والمخاطب بالقصيدة يكون من أدق الناس ملاحظة عند انشادها . رووا ان ذا الرمة لما أنشد عبد الملك قولـــه :

ما بال عينك منهـــا الماء ينكسب كأنه مـــن كلي مفريّـــة سرب (٣٠)

وكان بعين الاخير علة فهي تدمع ابدا ، قال : وما سؤالك عن هذا يا ابن الفاعلة ، وأمر به فأخرج من المجلس وأشباه ذلك كثير . ومنذ ذلك الحين بدأ الشعراء والنقاد يفطنون لمثل تلك الارتباطات الخفية ويتجنبون التورط فيما تورط فيه سلفهم من اخطاء . وكان مما قاله ابو هلال في ذلك : «ينبغي للشاعر ان يحترز في أشعاره ومفتتح أقواله ممـــا يتطير منه ، ويستجفي من الكلام ولاسيما في القصائد التي تتضمن المدائح والتهاني... فان الكلام اذا كان مؤسسا على هذا المثال تطيَّر منه سامعه وان كان يعلم ان الشاعر يخاطب نفسه دون الممدوح» (٣١) .
ولم يكتف الشعراء بهذه الناحية السلبية التي فطن اليها ابو هلال ، بل كانوا ايجابيين على النحو الذي اشرنا اليه .
اما المحاولة الثانية فقد قام بها ابو تمام ، وان لم يشعر كثير من الناس بجهوده في تلك السبيل . وبيان ذلك ان ابا تمام مداح يستغل كل وسيلة ممكنة ، وكل لفظ في القصيدة لتحقيق الهدف الذي يسعى اليه من اطراء الممدوح والتأثير عليه . وطبيعي والحال هذه ان يحمّل المقدمة نصيبهـــا الموفور من خدمة تلك الغاية . ولذا لم يستطع ان يهبها للغزل التقليدي الذي دب اليه الفتور في اخر ايامه . وكانت وسائله الى ذلك كثيرة ومتنوعة ، الا

---

٢٩ ـ سيرة ابن هشام ج٤ ـ ص ١٥٤ .
٣٠ ـ الصناعتين ص ٣٤٤ .
٣١ ـ نفســه .

اننا نحب ان نسجل هنا اجرأ تجربتين قام بهما في هذا الصدد . في الاولى منهما حاول ان ينحو بالمقدمة منحى كتاب القصص في عصرنا الحاضر من حيث استعراض الماضي في لمحات خاطفة قبل الدخول في الموضوع (٣٢) ترى ذلك في مثل قوله يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري (٣٣) :

أطلالهم سلبت دماهـا الهيفا ... واستبدلت وحشا بهن عكوفا
يـا منزلا اعطى الحوادث حكمها ... لا مطل في عدة ولا تسويفا
ارسي بعرصتك الندى وتنفست ... نفسا بعقوتك الرياح ضعيفا
شغف الغمام بعرصتيك وربما ... روت ربـاك الهائـم المشغوفا
ولئن ثوى بـك ملقيا اجرامه ... ضيف الخطوب لقد اصاب مضيفا
وهي الفجائع لم تزل نكباتها ... يألفن ربع المنزل المألوفا
خلفت بعقوتك السيون وطالما ... كانت بنات الدهر عنك خاوفا
ايام لا تسطو بأهلك نكبة ... الا تراجع صرفها مصروفا
واذا رمتك الحادثات بلحظة ... ردت ظباؤك طرفها مطروفا

الى اخر ما قاله في تلك المقدمة . ونحن لا نشك في ان القارىء لها يدرك بسهولة الفرق بينها وبين قول امرىء القيس مثلا :

قفا نبـك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقـراة لـم يعف رسمها ... لما نسجتها مـن جنوب وشمال
ترى بعـر الارآم فـي عرصاتها ... وقيعانهـا كأنـه حب فلفـل

حيث قنع امرؤ القيس بتصوير الاثر الماثل بين يديه والوقوف عند حدوده ، بينما يحاول الطائي ان يربط بينه وبين الماضي ، مستثيرا هذا بذكر ذاك . على ان مجهوداته كانت أبعد اثرا وأشد وضوحا في ميدان اخر هو ميدان المطالع الطبيعية ، ونعني بها تلك المطالع التي تتحدث عادة عن الطبيعة وعن الامطار والسيول ، وما ينبت عليها من ورود وأزهار ونحوها ، وإحلال ذلك محل الدمن والاطلال والنساء والغزلان .

وقد ظهر ذلك النحو من المطالع في العصر الجاهلي ومنه قصيدة زهير

---

٣٢ ـ هذا التشابه يجعلنا نعتقد ان الفكر العربي في تلك الفترة من الزمن كان قد تهيأ للقصص ولكنه تحت ظروف مختلفة وقف عند هذا القدر المتواضع في الشعر ، كما وقف عند المقامة في النثر .

٣٣ ـ ٢٠٥ ديوان .

ابن ابي سلمى التي اشرنا اليها سابقا (٣٤) ولكنه كان قاصرا حيث لم يربط بين وصف الطبيعة والمدح (٣٥) على عادة الجاهليين من الفصل الظاهري بين المقدمة والموضوع ، اللهم الا ما كان من ربط ضعيف في مثل قول أوس ابن حجر :

يا من لبرق أبيت الليل ارقبه   في عارض كبياض الصبح لماح
دان مسف فويق الارض هيدبه   يكاد يدفعه من قام بالراح

ثم وصله بالدعاء والمدح فقال :

سقي ديار بني عوف وساكنها   ودار علقمة الخير بن صباح

وأما ابو تمام فشرع طريقة جديدة استمد عناصرها الاولى من زهير ومن بعده ، ولكن أبا تمام بعقليته الجبارة استطاع ان يحيل تلك العناصر الاولية الى مثل تلك الصورة البارعة التي نراها في قوله يمدح المعتصم :

رقّت حواشي الدهر فهي تمرمر   وغدا الثرى في حليه يتكسر
بذلت مقدمة المصيف حميدة   ويد الشتاء جديدة لا تكفر

وقد اخذ في وصف الطبيعة حتى قال :

يا صاحبيّ تقصيا نظريكما   تريا وجوه الارض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه   زهر الربى فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى اذا   حل الربيع فأنما هي منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها   نورا تكاد له القلوب تنور
من كل زاهرة ترقرق بالندى   فكأنها عين اليك تحدر

---

٣٤ ـ نقصد قوله: صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله   وعرى أفراس الصبا ورواحله
ويظهر ان الجاهليين فعلوا ذلك تحبنا للملل وطلبا للتجديد فلم يكن مجرد مصادفة ان يظهر هذا النحو من التجديد عند إمامي الصنعة في العصرين الجاهلي والعباسي بل كان عن قصد . ومغزاه وفي نظرنا أن كلا منهما يبذل جهده في الرقي بصناعة والافتتان فيها .

٣٥ ـ وهذا متفق مع عادة الجاهليين من عدم الربط بين المقدمة والغرض الاصلي بأكثر من مثل قول زهير :

دع ذا وعد القول في هرم   خير البداة وسيد الخضر

فتأويل هذا عندهم : دعك من احاديث الدمن والاطلال وانتقل بنا الى ما اهم من ذلك.

تبـدو ويحجبها الجميم كأنها عذراء تبـدو تارة وتخفـر
حتـى غدت وهداتهـا ونجادها فئتين فـي حلل الربيـع تبختر

وبعد عدة أبيات على هذا النسق يصل الحديث عن الطبيعة بالمديـح فيقول :

خلق اطـل من الربيـع كأنـه خلـق الأمـام وهديـه المتنشر
في الارض من عدل الامام وجوده ومـن النبات الغض سرج تزهـر
تنسي الرياض ومـا يروض فعلـه ابـدا على مـر الليالي يذكـر

والدارس لمثل هذه القصيدة ينبغي ان يفطن الى امرين : أولهما اخراج الورود في صورة العذارى ، وكأن أبا تمام وهو يبحث عن شيء جديـد تشترك العواطف الانسانية جميعها في التعلق به ليحله محل المراة طلبـا للتجديد وفرارا من التكرار ـ لم يجد شيئا أيسر منالا من الازهار . ولذا نراه يمزج بين البدل والمبدل منه ليلفت الانظار الى انه لم يسرف فـي تجاهل تقاليد الشعر العربي حين وضع الطبيعة موضع المراة ، واسبغ عليها من عواطفه واعجابه ما كان سواه من الشعراء يسبغه على المراة وديارها .
وثانيهما الربط القوي البديع بين الحديث عن الطبيعة والموضوع الاصلي وهو امر لم يسبق اليه (٣٦) مما يجعل المقدمة تبدو كأنها جزء من المدح ، او المرحلة الاولى من مراحله .
وليست هذه القصيدة هي المحاولة الاولى لابي تمام في هذا الصدد بل له اكثر من محاولة مشابهة نذكر منها قصيدة ارسلها الى ابراهيم والفضل كاتبي عبد الله بن طاهر يعتذر اليهما حين حبسه المطر عنهما وفيها يقول :
منع الزيارة والوصـول سحائب شم الغوارب جابة الأكنـاف (٣٧)

---

٣٦ ـ سبقه الى ذلك مسلم بن الوليد وان جعله بين الخمر والمدح كما ترى في قوله يمدح زيد بن مسلم :

اذا شئتما ان تسقياني مدامـة فـلا تقتلاها كـل ميت محرم
خلطنا دمـا من كرمة بدمائنـا فأثـر فـي الالوان منا الدم الدم
فمن لامني في اللهو او لام في الندى أبـا حسن زيد الندى فهو ألوم

وظاهر ان مسلم وهو احد أقطاب الصنعة في العصر العباسي لم يقتنع بما كان يفعله سلفه ابو نواس من التمهيد بذكر الخمر بل ربط بينها وبين المدح كي تبدو وكأنها جزء منه.
٣٧ ـ ديوانه ص ٢٠٤ . جابة : عريضة .

ظلمت بني الحاج الملـــح وانصفت   عرض البسيطة أيمـا انصـــــاف

الى ان قال :

ان الشتـــــاء علــى شتامــة وجهه   لهــو المفيـــد طلاقة المصطـــاف
وكأنمـــا آثارهـــــا مــن مزنــة   بالميث والوهـــــدات والأخيـــاف
آثـــــار أيدي آل مصعب التــي   بسطت بـــــلا منّ ولا إخـــلاف

وربما جمع ابو تمام بين وصف الطبيعة والحديث عن الخمر في مطالعه كما فعل في تلك القصيدة التي مدح بها محمد بن حسان الضبي (٣٨) .

ومعرّس للغيث يخفـــق فوقــه   رايــات كـــل دجنة وطفـــاء
نشرت حدائقـــه فصرن مطارفـا   لطرائـــف الانــواء والانـــداء
فسقاه مسك الطـل كافور الندى   وانحــل فيــه خيط كــل سمـاء
غنى الربيـــع بروضـــه فكأنمـــا   أهدى اليــه الوشــي من صنعـــاء
صبحته بسلافـــة صبحتهـــا   بسلافـــة الخلطاء والندمـــاء (٣٩)

وكان اهل الاندلس اشد الناس ولوعا بهذا النوع من المقدمات . ولعل هذا راجع الى جمال البيئة الاندلسية نسبيا واختلاطهم بالاجانب ثم ميلهم الى اللهو والمتعة وعشقهم للطبيعة وحرصهم على الاستمتاع بها ، وقدرتهم على تذوقها ، فقد روي ان نهر اشبيلية على عهد العرب كانت تحف به جنان متصلة من الجانبين ، وكانت الزوارق تتهادى فوق سطحه ليلا ونهارا بطلاب المتعة وفيهم المغنون والموسيقيون ويؤكد الشقندي صاحب هذا الخبر انه زار مصر وراى نيلها فكان في هذا دون نهر اشبيلية (٤٠) واول نص يصادفنا من الشعر الاندلسي في هذا الباب قول ابي عمر يوسف بن هرون الرمادي من شعراء القرن الرابع الهجري يمدح ابن القرشية :

تأمل بإثر الغيم من زهرة النـــدى   حياة عيون متن قبل التغيـــم (٤١)
تعجبت من غوص الحيا في حشا الثرى   فأفشى الـــذي فيه ولم يتكلـــم

ثم قال بعد عدة ابيات رابطا بين الطبيعة والمدح على طريقة ابي تمام :

---

٣٨ ـ شرح ديوانه للخطيب التبريزي تحقيق محمد عبده عزام ص ٢٢ .

٣٩ ـ السلافة الخالص من كل شيء ـ والمراد بالسلافة الاولى الخمر وبالثانية الممدوح.

٤٠ ـ راجع الشقندي في الجزء الثاني من نفح الطيب ١٥٠ .

٤١ ـ الحلة السيراء ص ١٠٩ .

وان جئتها بالشمس والبدر والحيا مفاخـــرة جاءت بأسنـــى وأكرم
بعبد العزيــز ابن الخلالف والذي جميع المعالي تنتمي حيث ينتمـــي

واستفل الجزيري من شعراء القرن الرابع ايضا الطبيعة في اطـــراء المتصور ومدحه أيما استغلال ومن ذلك قوله :

وعلى يمينـــك سوسنـــات أطلعت زهر الربيع فهن حسنا تشرق (٤٢)
فكأنما هي فـــي اختلاف رقومهـــا رايات نصرك يـوم بأسك تخفـــق
في مجالس جمع السرور لأهلـــه ملـــك اذا جمعت قنـــاه يفـرق

ويقول في قصيدة اخرى :

حيتك يـــا قمر العـــلا والمجلس أزكـــى تحيتها عيون النرجس (٤٣)
زهـــــر تريك بحسنها وبلونهـــــا زهـــر النجـوم الجاريـــات الكنس
فلكن أفئدة الندامـــــى كلمـــــا دارت بمجلسهـــــم مـــــدار الأكؤس
ملـــك الهمـــام العامري محمـــد للمكرمـــــات وللنهـــــي والأنفس

ويظهر ان تعلق المظفر بن ابي عامر بالازهار ، او بالمدح ، او بكليهما قد زاد من اهتمام الشعراء بهذا الفن الجديد ، فقد روى (٤٤) صاحب البيان المغرب ان المظفر بن ابي عامر اقترح على شعرائه في بعض اوقات الربيع من دولته قطعا نوارية في المنثور وهو الخيري وفي الزهر وغير ذلك من انواع النوار . وكان شديد الاعجاب بذلك ، كثير الطلب لانواعه في مظانه ، وأحب ان يدخلها قيانه في اغانيهن ، واكتتب كثير منه في وقته لحسنه وغرابته في معناه وكان من مستحسنه قول ابي العلاء صاعد بن الحسين البغدادي في الآس :

مـــن كان فـــي وده للآس متهمـــا فـــان عندي ودغير متهـــم (٤٥)
نعم الصديق فما نخشى تلونـــــه على معاقبـــة الاصباح والظلـــــم
اذا رآه ابـــــو مروان ذكـــــره تهافت الركب في القيعان والأكـــم

وقوله في الترنجان :

---

٤٢ ـ نفح الطيب ج١ ـ ص ٢٤٩ .
٤٣ ـ المرجع السابق .
٤٤ ـ ج٣ ص ١٨ .
٤٥ ـ نفسه .

لم أدر قبل ترنجـان مررت بـه ... ان الزمرد قضبـان وأوراق (٤٦)
من طيبه سرق الأتـرج نكهتـه ... يـا قوم حتى من الاشجـار سراق
يشارك الخمر في نفي الهمـوم اذا ... مـا شمه مؤثر بالهجر مشتـاق
كأنمـا الحاجب الميمـون غلمـه ... فعل الجميل فطابت منـه أعراق

والمتأمل في هذه المقطوعات يراها تجري على نسق شعر ابي تمـام والرمادي والجزيري من حيث ادماج الازهار في النسيج العام للقصيدة ، فتبدو وكأنها وشي يطرز به الشعراء ما يخلعونه على سادتهم من حلل المدح والثناء . وفي عصر ملوك الطوائف الذي يمثل العصر الذهبي للادب فـي الاندلس ، أقبل الشعراء على هذا الفن اقبالا شديدا . ولدينا قصائد كثيرة بعضها وشيت مطالعه بوصف الطبيعة ، وبعض بالخمر ، والثالث بهمـا جميعا ، ومن أمثلة الاول قول ابي حفص بن الشهيد يمدح المعتصم بـن صمادح من ملوك الطوائف (٤٧) :

سقى كل غيث صادق البرق وابل ... منابت نوار الربـى والخمائـل
فروى غصونا كالقـدود تطلعت ... من اوراقها في مثل خضر الغلائـل
خليليّ عوجابـي على الربع دارسا ... نحيي رياضـا أحدقت بجـداول
ملاعب كاسـات ونزهـة أعين ... ومسلـى لمشتاق وذكرى لغافـل
وأحسن مـن روض تحلّى بنـوره ... محيا ابن معن في حلي الفضائـل
جواد كأن الارض جمعاء راحـة ... له وبحور الارض خمس انامـل

وينبغي ان يلاحظ الدارس ما في البيت الثاني من مزج بين صـور الطبيعة والانسان ، يتفق مع ما ذكرناه في غير هذا المكان من ان الطبيعـة حلت عندهم محل المرأة ، والاشارة الى الربع الدارس في البيت الثالث يؤكد هذا المعنى حيث اخذ يبكي ديار الازهار كما كان العرب فيما سبق يبكـون ديار الأحبة (٤٨) ومن الثاني قوله في ابن صمادح ايضا :

---

٤٦ ـ نفسه .

٤٧ ـ الذخيرة القسم الاول المجلد الثاني ص ٩٦ .

٤٨ ـ وقد صرح الصنوبري من شعراء الشام بأن الرياض صرفته عن الاطلال ـ الطبيعة للدكتور نوفل ص ٢١١ .

فشربتها كلف الفؤاد عميـــــدا   راحـــا وكانت مـرة عنقـودا (٤٩)
ختمت بطينتها وزمـزم حولهـــا   قس وغادر بابهـــا مســـدودا
وتنوسيت فكـــأن صف دنانهـــا   في الحان اصحاب الرقيم رقـودا
وكأنما الخمـــار كلبهـــم وقد   القـــى ذراعيه وسد وصيـــدا
فاذا شممت فمسكـــة مفتوقـــة   واذا لحظت فبارقـــا معقـــودا
واذا طعمت فريـــق اشنب واضح   شـــف الشوق تجنبـــا وصـدودا
حذيت على خلق ابن معن فاغتـدت   أمـــلا وكنـزا للسرور عتيـــدا

ومن الثالث قصيدة لابي عامر بن شهيد ارسل بها الى المؤتمن عبد العزيز ابن ابي عامر وفيها يقول عن المطر واثره في الرياض (٥٠) ويصل ذلك بالخمر ومجالسها :

امـــا الريـــاح بجو عاصـــم   فحلبن أشطـــار الغمائـــم
سهـــر الحيـــا برياضهـــا   فأسالهـــا والنـــور نائـــم
حتـــى اغتدت زهراتهـــا   كالغيـــد باللـــج العوائـــم
مـــن ثيبـــات لـــم تبـــل   كشفت الخدود ولا المعاصـــم
وصغـــار أبكـــار شكت   خجـــلا فعـــاذت بالكمائـــم
ورد كما خجلـــت خـــدو   د العين مـــن لحظات هائـــم
بكـــر الحســـان يردنهـــا   مـــن كـل واضحة الملاغـــم
وضحكـــن عجبـــا فالتقت   فيهـــا المباســـم بالمباســـم
وكأننـــي فيهـــم لقيـــ   ط قادمـــن أحيـــاء دارم
وتكاوست فيهـــا الأبـــا   رق وهـــي فاهقة الحلاقـــم
فكأننـــا فيهـــا العفارت   والكؤوس مـــن الرواجـــم

---

٤٩ ـ الذخيرة القسم الاول المجلد الثاني ص ١٩٩ .

٥٠ ـ أرسلها اليه ضمن رسالة طويلة يستجديه ضيعة . والمؤتمن من احفاد المنصور مؤسس دولة بني عامر بالاندلس في النصف الثاني من القرن الهجري الرابع . ولما زالت دولتهم في اواخر ذلك القرن ظل موالي آبائه وأتباعهم متربصين حتى اذا سقطت الدولة الاموية في صدر القرن الخامس الهجري وانقسمت الاندلس الى دويلات يحكمها امـراء يسمون بملوك الطوائف أمر هؤلاء المولي المؤتمن المذكور عليهم في بلنسيـة بشرق الاندلس وأقام لنفسه ملكا هناك . الذخيرة القسم الاول المجلد الاول ص ١٦٩ .

واغـــن مـــن سدن الملـــو ... ك سليـــل أقيـــال خضـــارم
يشكـــو الرّعـــات تنعمـــا ... ويضـــج مـــن حمل التمائـــم
لا تستحيـــه الراشفـــا ... ت ولا تباليـــه اللوائـــم
لازمت بـــاب محلـــه ... والنجـــح من قنص الملازم
وبعيـــدة الأرجـــاء نا ... زحـــة على أيـــدي الرواسم
مـــن فتنـــة قـــد أسبلت ... ظلماتهـــا بيـــد المظالـــم
فكأننـــا عمـــي نســـا ... ق على العمـــى في ظل عاتـــم
حتى انتضـــى عبـــد العزيـــ ... ز عزيمة مـــن صـــدر عـــازم
فبـــدت لنـــا سبـــل الهدى ... بنواجـــم غـــير الهواجـــم
ضرب الاعاجـــم سودهـــا ... بالسد مـــن بيـــض الاعاجـــم

وقد عز على اهل المجون الا يستغلوا بضاعتهم في التمهيد لمدائحهم ، مع ان المجون جدير بأن يبعث السرور والانتعاش في نفس الممدوح ، فيزيد في عطاء الشاعر ، ويبالغ في اكرامه . وابو الشمقمق من أسبق الشعراء الى هذا النوع من المقدمات . وقد روى له ابن المعتز في طبقاته قصيدة خفيفة الظل يمدح فيها هرون الرشيد ويقول في اولها :

عاد الشمقمق فـــي الخسارة ... وصبا وحن الـــى زرارة (٥١)

ويقول في ثناياها :

ان العيـــال تركتهـــم ... بالمصرا كلهـــم العصـــارة
وشرابهـــم بـــول الحمـــا ... ر مزاجـــه بـــول الحمـــارة

وحينما استفحل المجون في الشعر ، وكلف الناس به ، واشتد اقبال الرؤساء عليه ، وعظمت عطاياهم لاصحابه في القرن الرابع للهجرة ــ حين ذاك طالت المقدمات الماجنة حتى كادت تطغي على الغرض الاول وهو المدح . ومن ذلك قصيدة ابي حامد الانطاكي التي يقول فيها :

ولقد دخلت علـــى الصديـــ ... ق البيت في اليوم المطـــير (٥٢)
متبختـــرا متشمـــرا ... للصفـــع بالدلـــو الكبـــير
فـــأدرت حين تبـــادروا ... دلـــوي فكـــان عمـــي المدير
يـــا للرجـــال تصافعـــوا ... فالصفـــع مفتـــاح السرور

---

٥١ ــ ص .

لا تغفلـــــوه فانـــــــه يستـــــل أحقـــاد الصـــدور
هـــو فـــي المجالس كالبخـــو ر فـلا تملوا مـــن بخـــور
ولأذكـــــرن اذا ذكـــــر ت أحبتـــي وقت السحـــور
ولأحزنـــــن لانهـــــم لمـــا دنـا نضـــج القـــدور
رحلـوا وقــــد خبزوا الفطيـ ر ففاتهـــم أكـل الفطـــير
لا والـــذي نطـــق النبي يُ بفضله يـــوم الغديـــر
مـــا للامام ابـــي علـــي يٍ في البرية مـــن نظـــير

وواضح ان الممدوح لم يحظ من القصيدة الا بالبيتين الاخيرين ، وان كان في الحقيقة قد فاز بها جمعاء حيث استمتع بما فيها من فكاهـــة ومجـــون .

---

٥٢ ــ يتيمة الدهر جا ص ٢٨٤ .

الفصل الثاني

اغراض الشعر ومدى ما أصابها من تطور

أخذت اغراض الشعر نصيبها الموفور من تلك الثورة العامة التي اصابت الحياة والادب في ذلك العصر . فظهرت أغراض لم يعرف عنها الشعر شيئا من قبل ولم ينظم شيء منه فيها كالغزل بالمذكر وكذلك الشعر المسمى بشعر الزهد وتوسع الشعراء في أغراض لم يكونوا يخوضون فيها من قبل الا قليلا كالخمر والمجون والطبيعة . وتضاءلت بعض الاغراض ، وتقلص ظلها كالغزل العذري لضعف دواعيه واليك الان عرض لكل من هذه الاغراض .

الغزل بالمذكر :

بدأ هذا النوع المنحرف من الغزل في شعر ابي نواس خلال النصف الاخير من القرن الثاني للهجرة . ومنذ ذلك الحين والشعراء يخوضون فيه دون تحرج او مبالاة ولن نشغل انفسنا بما شغل به بعض مؤرخي الادب انفسهم من البحث عن مصدر تلك العدوى الجنسية . وهل نزحت الى العرب من الفرس او غير الفرس لان معظم هذه الآراء من باب الرجم بالغيب.

ومهما يكن من امر فالناحية الجنسية لا تفيدنا في قليل ولا كثير ، وكل ما يعنينا هو مجاهرة ابي نواس بها ، وترديده لها في شعره ، مع انه كان في وسعه ان ينغمس في حمأتها ما شاء له شيطانه وانحلاله ، وان يستر بعد ذلك عيوبه كما هي العادة بين المبتلين بهذا الامر من الناس .

وهذا الشذوذ المزدوج يمكن تفسيره بأحد الامور التالية او بها جميعا:

الاول : ان ابا نواس كان مجنيا عليه ، اعتدى عليه في طفولته والبة ابن الحباب (١) كما تروي بعض كتب الادب او غير والبة ، فظل بعدها مكبوتا شاعرا بالهوان والمذلة . ومثل هذا النوع من الشواذ يجد عزاء ولذة كبيرة في الظهور بمظهر الفحول الذين يستبيحون حمى غيرهم من الضعفاء والمهازيل ، وكثيرا ما يتظاهرون بأنهم اصحاب اليد العليا في هذه القضية الخاسرة من طرفيها ، ويسرفون في تعداد أسماء ضحاياهم ومعشوقيهم من الغلمان ، حتى يغيروا رأي الناس فيهم . وقد نجح ابو نواس من هذه الناحية نجاحا كبيرا ، فقد نسي عنه كل شيء الا انه كان ماجنا خليعا يهوى الغلمان ويطاردهم ويتغزل فيهم ، وأي شيء كان يتمناه غير ذلك ؟.

والثاني : انه كان يهوى الغلمان حقا وينال منهم ، ومجاهرته اذن تكون مجرد تحد منه للمجتمع او بعبارة ادق فرار من وخز الضمير . فالخارجون على المجتمع من الشواذ يشعرون بآلام شديدة ، ويتوجسون خيفة من كل نظرة او ملاحظة يوجهها الناس اليهم ، فاذا كان لدى بعضهم الجرأة او التوقح الكافي آثر ان يجهر بما يرتكبه ويدافع عن مشروعيته ، ويتحدى الناس به وبذلك يصبح مهاجِما بعد ان كان مهاجَما ، ويتخلص نهائيا من الهواجس وآلام التخفي والتستر .

وأمر ثالث يمكن ضمه الى ما سبق في تعليل تلك الظاهرة المنكرة ، ونعني به تملق ابي نواس للأمين وتحببه اليه ، فقد كان الامين متهما ، وقصصه مع كوثر وغير كوثر من غلمان القصر معروفة (٢) ويقال ان والدته زبيدة حين رأت كلفه بهم زودت قصره بالجواري وقد ألبستهن زي الغلمان ، عسى ان تصرفه عن هؤلاء الى اولئك .

أليس من حقنا بعد هذا ان ندعي ان ابا نواس كان بغزله هذا يحاول ان يروج لمذهب الخليفة المنحرف ، وأن يهون عليه وعلى الناس من امر ذلك

---

١ ـ الاغاني ج ١٦ ص ١٤٣ ، ص ١٤٥ وأخبار ابي نواس لابن منظور ص ١٠ ـ ١٢ .

٢ ـ الطبري ج١٠ ـ ص ٢١٥ (المطبعة الحسينية) .

الشذوذ ، معتذرا عنه بأن سحر هؤلاء الغلمان وفتنتهم اقوى من ان تقاوم. اليس هذا هو ما يمكن ان نفهمه من مثل قوله (٣) :

امــــا واللـــــه لا اشرا   حلفت بــــه ولا بطـــــرا
لــو ان مرقشا حــــــي   تعلـــق قلبــــه ذكـــــرا
كـــأن ثيابــــه أطلع   ن مـــــن أزراره قمـــــرا

اما عناصر ذلك الغزل فتختلف بعض الشيء عن الغزل بالمؤنث من حيث ان معظمه يدور حول اعجاب الشاعر وافتتانه بالغلمان مع وصف مواضع خاصة من أبدانهم وصفا ينم عما وراءه من رغبات وضيعة . ويكاد الغزل بالمذكر يكون نهجا وسطا بين الغزلين الحسي والعذري ، بمعنى انه لا يعف عن ذكر الاوصاف الحسية ، ويدور حول العواطف دوران العذري ، كما انه لا يتورط في ذكر المغامرات مفصلا فيها تفصيل الحسي الفاجر . وربما كان من الخير ان نذكر عدة نماذج تتحدث بنفسها عن خواص ذلك الغزل . قال في غلام :

يا ايهـــــا الريم الذي صادنـــي   بمقلة فـــي اللحظ حـــوراء (٤)
وحاجب كالنـــــون قـــد نمقت   فوق حجــاج العين زجــــــاء
الا بريـــــــق منــك معسولــة   تشفـــي مرارتـــــي وأدوائـــي
انـــــي غــدا مـــن حبكم ميت   كعـــروة مـــــن حب عفـــــراء

ويقول في اخر :

قضيب حين يقبل فـــي اعتدال   فـــان ولى فسائـــره كئيب (٥)

وقال في ثالث :

فديت من تم فيه الظرف والادب   ومن يتيه اذا ما مسه الطرب (٦)
وردفـــه في قضيب فوقه قمـــــر   من نور خديه ماء الحسن ينسكب

---

٣ ــ مثل هذا التوجيه لا يمكن قبوله الا في ضوء ظاهرة تكاد تكون عامة وهي ان الشعر يجمع أقسامه تقريبا حتى ما يسمى منه بشعر الزهد كما ستعرف بعد قليل كان مسخرا لخدمة الحكام ، او بعبارة اخرى كان يباع ويشترى بالمال .

٤ ــ ديوانه ص ٤٠٣ .

٥ ــ ديوانه ص ٤٠٨ .

٦ ــ ديوانه ص ٤١٠ .

كم ساعة منك خطتها ملائكـــة ازهو على الناس بالذنب الذي كتبوا

ويظهر ان اهم ما كان يفتنه من الغلمان اهتزاز أعوادهم ونضارتها كما هو ظاهر من الامثلة السابقة ومن قوله ايضا في غلام :

تفـــرد بالجمال وقال هـــذا مـــن الدنيا ولذتها نصيبي (٧)
بـراه الله حين بـــرى هـلالا وخفف عنـــه منقطع القضيب
فيهتز الهـــلال علـى قضيب ويهتز القضيب علـــى كثيب

وان دل مثل هذا على شيء فانما يدل على تمكن الشر من نفسه واستيلاء الشيطان على معظمه .

شعر الزهد او التزاهد :

كان ابو العلاء المعري يقول كلما هم بإنشاد شيء لابي العتاهية : « قال الداهية ابو العتاهية» ونحن لا يسعنا بعد الدراسة الطويلة لشعره الا ان نسلم براي ابي العلاء فيه فقد استطاع ان يضلل الباحثين والنقاد ما يقرب من اثني عشر قرنا . ولا يزال شعره في مدارسنا الثانوية بل وجامعاتنـــا يدرس على انه منبعث عن زهد او ما يشبه الزهد مع انه أبعد الاشياء عن ذلك . حقيقة يتحدث ابو العتاهية عن الموت وما يؤدي اليه من خـــراب القصور ، وتفرق الخدم والجنود ، ويتحدث عن تفاهة الدنيا ، ويدعو الى الزهد فيها ، وفي ملذاتها وشهواتها ، وربما تحدث عن الجنة والنار ، وعن القناعة والرضا بالقليل والجود والكرم ، وربما نهى عن الحرص والبخل والشره ، ولكنه رغم ذلك ليس من الزهاد في قليل ولا كثير ، فحياتـــه الخاصة وتشبثه الشديد بالمال الى اخر لحظة من حياته تشككنا في كل ما قاله ، فأي انسان اذن كان هذا الداهية ، وفيم نظمت كل تلك الاشعار ؟

ان المنابع التي تفجر منها ذلك الشعر ، والدوافع التي اعانت عليه يمكن ردها الى أصول ثلاثة :

اولها : حقد مركز على اولي الجاه والسلطان وجميع الطبقات الممتازة في المجتمع لترفعها عليه بسبب اتضاعه الشديد عنها حيث كان لوالديـن تافهين وما الموت في نظره الا الطريق الوحيد لازالة ما بين الناس من فوارق

---

٧ ـ ديوانه ص ٤١٢ .

وإلغاء ما للسادة من امتيازات . وخير ما يمثل ذلك قوله :

نصيبك مما صرت : دائبـــا فثوبان من قبطية وحنـوط (٨)
كأنك قد جهزت تهدي الى البلي لنفسك في أيدي الرجال أطيط
وصرت الى دار هي الدار لا التي أقمت بها حيا وأنت نشيـــط
محل به الأقدام ويحك تستوي وصيد كرام سادة ونبيـــط

وكأنه بتحقير الدنيا ، والتهوين من شأنها ، وسرعة زوال نعيمها ، يريد ان يلفت نظر المتغطرسين من ذوي الجاه الى ان ما أوتوا من متاع الدنيا ليس بذي خطر عظيم ، ومع ذلك فهو سريع الزوال ، وشيك الفناء ، كما ترى في مثل قوله :

لدوا للموت وابنـــوا للخراب فكلكـــم يصير الى تبـــاب (٩)
لمن نبنـــي ونحـــن الى تراب نصير كما خلقنا مـــن تـــراب
الا يـــا موت لم أر منك بـدا اتيت ومـــا تحيف وما تحابـي

ثانيها : اتفاقية سرية بين الشاعر من جهة والفضل بن الربيع مـــع زبيدة زوج الرشيد من جهة اخرى (١٠) وغاية هذه الاتفاقية ان يطلق العنان لعواطف السخط والكراهية التي يحملها بين جنبيه لذوي الجاه والسلطان، ومن بينهم الرشيد نفسه (١١) وتلك النقمة التي تعتلج في صدره على زينة الدنيـــا وملاهيها ، حتـــى يقيم الدنيـــا ويقعدهـــا ضـــد مجالس الانس والطـــرب التي تجمـــع الرشيد بالجواري منافسات زبيدة فـــي قلب الخليفة مـــن جهة ، وبجعفر البرمكي عـــدو الفضـــل ابن الربيع ونديم هرون على الشراب من جهة اخرى ، وهذا هو سر ثورته على المتع والشهوات ومجالس الغناء واللهو ، تلك الثورة التي اوحت اليه

---

٨ ــ ديوانه ص ١٤١ .

٩ ــ ديوانه ص ٢٣ .

١٠ ــ يؤيد هذا أبيات أرسلها الشاعر الى الفضل بن الربيع عند غضب الرشيد عليه وفيها يقول مذكرا الفضل بتلك الاتفاقية :

أجفوتنـــي فيمـــن جفانـــي وجعلت شأنـــك غير شأنـــي
ولطالمـــا أمنتنـــــي مما ارى كـــل الامـــان
حتـــى اذا جـــار الزمـــا ن علـــي صرت مـــع الزمـــان

الاغاني ج٣ ــ ص ١٣٦ .

١١ ــ كان سبب ذلك تلكؤ الرشيد في اتمام ما وعد به من ترويج عتبة له .

بمثل قوله :

ايـــا من بين باطيـــــة ودنّ وعود في يدي غاو مغـــنّ (١٢)
اذا لـــم تنـــه نفسك عن هواها وتحســن صونهـــا فأليك عني
فان اللهـــو والملهـــى جنون ولست من الجنـــون وليس مني
واي قبـــح أقبح مـــن لبيب يرى متطربا فـــي مثـــل سني
اذا مـــا لم يتب كهـــل لشيب فليس بتائب مـــا عاش ظنـــي

وهذه الاتفاقية ايضا هي سر تلك القصائد والمقطوعات التي كانت تلقى للرشيد فتبكيه ، وتصدع قلبه . ومن أمثلة ذلك ما حكاه الاصمعي من انه دخل على الرشيد فوجده يبكي وبين يديه قصيدة من شعر ابي العتاهيـــة منها قوله :

هل انت معتبر بمـــن خربت منــــه غداة قضى دساكره (١٣)
وبمـــن خلت منـــه اسرتـــه وبمـــن خلت منـــه منابـــره
وبمن أذل الدهـــر مصرعـــه فتبرأت منـــــه عشائـــــره

لقد كانت زبيدة تريد ان تجعل من الرشيد رجلا عابدا ، زاهدا في كل شيء من الدنيا سواها ، وابو العتاهية وشعره وسيلتها الى ذلك ويظهر ان ما كانت زبيدة تلقي به من مال الى ابي العتاهية قد اغرى ابنه بأن ينسج على منواله ، فأرهص لذلك بلبس الصوف والاعتكاف في بيته استعدادا للظهور على المسرح (١٤) ولكن والده الخبير بما تحتاج اليه تلك المهنة مـــن مهارة ولباقة قد نصحه بالاستمرار في تجارته .

---

١٢ ــ ديوانه ص ٢٥٤ .

١٣ ــ ديوانه ص ١٢٣ .

١٤ ــ زهر الادب جـ٢ ــ ص ٢٢٥ وانظر الى هذه المحاورة بين ابي العتاهية وولده كما يرويها الحصري : «دخل ابو العتاهية على ابنه وقد تصوف . فقال : ألم اكن قد نهيتك عن هذا ؟ فقال وما عليك ان أتعود الخير ، فقال : يا بني يحتاج المتصوف الى رقة حـــال وحلاوة شمائل ولطافة معنى ، وأنت ثقيل الظل ، مظلم الهواء ، راكد النســيم جامد العينين فأقبل على سوقك فانها أعود عليك : وكان بزازا» .

ونحن لا نرى ضرورة الى كل هذه الشمائل الحلوة لو كان التصوف خالصا لوجه الله تعالى .

ومن عجب ان مؤرخي الادب يعتقدون ان ابا نواس قد قال ما قاله في الزهد مخلصا وعللوا ذلك بأن النفوس مهما كانت شريرة يعتريها احيانا ميل نحو التوبة ، وندم على المعصية . والحق ان ابا نواس لم يؤمن بشيء من ذلك ولم يفكر فيه واكبر الظن انه اراد ان يشارك ابا العتاهية في مال زبيدة كما تدل عليه القصة التالية (١٥) التي يرويها ابن منظور عن ابي مخلد الطائي وفيها يقول «قال لي ابو العتاهية ان ابا نواس لا يخالفك ، وقد احببت ان تسأله الا يقول في الزهد شيئا ، فاني قد تركت له المديح والهجاء والخمر الرقيق ، وما فيه الشعراء ، وللزهد شوقي . فبعثت الى ابي نواس، فجاء الي وأخذنا في شأننا ، ثم قلت له : ان أبا اسحق من قد عرفت في جلاله وتقدمه . وقد أحب الا تقول في الزهد شيئا . فوجم عند ذلك وقال: يا ابا مخلد قطعت علي ما كنت احب ان ابلغه من هذا . ولا أخالف ابا اسحق فيما رغب اليه» .

وعبارة الروي واضحة في ان هناك نوعا من الاحتكار فرضه ابو العتاهية على شعر الزهد ولا بد ان يكون وراء هذا الاحتكار مصالح مادية . فلو كان خالصا لله واليوم الاخر ، لما ضاره ان يشركه فيه اهل السموات والارض لان خزائن الله تعالى لا تنفد ، ولكن خزائن زبيدة محدودة ولا ينبغي ان ينعم بها احد سواه . وفي المدح بعد ذلك مرتزق واسع لابي نواس يغنيه عن هذا الباب الذي افتتحه ابو العتاهية ، والطريق الذي مهده لنفسه .

وثالثها : شعور سكن اليه الشاعر ، وفكرة استراح اليها ، وتلك ان ينصب من نفسه واعظا ، ينطق باسم الدين ، ويتحدث بلسان الرسول ، فيقابل بتصفيق العامة واحترامهم ، ومثل ذلك ينسيه او يقلل على الاقل مما يعانيه من آلام الشعور بالضعة والتفاهة والى هذا الدافع يمكن ان يرد كثير من شعره الذي يدور حول الجنة والنار والزهد في الدنيا وفي المال حين يلقي في عبارة هادئة شبيهة بعبارة الوعاظ والمرشدين ومن ذلك قوله :

من سالم الناس سلم   من شاتم الناس شتم (١٦)
من ظلم الناس اسى   من رحم الناس رحم
من طلب الفضل الى   غير ذوي الفضل حرم

وقوله :

---

١٥ ـ أخبار ابي نواس لابن منظور ص ٧٠ .

١٦ ـ ديوان ص ٢٤٢ .

يـــا عجبا للناس لـــو فكروا   وحاسبوا انفسهم ابصروا (١٧)
وعبروا الدنيـــا الى غيرهـــا   فانما الدنيـــا لهـــم معبر
الخير مـــا ليس يخفـــي هو م   المعروف والشر هـــو المنكـــر
لا فخر الا فخر اهـــل التقـــى   غـــدا اذا ضمهـــم المحشر

وقبل ان نختم حديثنا عن ابي العتاهية هنا نحب ان نلفت النظر الى انه كان من أشد الناس تأثرا بالقرآن ومحاكاة له . ولا غرابة في هذا مـــا دامت اهدافه الظاهرية على الاقل تتفق مع اهداف القرآن . بل حاول ايضا ان يكون أسلوبه وعباراته شبيهين بأسلوب القرآن ما وجد الى ذلك سبيلا فقد روي انه قال يوما «قرات امس سورة النبأ ، ثم قلت قصيدة خـــيرا منها» (١٨) ولا يزعجنا ما في مثل هذه العبارة من صفاقة ، وكل الذي يشغل اذهاننا الان هو انها تدل على انه كان يحاكي القرآن عن قصد . ولعله كان يشير اذ ذاك الى قصيدته التي يقول في اولها :

أذل الحرص والطمع الرقابـــا   وقد يعفو الكريم اذا استرابا

وانما ذهبنا الى ذلك لان رويها يذكرنا بسورة النبأ .
وما نظن الا انه كان يحاول ان يحاكي سورة الناس حين قال :

خذ الناس أودع انما الناس بالناس   ولا بد فـــي الدنيا من الناس للناس

وكأنه بذلك يحاول ان يثبت قدرته على تكرار كلمة الناس خمس مرات في بيت واحد ، كما كررت مثل هذا العدد في سورة قصيرة . هذا عدا اقتباسه الكثير من القرآن .

ولعل جراة ابي العتاهية على قوله السابق تعود الى ما كان من شيوع روح التمرد الديني بين أمثاله من الادباء ، مع زوال تلك الرهبة التي كانت تحيط بالقرآن على أثر المباحث التي أثارها علماء الكلام حوله ؛ حين بحثوه من ناحية الحدوث والقدم وتساءلوا عن اعجازه ، وعما اذا كان يرجع الى اسلوبه ، ام الى صرف الله الناس عن ان يأتوا بمثله .

---

١٧ ــ ديوان ص ١٠١ .
١٨ ــ الاغاني ج ٣ ــ ص ١٢٧ .

الخمر والمجون :

يظهر ان ابا نواس كان يعاني آلاما مرة تنطق بها الابيات التالية :

وما يعرف الليل الطويـــل وغمه ... من الناس الا من تنجـــم او انا (١٩)
خليون من اوجاعنـــا يعذلوننـــا ... يقولون : لم تهوون ؟ قلنا : لذنبنـا
يقومون في الاقوام يحكمون فعلنـا ... سفاهـــة أحلام وسخرية بنـــا
فلو شاء ربي لابتلاهـــم بما بـــه ابـ ... تلانا فكانـــوا لا علينا ولا لنـــا

فان فيها شكوى صارخة مكبوتة غلبت أبا نواس الماجن ، المغالط لنفسه وللناس حين يخدعها ويخدعهم عن حقيقة امرها ؛ فظهرت هنا في مطلع احدى مدائحه مختلطة بالغزل . وهذه الآلام والعواطف المكبوتة الشعوري منهـا واللاشعوري ، هي التي كانت تدفع بالشاعر الى الخمر يعب منها ويغرق في لجتها أوصابه وأسقامه ، اما منشأ هذه الآلام فربما كان من الصعب التعرف عليه ، سوى ان شذوذه الجنسي لا بد وأن يكون له صلـــة بتلك الآلام .

والقارىء لأشعار ابي نواس في الخمر يوقن بأن تعاطيها كان يهيىء الجو الملائم لظروفه الشخصية تمام الملاءمة ، فانه فضلا عن السلوى والنسيان والنشوة التي يشعر بها شاربها ، تجمعه بسقاتها من الغلمان ، وهناك يتقلب في أعطاف الرذيلة ما اتسع له الوقت والمال والابيات التالية تمثل بعـــض اهدافه من الذهاب الى الحانات :

وأحـــور ذمـــي طرقت فنـــاءه ... بفتيان صدق ما ترى منهم نكرا (٢٠)
فأطلـــق عن ابوابـــه غير هائب ... واطلع من أزراره قمـــرا بـــدرا
ومـــر امام القوم يسحب ذيلـــه ... يجاذب منه الردف فيمشيه الخصرا
فقلت له ما الاسم حييت قال لـــي ... دعانـــي ابي سابا ولقبني شمـــرا
فكدنا جميعا مـــن حلاوة لفظـــه ... نجن ولـــم نسطع لمنطقـــه صبرا
وجاء بهـــا والليل ملـــق سدوله ... مـــدلا بأن وافـــى محيطـــا بها خبرا
فما زال يسقينا ويشرب دائبـــا ... الى ان تغنى حين مالت به سكـــرا
فيا حسنه لحنا بدا مـــن لسانـــه ... ويا حسنه لحظا ويا حسنه ثغـــرا

---

١٩ ــ ديوان ص ٧٥ .

٢٠ ــ ديوان ص ٢٨٦ .

فقمنا اليـــه حين نام وأرعـــدت فرائصه تجري بميدانـــه ضمرا
فلما راى ان ليس عن ذاك مخـلص ووافقـــه لين أجـــاد لنا العصرا

ويظهر ان ابا نواس كان من انصار المتعة الحسية فانا نراه حتى فـي مدحه يعلن عن تلك الظاهرة عنده دون ان يشعر ؛ كما في قوله يمـــدح الرشيد :

ملـــك تطيب طباعه ومزاجـــه عذب المذاق على فـــم المتـذوق

وقد عرفنا فيما سبق ان الخمر احتلت عند ابي نواس كثيرا من مطالع مدائحه ومع ذلك فقد وقف عليها قصائد ومقطوعات رائعة من شعره . ولا نجد تعليلا لمثل ذلك الهذيان سوى ما اشار هو اليه حين قال :

الا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا اذا أمكن الجهر (٢١)

ونعني بذلك ان شدة تعلقه بها تجعله حريصا على ان يعيش معها دائما ان لم يكن شاربا كارعا فلاهجا بذكرها مسبحا بحمدها .
والخمر كل شيء في حياة ابي نواس ولا يزحمها في ذلك ســـــوى الغلمان . فاذا حج فليس الى كعبة المسلمين حجه ولا حولها طوافه ولكن الى حانتها يسعى ، وأمام معبدها يصلي .

حـــج مثلي زيـــارة الخمار واقتنائي العقار شرب العقاد (٢٢)

والقارىء لأشعاره فيها يعجب لكثرة ما أورده فيها من معان وما ألحقه بها من اوصاف فقد أسرف في وصف سقاتها وادواتها ولونها وما يعلوها من حباب وأثرها في الشارب الى غير ذلك من امور لا يصعب الوقوف عليها، ولذا نرى الا نضيع الوقت في الحديث عنها بالتفصيل ، ولكن شيئا واحدا يجب ان نلفت الانظار اليه وذلك عرضه لها في صورة العروس في كثير من الاحيان وجعل ذهابه لشربها كذهاب الخطيب الى خطيبته وذلك حين يقول:

لمـــا اتيت الدهقـــان اخطبها مـــن بين أصهارها واحماها (٢٣)
قال مـــن الخاطبون قلت لـــه فتيان صـــدق فقال أكفاهـــا

---

٢١ ـ ديوان ص ٢٧٣ .
٢٢ ـ ديوان ص ٣٥٥ .
٢٣ ـ ديوان ص ٢٤١ .

حتى اذا حطها وانزلها ... وفك عنها الختام فداها

أيكون في مثل هذا الحديث عن الخطبة وفض الختام تعويض شعوري او لاشعوري عن حرمانه من الزواج الرسمي بتقاليده المختلفة من خطبة وصداق وما اليها .

واذا كان ابو نواس إماما في الخمر والغزل بالمذكر امامة تجعل الحديث عنه حديثا عنهما (٢٤) . فانه قد تخلف في المجون تخلفا شديدا ، رغم ادعائه او طموحه الى السبق فيه . ولعل السبب في ذلك انه كان يمزج مجونه بالغزل المنحرف ، وذلك وان خف على أسماع بعض الناس ، فانه ثقيل بغيض الى الطبائع السليمة . وان شئت فاستمع اليه يتماجن متحدثا عن غلام .

وغزال زان بالقا ... مة ردفا بربريا (٢٥)
قاده ابليس طوعا ... بعد ماكان عصيا
فسقيناه على الور ... د شرابا ذهبيا
فكشفنا على بياض الرد ... ف ثوبا قصبيا
فوجدنا خلفه دعصا ... من الثلج نقيا
فركبناه بلا سر ... ج ركوبا مرزويا
وحمدنا السير لما ... ان وجدناه وطيا

هل رايت كلاما أسمج من هذا ؟ ان كل ما يمكن ان يعتذر به عن مثل هذا المجون انه لم يقل للجمهور ولكن لطائفة خاصة ، هي طائفة الرقعاء من امثال ابي نواس .

اما المجون الذي يضحك ولا يؤذي فيمكن ان نلتمسه عند شعراء الاجيال اللاحقة من أمثال ابي الحسن محمد بن عبد الله بن سكرة الهاشمي،
الاجيال اللاحقة من امثال ابي الحسن محمد بن عبد الله بن سكرة الهاشمي،
محمد الانطاكي بالشام ، وأبي عبد الله محمد بن مسعود بالاندلس (٢٦) . وترجع خفته على القلوب والاسماع الى بعده عن الموضوعات المخجلة التي ظهرت عند ابي نواس ، ويهدف اصحابه الى اضحاك انفسهم والناس حتى

---

٢٤ ــ وقد حاكاه فيهما كثير من الشعراء ولعل أقربهم منه عبد الله بن العباسي .

٢٥ ــ ص ٣٥٤ .

٢٦ ــ اقرأ للثعالبي في يتيمة الدهر للثلاثة الاول ، ولابن بسام في الذخيرة للرابع .

او كان ذلك على حساب وقارهم وسمعتهم .

والاطعمة والاشربة من اهم الموضوعات التي خاض فيها اهل المجون(٢٧) ولا نجد تعليلا لذلك الا ما نعتقده من ان المجون نوع من الشذوذ ، يلجأ اليه مرضى الاعصاب واشباههم من كل منغص في حياته للتنفيس عن اعصابهم المتعبة ونفوسهم المحزونة . ولما كان الطعام عند بعض الناس وسيلة سهلة وقريبة لتخدير الاعصاب وتهدئة النفس ، فقد أكثروا من الخوض فيه.

اما السبب في كثرة اهله وارتفاع اصواتهم اذ ذاك فيرجع الى عوامل شخصية كتلك التي اشرنا اليها ، وعوامل اجتماعية وسياسية ، اهمها ميل المجتمع العربي المغلوب على امره الى اللهو والمرح شأن المجتمعات المتحضرة المنحلة ، الجادة في البحث عن سعادتها او راحتها النفسية والروحية بأي ثمن وبأية وسيلة .

واذا كان هذا الميل الى اللهو والمرح قد ترك صداه عند الرومان في المصارعة ونحوها من ألوان العبث ووجد اليوم متنفسا فيما شاع بيننا من تمثيل هزلي ، فانه اثناء تلك العصور قد وجد في الشعر العربي أيسر اداة تحقيق اهدافه . واكبر الظن ان كثيرا من أشعار المجون كانت تنظم وتنشد بقصد اضحاك الرؤساء والافراد ونيل جوائزهم (٢٨) وقد روى لنا التاريخ أسماء بعض الخلفاء الذين اتخذوا المضحكين من الشعراء لتسليتهم ، وأحاديث ابي دلامة مع خلفاء بني العباس مشهورة ، ولهم مع امثاله امثالها، فليرجع اليها من شاء في كتب الادب والتاريخ ، وفي مروج الذهب طرف صالح منها .

وربما انتهز بعض السادة من الوزراء واشباههم احدى الفرص المواتية ليجعلوا من الشعر مادة فكاهة وتسلية . ومن ذلك ما اخبرنا به الثعالبي (٢٩) من ان الصاحب بن عباد اوعز الى الندماء المقيمين في حضرته ان يعزّوا أبا عيسى بن المنجم حين نفق برذون له كان الصاحب قد حمله عليه . وقد

---

٢٧ ــ ويليها الحديث عن الصفع والضرط ونحوه من الامور المضحكة . فاذا ما تعرضوا لذكر الفواحش بدا من حديثهم قصد الدعابة الذي يخفف من سماجتها كما ترى في هجاء الواساني لابن ابي أسامة . وقد ذكرناه في الفصل الخاص بالهجاء .

٢٨ ــ يؤيد ذلك ما رواه الثعالبي من ان ابن حجاج إمام اهل المجون في عصره كان مكرما من اهل الجاه والسلطان وكان طول عمره يتحكم على وزراء الوقت ورؤساء العصر تحكم الصبي على اهله» يتيمة الدهر ج ٣ ــ ص ٢٦ .

٢٩ ــ يتيمة الدهر ــ ج٣ ــ ص ١٩٤ .

ابى هذه الدعوة الكريمة عدد غير قليل من الشعراء . واليك عدة أبيات مما جادت به قريحة ابي القاسم بن ابي العلاء في تلك المناسبة ، والتهكم والمجون فيه غير خفي وفيه يقول :

بكته جلال (٣٠) الخز وانتحبت له مخالي حرير رحن منه عطولا
اقام عليه آل أعوج (٣١) مأتما وأعلى له آل الوجيه عويلا
ففي كل اصطبل أنين وزفرة تردد فيه بكرة وأصيلا
ولو وفّت الجرد الجياد حقوقه لما رجعت حتى الممات صهيلا
ولو انصفته الخيل ما ذقن بعده شعيرا ولا تبنا ومتن غليلا

وما زال هذا الفن يستشري ويستفحل ويزداد اعجاب الناس به ورضا الرؤساء عنه بل وإثابتهم عليه حتى رايناه يحتل مطالع القصائد عند المداحين من اهل المجون وقد ذكرنا نموذجا لذلك عند الحديث عن بناء القصيدة .

وينبغي ألا ننسى ان اضطراب الدولة ، واستبداد الاجانب من ترك وفرس واشباههم بشؤونها ، مع تطامن الحق وانكماشه ، واستعلاء الباطل واختياله قد ملأ صدور بعض الناس أسى ، ودفع آخرين الى السخرية من انفسهم ومن الزمن بتلك الحيلة البريئة المأمونة العواقب . واليك بعض امثلة لما قيل في تلك الفترة من مجون ونبدأ بأبيات قالها ابن حجاج وقد راى كلاب عز الدولة بختيار تطعم لحوم الجداء .

رايت كلاب مولانا وقوفا ورابضة على ظهر الطريق
فمن ورَد له ذنب طويل يعقّفه ومهلوب خلوقي
تغذي بالجدا فوددت اني وحق الله خركوش سلوقي
فيا مولاي رافقني بكلب لآكل كل يوم مع رفيقي
ارى القصاب قد اضحى عدوي لشؤم البخت والملح صديقي
جفاني اللحم وهو شقيق روحي فمن يعدي على ذاك الشقيق

اما ابو الرقعمق فيقول قصيدة يعجب فيها بنفسه وبأنه كان قوادا حاذقا :

---

٣٠ ـ الجلال : اكسية الدوب .

٣١ ـ أعوج فرس لبني هلال ينسب اليه جياد الخيل والوجيه من الخيل : الذي تخرج بيداه عند النتاج معا .

فأطيب العيش مـــا كان عنـدي   ايــــام للفســـق قلّدونـــي (٣٢)
وكنت طبـــا بـــه بصـــيرا   واقـــود الناس فــــي سكـــون
والناس يسعـــون نحـــو داري   مــــن كل ارض ويقصدونـــي

ومن اشعار ابن مسعود في هذا الباب :

جنبونـــا سجيـــة العشـــاق   ودعونا من الهوى والتلاقـــي (٣٣)
واقلوا مــن البكـاء علـى الرسم م   ولا تأسفونا غـــداة الفـــراق
ما بشخص الحبيب يفرح ذو العقل م   ولا بالخـــدود والاحـــداق
انما الملك ثـــردة مـــن بقايـــا   مـــن دجاج مسمّنات عتـــاق
واذا قيـــل لي بمـــن انت صب   وعلام انسكاب دمـــع المآقـــي
قلت : بالسكبـــاج والجمليـــا   ت ورخص الشوامعـا بالرقـــاق
وجشيش السميذ أعـــذب عندي   مـن رضاب الحبيب عند العنـاق

الطبيعـة :

عرف الجاهليون الطبيعة واحبوها واكثروا من القول فيها فوصفوا القفار والجبال ، كما وصفوا السيول والامطار وما ينبت عليها من أعشاب ونحوها وكان اكثرهم وصفا لها امرؤ القيس الذي وهب نفسه ووقف ملكته على متع الشباب المختلفة من غزل وخمر وصيد وخيل وتجوال بين أعطاف الطبيعة وتغنى بكل ذلك في شعره ، ولم يحطم قيثارته الا الموت ، وان تغيرت نغماتها بعد مقتل ابيه فصار فيها حزن مختلط بالجد . ولا تكاد تخلو قصائده الكبرى من ذكر الصيد والخيل والطبيعة وأبياتها في ختام معلقته من اجمل ما عرف في الشعر الجاهلي خاصا بوصف الطبيعة وقد اقتدى به ائمة مدرسة الصنعة في العصر الجاهلي من أمثال زهير وأوس ابن حجر . ولكن الطبيعة اخذت تتطور في العصر العباسي في نفس الاتجاه الذي تطورت اليه الحياة العامة والآداب .

فارتدت ثيابا انسانية لم يكن لها بها عهد في العهدين الاموي والجاهلي وقد رأينا صورة من ذلك في شعر ابي تمام وابن شهيد حيث شبهوها

٣٢ ـ يتيمة الدهر للثعالبي ج٣ ـ ص ٥٠ .

٣٣ ـ نفسه ج١ لا ص ٢٨٦ .

بالنساء ثيبات وأبكارا . ولكن اهل الاندلس كانوا اكثر نجاحا وتوفيقا في ذلك من شعراء الشرق . ومأثور اشعارهم في ذلك الباب ارق وابرع ، ويظهر ان شعورهم بالطبيعة وامتزاجهم بها كان اقوى واعمق . واليك أبياتا يتحدث فيها جعفر المصحفي حديثا لا تدري اهو عن سفر جلة كما يحدثنا هو ، ام امراة كما تحدثنا الابيات نفسها وطريقة نسجها .

ومصفرة تختال في ثوب نرجس ... وتعبق عن مسك زكي التنفس (٣٤)
لها ريح محبوب وقسوة قلبه ... ولون محب حلة السقم مكتسي
فصفرتها من صفرتي مستعارة ... وانفاسها من طيب انفاس مؤنسي
فلما استتمت في القضيب شبابها ... وحاكت لها الأنواء أبراد سندس
مددت يدي باللطف ابغي اقتطافها ... لأجعلها ريحانتي وسط مجلسي
وكان لها ثوب من الزغب اغبر ... يرف على جسم من التبر املس
فلما تعرت في يدي من لباسها ... ولم تبق الا في غلالة نرجس
ذكرت بها من لا ابوح بذكره ... فأذبلها في الكفّ حر تنفسي

واليك ابياتا اخرى للطليق المرواني تبين مدى ما كان من امتزاج بين انفسهم وبين الطبيعة من جهة ، وتشابه بينها وبين المراة من جهة اخرى (٣٥) .

ودّعت من اهوى اصيلا ليتني ... ذقت الحمام ولا اذوق نواه
فوجدت حتى الشمس تشكو وجده ... والورق تندب شجوها بهواه
وعلى الأصائل رقة من بعده ... فكأنها تلقي الذي القاه
وغدا النسيم مبلغا ما بيننا ... فلذاك رق هوا وطاب شذاه
ما الروض قد مزجت به أنداؤه ... سحرا بأطيب من شذى ذكراه
الزهر مبسمه ونكهته الصبا ... والورد أخضله الندى خداه
فلذاك اولع بالرياض لانها ... ابدا تذكرني بمن اهواه

وهذا الشبه الذي تصوروه بين الطبيعة والمراة وتلك العواطف المتبادلة بينهم وبين الطبيعة هو الذي مهد لظهور الطبيعة في المطالع كما ذكرنا في غير هذا المكان .

---

٣٤ ـ الشعر الاندلسي (غرسيه غوس) ص ٩٠ الحلة ص ١٤٤ .
٣٥ ـ نيكل ص ٣٧ .

وليس هنا من تعليل لاختلاف مذهب القدامى عن المحدثين من حيث وقوف الاوائل عند حدود الصورة الظاهرية للطبيعة ، والربط بينها وبين العواطف الانسانية عند الاواخر سوى ما قدمناه من ميل الجاهليين الى التصوير (٣٦) . ونضيف اليه اليوم خضوع الطبيعة في بوتقة العقلية الحديثة لما خضعت له معظم مظاهر الحياة نتيجة للعلم والحضارة ، الذي يميل الى تعمق الاشياء ، والربط بين بعضها البعض ، وتعليل ما لم يكن بحتاج منها الى تعليل عند القدامى الى غير ذلك من آثار تقدم العلوم والفنون . فقد رأى الاوائل ثمار الفواكه التي كانوا يعيشون عليها تسقط دائما الى الارض وحدها ، ولكن احدا منهم لم يفكر يوما من الايام في سبب سقوطها نحو الارض ، حتى وقف منها احد أقطاب العلم الحديث موقف الناقد البصير ، وربط بينها وبين جاذبية الارض . ومثل ذلك يمكن ان يقال في الادب والشعر فقد مر شعراء العصرين الجاهلي والاموي آلاف المرات على الازهار مصفرها ومحمرها دون ان يلاحظوا في ذلك شيئا سوى جمال منظرها وتضوع شذاها ، حتى اذا جاء العصر العباسي بعلمه وثقافته وفلسفته . نضج العقل الانساني ، واصبح يربط بين مظاهر الطبيعة المختلفة ، فيرى شبها بين صفرة الوجه من اثر الشوق . والصفرة الطبيعية في الورد والازهار ، ويحس في النسيم رقة واعتلالا فيخيل اليه ، او بعبارة ادق يخيل الى الناس انه يعاني من الشوق الى الحبيب مثل ما يعانيه ، فأصيب بما أصيب به الشاعر من رقة وضعف كما رأينا عند الطليق المرواني ، او يتوجع للشاعر فلقي من البلاء ما لقيه كما ترى في قول ابن زيدون .

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقا والجو طلق ووجه الارض قد راقا (٣٧)
وللنسيم اعتلال في اصائله كأنما رق لي فاعتل اشفاقا

هذا وينبغي ان نشير الى ما كان من اتساع هذا الفن اتساعا كبيرا لم يقف عندما أشرنا اليه من احتلاله صدور القصائد ، بل قوى سلطانه على النفوس حتى غلب على بعض الشعراء كابن خفاجة بالاندلس والصنوبري

---

٣٦ ـ كان القدامى يعيشون على هامش الحياة . ولا يكادون يتغلغلون ببصائرهم وراء ما تقع عليه أبصارهم من تلك القشرة السطحية للعالم الذي يعيشون فيه .

٣٧ ـ ديوان شرح كيلاني ص ٢٥٧ .

بالشام . اما الاول فلا يكاد يرى له شعر في غير الطبيعة ولسنا ندري من ظروفه الان ما يعين على معرفة الاسباب التي انتهت به الى ذلك سوى امرين اثنين اما اولهما ، فنشأته في جزيرة شقر على الساحل الشرقي اللاندلس وهي تتمتع بما يتمتع به حوض البحر الابيض المتوسط من سماء مشرقة ، وجو دفيء . هذا الى احاطة البحر بها ، وكثرة رياضها وزرعها .

اما السبب الثاني فاضطراب الحال السياسية ، وتزعزع ملك المسلمين بالاندلس ، واضطراب الدولة كاضطراب حال الاسرة تدفع افرادها للبحث عن هواية من الهوايات يشغلون بها انفسهم ، وينسون بها آلامهم فيتجه بعضهم الى الرياضة البدنية ، وينصرف بعض اخر الى المقاهي ، او دور الخيالة او الخمر او ما الى ذلك ، وهذا هو السبب فيما ندعيه من ان الحال السياسية المضطربة كثيرا ما تكون مسؤولة عن الاتجاهات الادبية المختلفة من مجون وخمريات حينا ، ووصف للطبيعة احيانا لان في كل منها انصرافا عن الحياة العامة وهربا من التفكير فيها او الاتصال بها .

شعر الخصومات : لعل هذه اقرب تسمية الى ذلك النوع من الشعر الذي ظهر اول ما ظهر اثناء العصر الجاهلي في معلقة الحرث بن حلزة ، فهو ليس فخرا لان الفخر لا يهتم الا بمواقف المفاخر وأمجاد قبيلته . اما معلقة ابن حلزة ففيها شيء كثير من المنطق والجدل واقامة الحجة على سلامة موقف احد الخصمين ، وعدوان الطرف الاخر كما ذكرنا سابقا . وكان هذا النوع من الخصومات في العصر الجاهلي بين بعض القبائل وبعض ، فلما جاء الاسلام اتسع هذا النوع من الشعر ، واصطبغ بصبغة سياسية دينية، حيث صار بين الرسول وصحبه من جهة ، وقريش ومن معها من جهة اخرى . وخمدت في الوقت نفسه الخصومات بين القبائل ولو الى حين . حتى اذا جاء العصر الاموي عادت الخصومات بين القبائل الى اشد مما كانت عليه ، كما ترى في شعر جرير وخصومه ، ونهض الى جانبها نوع من الخصومات يمكن ان نسميها الخصومات السياسية او الحزبية فظهر الحزب الزبيري والاموي والهاشمي ، وكان لكل منها شعراؤه ودعاته ولم يعمر الاول طويلا فاضطر شاعره الرسمي عبيد الله بن قيس الرقيات ان يدخل فيما دخل فيه الناس وأن يهادن بني أمية رضي ام سخط .

وفي عهد بني العباس اتسعت الخصومة القبلية فبعد ان كانت تنشب بين القبيلة وجارتها او منافستها كما حدث في العهد الاموي ، صارت تشمل عرب الشمال جميعا ، وعرب الجنوب ، حيث وقف هؤلاء ضد اولئك في خصومة كلامية حمل ابو نواس لواءها ، وما اكثر ما حمل من ألوية في ذلك

العصر . ومن أمثلة ذلك قصيدته المشهورة التي يقول فيها مفتخرا بعرب الجنوب :

فافخر بقحطان غير مكتئب ... فحاتم الجود من مناقبها (٣٨)
ولا ترى فارسا كفارسها ... اذا زالت الهام عن مناكبها
عمرو وقيس والأشتران وزيد ... الخيل أسد لدى ملاعبها
بل مل الى الصيد من أشاعثها ... والسادة الغر من مها لبها
واهج نزارا وافر جلدتها ... واهتك الستر عن مثالبها
هل يغسلن عن نسائهم ... ما افرغ الأزد في كعائبها

ويأخذ بعد ذلك في هجاء القبائل العدنانية واحدة بعد الاخرى ، متعرضا لتميم وقيس عيلان وأسد وبكر وتغلب والنمر وقاسط ، متفضلا على كلّ منها بمذمّة ومنقصة ، ليكون ذلك بإزاء ما نسبه الى قحطان من مفاخر وأمجاد ، وليس بعجيب ان يطيل الرشيد حبسه فيها ، حيث ينتسب الخليفة نفسه الى قبائل الشمال .

ولسنا نعتقد ان مجرد ولائه لليمن ، او اغداق اليمنيين عليه ، كان كافيا لهذه الثورة العارمة . وأقرب من هذا لحقائق الاشياء ان يقال : ان الرجل كان حانقا على الجنس العربي ، لكونه مجهول النسب ، تافه الحسب فيهم ، وهم قوم يسرفون في تقدير انفسهم ، ويتطاولون على الناس بأحسابهم وانسابهم . وهذا هو سر ما كان منه من ميل الى الفرس وهجوم على العرب كما يبدو من قوله :

ولفارس الاحرار انفَسُ انفسٍ ... وفخارهم في عشرة معدوم (٣٩)
نادمتهم ارتاض في آدابهم ... فالفرس عدوي سكرهم محسوم
واذا أنادم عصبة عربية ... بدرت الى ذكر الفخار تميم
وعدَت الى قيس وعدّت قوسها ... سبيت تميم وجمهم مهزوم
وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم ... شرا فمنطق شربهم مذموم (٤٠)
لا يبذخون على النديم اذا انتشوا ... ولهم اذا العرب اعتدت تسليم (٤١)

---

٣٨ ـ ديوانه ص ١٥٦ .

٣٩ ـ ديوانه ص ٣٣٢ .

٤٠ ـ يعني انهم لا يحمدون الثرثرة على الشراب .

٤١ ـ بذخ كفرح . تكبر .

وأبيات ابي نواس هذه تذكرنا بنوع اخر من الخصومات ونعني به ذلك الذي نشب بين العرب والموالي الداخلين في الاسلام من فرس وغيرهم وسمي بالشعوبية ، فقد أنف هؤلاء الموالي من تعالي العرب عليهم . وبدأ شعراؤهم في العصر الاموي يردون على ذلك التعالي ، مفتخرين بأحسابهم وما كان لدولهم من ماض مجيد . ومن هؤلاء في عهد بني أمية اسماعيل بن يسار ويزيد بن ضبة . وقد كان من تعصب الاول للفرس ان مدحهم فأسرف في المدح امام هشام بن عبد الملك في قصيدة لم يذكر فيها شيئا لهشام ، مما اغضب الاخير ، حتى أمر بأن يغط في الماء ، ففعل به ذلك حتى كادت تخرج روحه ، ومما قاله في ذلك اليوم المشئوم :

اني وجدك ما عودي بذي خور ... عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم (٤٢)
أصلي كريم ومجدي لا يقاس به ... ولي لسان كحد السيف مسموم
من مثل كسرى وسابور الجنود معا ... والهرمزان لفخر او لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع ان زحفوا ... وهم أذلوا ملوك الترك والروم

وأما في العصر العباسي فقد قويت شوكة الفرس وشعرائهم ، لمكانتهم الرفيعة في الدولة ، واشتراكهم في السياسة العليا لها . وكان من آثار ذلك ان جهر شعراؤهم بمهاجمة العرب والتهكم بهم ، وكانوا قديما لا يطمعون في اكثر من الاشارة الى مجدهم السابق ، ويلقون على ذلك نكالا شديدا . وكان من أشد الشعراء تعصبا للفرس بشار بن برد ، والمتوكلي من ندماء المتوكل العباسي . ومما قاله الاول في هذا الصدد لبعض الاعراب ، وقد فخر عليه :

احين كسيت بعد العري خزا ... ونادمت الكرام على العقار (٤٣)
تفاخر يابن راعية وراع ... بني الاحرار حسبك من خسار
وكنت اذا ظمئت الى قراح ... شركت الكلب في ولع الإطار

ومما قال الاخير :

فقل لبني هاشم اجمعين ... هلموا الى الخلع قبل الندم (٤٤)

---

٤٢ ـ الاغاني ج ٤ ـ ص ١٢٤ .
٤٣ ـ نفسه ج ٣ ـ ص ٣٣ .
٤٤ ـ تاريخ الشعر السياسي ص ١٩٦ .

ملكناكم عنوة بالرماح طعنا ، وضربا بسيف حذم
واولاكم الملك آباؤنا فما الي وفيتم بشكر النعم
فعودوا الى ارضكم بالحجاز لأكل الضباب ورعي الغنم
فاني سأعلو سرير الملوك بحد الحسام وحرف القلم

ولعل القارىء لهذه الابيات ، يرى البون الشاسع بينها وبين ما كان يقال في العصر الاموي من أشعار في هذا الصدد .

اما الشعر السياسي او الحزبي ، فقد ظل قويا وان اختلف عن سلفه في العصر الاموي من عدة وجوه .

اولا : ضعفت فيه نزعة التحمس والتطرف التي كنا نراها عند الكميت وابن قيس الرقيات .

ثانيا : قل عدد الاطراف المعنية بتلك الخصومات في هذا العصر ، حيث انتهى الحزب الاموي بانتهاء دولته ، كما حدث للحزب الزبيري من قبل . ولم يبق في الميدان الا العباسيون ومعارضوهم من العلويين . وكان لكل حزب دعاته من الشعراء . وعبد الله بن المعتز العباسي كان من اكثر الناس دفاعا عن اسرته وهجوما على العلويين ، ولا يضعف من قدر ذلك الشعر الا ما كان من اختلاطه بالشكوى والفخر . الامر الذي جعله يبدو وكأنه أثر من آثار النزاع الشخصي بينه وبين ابناء عمومته ومع ان انصار بني العباس من الشعراء فيما عداه كانوا طلاب أموال فان بعضهم ربما احتج لسادته فأحسن الاحتجاج وبلغ من ذلك ما يريدون كما نرى في مثل قول مروان ابن ابي حفصة يخاطب العلويين :

خلوا الطريق لمعشر عاداتهم حطم المناكب يوم كل زحام (٤٥)
وارضوا بما قسم الاله لكم به ودعوا وراثة كل أصيد حامي
اني يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الاعمام

واذا كانت هذه الابيات تمثل الواقع المرير الذي وجد العلويون انفسهم امامه ، وتذكرهم بثوراتهم الفاشلة ضد الامويين والعباسيين . وأخيرا تكاد تفحمهم بما تشير اليه من قوانين الميراث ، فان الابيات التالية للسيد الحميري تمثيل العواطف التي كانت تجيش في صدور العامة لحفدة الرسول من ابناء علي وفاطمة ، وهي عواطف لها تأثيرها العميق على

---

٤٥ ـ ضحى الاسلام ج ٣ ص ٣١٢ .

النفوس .

اذا انا لم احفظ وصاة محمد ... ولا عهده يوم الغدير المؤكدا (٤٦)
فأني كمن يشري الضلالة بالهدى ... تنصر من بعد الهدى وتهودا
ومالي وتيم او عدي وانما ... أولو نعمتي في الله من آل أحمدا
تتم صلاتي بالصلاة عليهم ... وليست صلاتي بعد ان أتشهدا
بكاملة ان لم اصل عليهمو ... وادع لهم ربا كريما ممجدا
بذلت لهم ودي ونصحي ونصرتي ... مدى الدهر ما سميت يا صاح أحمدا
وان أبرأ يلحي على صون ودهم ... أحق وأولى منهم ان يفندا
فان شئت فاختر عاجل الغم ظلة ... وإلا فأمسك كي تصان وتحمدا

ولعل القارىء يلاحظ ان الشاعر يكاد يشمل العباسيين ايضا بمدحه وولائه حيث انهم من أسرة الرسول التي يتغنى بحبها ومحامدها . وفي الحقيقة ان حملة السيد الحميري لم تكن موجهة ضد العباسيين بقدر ما كانت موجهة ضد الخلفاء الراشدين الثلاثة السابقين لعلي ، لحيلولتهم دون توليه الخلافة .

ولكن الشاعر الذي يشبه الكميت تماما من حيث الحملة على الاسرة الحاكمة هو دعبل الخزاعي الذي هاجم خلفاء بني العباس بقدر ما اشاد بذكر بني علي وتوجع لهم ، ومن ذلك قوله في المأمون :

أيسومني المأمون خطة عاجز ... او ما رأي بالامس راس محمد (٤٧)
اني من القوم الذين سيوفهم ... قتلت اخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد

وترى له الى جانب ذلك شعرا عاطفيا رقيقا في بني علي مثل قوله :

قفا نسأل الدار التي خف اهلها ... متى عهدها بالصوم والصلوات (٤٨)
واين الا لي شطت بهم غربة النوى ... افانين في الآفاق مفترقات
هم اهل ميراث النبي اذا اعتزوا ... وهم خير قادات وخير حماة
وما الناس الا حاسد ومكذب ... ومضطغن ذو اجنة وترات

---

٤٦ ـ تاريخ الادب العربي في العصر العباسي ص ٣٥١ .
٤٧ ـ معجم الادباء ج ١١ ص ١٠٠ .
٤٨ ـ نفسه ص ١٠٣ .

ملامك فــي اهـل النبي فانهـم احباي ما عاشوا واهــل ثقاتــي
فيا رب زدني من يقينــي بصبرة وزد حبهم يا رب فــي حسناتــي
ألم تر انــبي من ثلاثين حجــة اروح واغـدو دائــم الحسرات
ارى فيهــم في غيرهـم متقسما وايديهـم من فيئهــم صفـرات
فآل رسول اللــه نحف جسومهم وآل زيـــاد حفــل القصرات
بنات زياد فــي القصور مصونـة وآل رسـول فــي الفــارات

وينبغي أن تذكر وانت تتحدث عن شعر الخصومات نوعا جديدا كل الجدة ، لعله أشد تصويرا لما اصاب الحياة السياسية والاجتماعية مــن تطور خلال العهد العباسي من أي شيء اخر . ونعني به تلك الحرب الخفية التي كانت تدور بين ابي العتاهية وابان بن عبد الحميد في ميدان الشعر، والتي كانت امتدادا طبيعيا للنضال السياسي المستتر المكشوف الذي يدور بين الفضل بن الربيع والبرامكة . ولم تتحول الى صدام بين الشاعرين لان كلا منهما كان مأجورا لا يهتم الا بالناحية المادية لتلك الحرب ، ولأن سادته كانوا حريصين على ان يظل ذلك النضال الادبي محصورا في دائرة ضيقة، وتفصيل هذا أن الحياة السياسية في العصر العباسي قد تطورت تطورا خطيرا حين اتخذ خلفاء بني العباس الوزراء والحجاب ، على غير ما كان يفعل الامويون الذين يعتمدون على انفسهم في ادارة شؤون الدولة . وقد دعا ذلك في العهد العباسي الى التنافس بين الرؤوس الكبيرة التي حــول الخليفة ، وكيد بعضها لبعض على نحو ما نرى من الاحزاب السياسية في العصر الحديث ، وكان اول مظهر من مظاهر ذلك الاحتكاك ما ثار بين الربيع ابن يونس وأبي عبيد الله معاوية بن يسار وزير المهدي من خلاف استغل فيه الربيع موهبته النادرة في الدس والايقاع حتى تمكن من طرد ابن يسار نهائيا من دولة المهدي ، بعد ان أقنع الخليفة بأن ولده زنديق يستحق ان يلحق بالزنادقة أمثال صالح بن عبد القدوس وبشار بن برد (٤٩) .

ولكن الربيع لم يمت حتى أورث ابنه الفضل هذه الخبرة الواسعة في الدس والكيد . وما كاد الرشيد يتولى مقاليد الحكم رسميا ، ويضعها في يد يحيى البرمكي وأولاده عمليا ، حتى غلت مراجل الحقد في صدر ابن الربيع ، الم يكن والده اكبر رأس في دولة المهدي بعد المهدي ، فكيف يرضى

٤٩ ـ الجهشاري (الوزراء والكتاب) ص ١٥٢ وما بعدها .

هو بالتأخر والانزواء . لقد اخذ يرسم الخطط ويعد العدة للايقاع بالبرامكة فأنشأ حزبا عربيا اعضاؤه من بين كبار العباسيين ، ترعاه زبيدة ، ويدير هو دفته ، هدفه مقاومة ذلك النفوذ الفارسي الذي رفع البرامكة لواءه ، ونصب عليهم الجواسيس في دورهم ، وشدد الرقابة عليهم في كل مكان (٥٠) .

والذي يهمنا من كل ذلك ان ابن الربيع اخذ يحارب مجالس اللهو التي تجمع الرشيد دائما بجعفر البرمكي فتحدث بينهما نوعا من الانسجام يصعب معه على ابن الربيع التفرقة بينهما كما اشرنا الى ذلك من قبل . وهنا يأتي دور ابي العتاهية الذي كان عليه بعد ان امتنع عن امداد المغنين والمغنيات بشعر الحب ، كي يصوغوه الحانا وأغاريد يحيون بها مجالس الرشيد مع نديمه جعفر ، كان عليه بعد ذلك ان يمطره بوابل من شعر الزهد يجري دمعه على لحيته مدرارا ، وينغص عليه ملذات الحياة . ولم يستطع البرامكة ان يكتموا غيظهم فقد روي ان الرشيد قال يوما لابي العتاهية صف مجلسنا هذا وما فيه من نعيم فأنشأ يقول والفضل بن يحيى جالس :

عش ما بدا لك آمنا ... في ظل شاهقة القصور (٥١)
يسعى عليك بما اشتهيت ... م لدى الرواح او البكور
فاذا النفوس تقعقعت ... في ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقنا ... ما كنت الا في غرور

وما كاد يفرغ من انشاده حتى اخذ الرشيد في البكاء ، وقد انتهز الفضل هذه الفرصة السانحة ليشفي صدره مما به من غل فقال للشاعر: «بعث اليك امير المؤمنين لتسره فحزنته» فقال الرشيد : «دعه فانه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا منه» .

وأخيرا لم يجد البرامكة بدا من محاربة الفضل بن الربيع وشاعره بنفس السلاح الذي شهراه في وجوههم . وحمل أبان بن عبد الحميد تلك الامانة وكان من آثار ذلك نظمه لكتاب كليلة ودمنة . فقد ذكر الرواة ان

---

٥٠ ـ ان السبب المباشر في قتل جعفر البرمكي وهو اطلاق سراح الثائر العلوي يحيى ابن عبد الله ما كان ليطلع عليه الرشيد لولا ان احد الخدم الذي يعملون في بيت البرامكة لحساب الفضل بن الربيع قد انهى الخبر اليه .

٥١ ـ ديوانه (بيروت) ص ٩٢ .

يحيى بن خالد كلف أبانا بظمه وتعجله في ذلك تعجلا شديدا ويقال انه أغلق عليه بعض منازله كي يفرغ منه في اقرب فرصة ـ حتى اذا ما فرغ منه اعطاه عشرة آلاف دينار واعطاه الفضل خمسة «ولا يدري الا الله تعالى كم اعطاه جعفر ـ وأقبلوا جميعا على الكتاب يحفظونه منظوما» (٥٢) .

ولم يذكر لنا الرواة سر تلك العجلة ، ولا اهتمام البرامكة بحفظه . ومعرفة موضوع الكتاب تهدينا الى السر في استغلال البرامكة له ان اهم أغراض هذا الكتاب قد تركز في القصة الاولى من قصصه التي ترمي الى تحذير الاصدقاء من دس الدساسين وكيد المفسدين . ثم تدور باقي قصصه حول سياسة الملك بأسلوب رمزي يجري على السنة الحيوان . وأكبر الظن انه ألف اول ما ألف ليكون نصائح مهذبة وغير مكشوفة قدمها احد المقربين من ملوك الهند اليه حينما توجّس خيفة من كائد او حاسد ، ولذا بدىء الكتاب بالغرض المباشر من تأليفه ثم زيد فيه بعض النصائح والوصايا الضرورية لكل من يتصدى لولاية أمور الناس . واليك بعض عناوين تلك القصص حتى ترى مدى صدق نظرتنا فيه . فالقصة الاولى بعنوان «الاسد والثور» تبدأ هكذا (٥٣) قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: اضرب لي مثلا للمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملها على العداوة والبغضاء . والقصة الثانية بعنوان «الحمامة المطوقة» وتتحدث عن الصداقة (٥٤) والثالثة بعنوان «البوم والغربان» وتتحدث عن الاعداء ووجوب الحذر منهم (٥٥) . والخامسة بعنوان «الناسك وابن عرس» وتنهي عن العجلة وتأمر بالروية (٥٦) والسادسة بعنوان «الجرذ والسنور» وتتحدث عن رجل كثر اعداؤه وأحدقوا به من كل جانب .

ولعلّ البرامكة وقد أعجبوا بموضوع الكتاب ، احبوا ان يسلكوا مع الرشيد ما سلكه الهنود مع ملكهم من قبل ، وينبهوه الى الاخطار التي يمكن ان يجر اليها ايقاع الفضل بن الربيع بينه وبينهم ، راجين ممثل ذلك ان

---

٥٢ ـ الاوراق للصولي ص ٢ .

٥٣ ـ ص ٥١ من كتاب كليلة ودمنة المطبعة الاميرية سنة ١٩٠٣ .

٥٤ ـ ص ٩٥ .

٥٥ ـ ص ١٠٧ .

٥٦ ـ ص ١٣٧ ولعل البرامكة كانوا يودون ان يتروى الرشيد في النكال بهم .

يمتنع الرشيد عن الاستماع الى وشايته وإفساده . وهذا هو السبب في حفظهم لذلك الكتاب منظوما ، فالنظم أيسر على القارىء والسامع ، وأخف على الآذان ، وأسرع الى القلوب .

ومن يدري لعل كتب الادب لم تتسع الا للقليل من أخبار تلك المناورات السياسية . ولعل الامر لم يقتصر على انشاد البرامكة بعض تلك الابيات بحضرة الرشيد ، بل كان ينشدها أبان وغير أبان من المغنين والوعاظ والمضحكين ، كما ان أبا العتاهية لم يكن هو الوحيد الذي يرتل آيات الزهد «وأناشيد» الموت بين يدي هرون ، بل كان بجانبه آخرون (٥٧) .

وإليك فقرة من نظم أبان في قصة الاسد والثور نستعين بها على ايضاح فكرتنا وفيها يقول :

قال له السبع لقد سمعت	وكل ما تقوله فهمت (٥٨)
لكنني لست أظن ما تظن	بالثور من غش بلي ظني حسن
قال له دمنة : من ثم اتى	وهذه من حاله هي التي
رفعته حتى تعدى طوره	وكان هذا لك منه شكره
وتلك أخلاق اللئيم الفاجر	الكافر المغرور غير الشاكر
ما ان يزال ناصحا نفاعا	حتى يرى من حاله ارتفاعا
فعندها يسمو الى ما فوقها	الى التي لا يستطيع أوقها (٥٩)

واظن ان نواحي الجدة في هذا النوع من الشعر السياسي بينة . فالشعراء هنا لا تعنيهم القضايا التي يخدمونها كثيرا ، ولا يعرّضون انفسهم لغضب الحكام من اجلها كما كان يفعل ابن قيس الرقيات حين يدافع عن آل الزبير ، او الكميت وهو يناضل عن بني علي ، بل يخدمون الاحزاب السياسية على نحو ما يفعل الصحفيون اليوم . وكل ما هنالك من فرق هو ان سلطان الخليفة الاستبدادي في ذلك العهد الغابر لم يكن يسمح بقيام احزاب رسمية ، او مهاترات سياسية مكشوفة ، فنشطت تلك الاحزاب

---

٥٧ ــ لم يهتم المؤرخون بتلك التيارات الخفية التي كانت تجري وراء الاستار ، فلم يروا فيما قامت به زبيدة من حشد نحو مائتين من جواريها في قصر الخلافة بقصد تلاوة القرآن ــ لم الرشيد بالمغنيات من الجواري .

٥٨ ــ الاوراق للصولي ص ٤٩ .

٥٩ ــ الارق : الثقل والشؤم .

نشاطا خفيا ملتويا على أسلوب ذلك العصر في كل ما يتصل بالسياسة او حرية الرأي .

والمتتبع لشعر ذلك العصر يستطيع ان يرى فيه لونا اخر يتصل بالسياسة من قرب ويتولى فيه الشعراء الدفاع عن حقوق الشعب دفاعا متزنا ، فلا يأخذ صورة الثورة او الهجوم المكشوف الذي تراه عند شعراء الشيعة ، بل يبدو في صورة التوجيه والرجاء الخالص لوجه الله والشعب، ونرى نموذجا لذلك في قول ابي العتاهية :

من مبلغ عني الاما م نصائحا متوالية (٦٠)
اني ارى الاسعار أسع ار الرعية غالية
وارى المكاسب نزرة وارى الضرورة غاشية
وارى غموم الدهر را ئحة تمر وغادية
وارى اليتامى والأرا مل في البيوت الخالية
من بين راج لم يزل يسمو اليك وراجية
يشكون مجهدة بأصو ات ضعاف عالية
يرجعون رفدك كي يروا مما لقوه العافية
من يرتجي للناس غير ك للعيون الباكية
من للبطون الجائعا ت وللجسوم العارية
يا ابن الخلائف لا فقد ت ولا عدمت العافية
ان الاصول الطيبا ت لها فروع زاكية
القيت أخبارا اليـ ك من الرعية شافية

وربما رمى هذا القفاز الناعم جانبا وهاجم الطبقات العليا هجوما عنيفا ثقيلا على نحو ما نرى اليوم بين انصار الاشتراكية والشيوعية فيقول في ثنايا شعره المسنمى بشعر الزهد :

---

٦٠ ـ ديوانه ص ٣٠٤ (بيروت) ليس عجيبا ان نرى هذا النوع من الشعر لابي العتاهية فقد كان يلذ له ان يرى وكأنه حامي الدهماء ضد الخاصة والحكام ارضاء لحاجات في نفسه اهمها مركب النقص والحقد الذي اشرنا اليه في غير هذا المكان . وهذا القدر المختار جزء من قصيدة فيما يسمى بالزهد تبدأ بقوله :

اين القرن الماضية تركوا المنازل خالية

ويـــــا جامع الدنيا لغير بلاغـــه ستتركهـا فانظر لمن انت جامع (٦١)
فلو ان ذوي الابصار يرعون كلمـــا يرون لمـــا جفت لعين مدامـــع
فما يعرف العطشان من طال ريـه وما يعرف الشبعان من هو جائـــع
وصارت بطون المرملات خميصـــة وايتامهـــم منهم طريد وجائـــع
وان بطـــــون المكثرات كأنمـــا تنقنق في أجوافهـــن الضفـــادع

ومع ان حقد ابي العتاهية على السادة والحكام بل والخلفاء كـــان مستورا (٦٢) او كالمستور فانه لم يسلم من التصريح به احيانا كما في قوله:

ان الملوك بـــلاء حيثما حـاــوا فلا يكن لك في أكنافهم ظـــل (٦٣)
ماذا ترجـــي بقوم ان هم غضبـوا جاروا عليـك وان أرضيتهم ملـوا
وان نصحت لهم ظنوك تخدعهـــم واستثقلوك كما يستثقل الظـــل
فاستغن بالله عــن ابوابهـم كرما ان الوقـوف علـــى ابوابهـــم ذل

او قوله :

ما اختلف الليـــل والنهـــار ولا دارت نجوم السماء في الفلـك (٦٤)
الا لنقـــل السلطان عن ملـــك قـد انقضــــى ملكه الى ملـــك

ويظهر ان ملك الروم الذي كان معجبا بهذين البيتين او بخطة الشاعر العامة ، قد أحب ان يستدعيه الى بلاده ويستعين به على الدعاية ضـــد الرشيد ، على نحو ما يحدث اليوم اثناء الحروب ولكن الشاعر أحجم .

ولم يكن ابو العتاهية وحده في الميدان بل كان بجانبه كثير من الوعاظ الذين لا يتورعون عن التدخل في السياسة بطريق مباشر او غير مباشر كابن السماك وفضيل بن عياض (٦٥) وربما كان عبد الله بن عبد العزيز العمري اعظم جرأة من هذين فقد قال للرشيد يوما : «ان المرء يبذر في ماله الخاص

---

٦١ ـ ديوانه (بيروت) ص ١٥٠ .

٦٢ ـ لقد ظلت أغراض ابي العتاهية من شعره المسمى بشعر الزهد خافية حتى كشف عنها جهد متواضع لكاتب هذه السطور في رسالة الدكتوراه جامعة لندن .

٦٣ ـ ابو العتاهية للاستاذ احمد برانق (لجنة البيان العربي) ص ١٧٤ .

٦٤ ـ مرآة الجنان ج ١ ص ٤١٥ .

٦٥ ـ المرجع السابق ص ٣٦٧ .

فيحجر عليه . فما بالك بمن يبذر في أموال المسلمين !» (٦٦) وعندما سمع هرون يوما ان عبد الله في طريقه من الحجاز الى بغداد جمع ما لديه من رجال أسرته وطلب اليهم ان يصدوه عن بغداد ويحولوا بينه وبين الرشيد وكان فيما قاله لهم : «لقد احتملته اثناء الحج ، أيريد اليوم ان يحضر الى بغداد وفيها جندي وأوليائي فيفسدهم علي» (٦٧) .

والغزل بنوعيه قد تأثر ايضا بما شمل الحياة الاجتماعية من تطور يكاد يكون فوضى وفسادا في بعض نواحيه ، فظهر في الحسي منه دعارة وتهتك انستنا خلاعة امرىء القيس وعمر بن ابي ربيعة . واليك نموذجا من شعر بشار بن برد :

حسبي وحسب الذي كلفت بـه ... مني ومنه الحديث والنظر (٦٨)
او قبلة في خلال ذاك وما ... بأس اذا . . . . . .
او عضة في ذراعها ولها ... فوق ذراعي من عضها أثر
او لمسة دون مرطها بيدي ... والباب قد حال دونه الستر
والساق براقة مخلخلها ... او مص ريق وقد علا البهر

ولا عجب والحال هذه ان يختنق الغزل العفيف او غزل الحرمان كما سميناه . فاذا استعصت الحرائر فالجواري في كل مكان يزاحمن الرجال بالمناكب وهن على جمال يتضاءل في جانبه جمال الحرائر من العرب . ولذا لا نكاد نرى له ممثلا في هذا العصر سوى العباس بن الاحنف .

وهكذا لم يبق أمامنا من أغراض الشعر القديمة سوى الهجاء والمدح والفخر . وليس بعجيب ان نجمع بينها ، فالثاني نقيض الاول ولا يختلف عن الثالث الا في الموضوع ، وقد تغيرت هذه الاغراض ايضا تبعا لتغير العصر ، فظهر في الهجاء عنصر التهكم وقديما كان الشعراء يميلون الى الجد في هجائهم فيعمدون الى انتقاص المهجو ببيان تخلفه في ميادين الشجاعة والكرم في عبارة رصينة فان غلوا في هجائهم خرجوا الى السباب المحض كما ترى في قول الاعشى يهجو جهنام احد بني عبدان :

---

٦٦ ـ الطبري ج ١٠ ص ١٢٠ .
٦٧ ـ الاغاني ج ٣ ص ١٨٣ .
٦٨ ـ حديث الاربعاء ج ٢ ص ٢٠٥ .

اتاني مـــا يقول لي ابن بظـــري أقيس يابن ثعلبـــة الصبـاح (٦٩)
لعبـــدان ابن عاهـــرة وخلـــط رجوف الاصل مدخول النواحـــي

او في قول زهير بن ابي سلمى يهجو الحرث بن ورقاء وقومه من بني أسد حين أسروا عبده يسارا وحبسوه عندهم .

تعلـــم ان شر الناس حـــي ينادي فـــي شعارهم يســـار (٧٠)
ولـــو لا عسبـــــه لرددتمـــوه وشر منيحـــة عسب معـــار (٧١)
اذا جمحت نساؤكـــم اليـــه اشـــظ كأنه مســـد مغـــار

وربما رأينا عند بعضهم شيئا من التهكم ولكن روح البداوة وصبغتها العامة تغلب عليه كما ترى في قول طرفة بن العبد يهجو عمرو بن هند :

فليت لنـــا مكان الملك عمـــرو رغوثـــا حول قبتنا تخـــور (٧٢)
من الزمرات أسبـــل قادماهـــا وضرتهـــا مركنـــة درور (٧٣)
يشاركنـــا لنـــا رخلان فيهـــا وتعلوهـــا الكباش فما تنـــور (٧٤)

وقد ظل الشعراء في العهد الاموي ينسجون على منوال اهل الجاهلية كما نرى في نقائض جرير مع الفرزدق فقد استغل الاول سوء حظ جعثن اخت الفرزدق واعتداء بني منقر عليها فأخذ يكرر ذلك في نقائضه تكرارا سمجا ونأسف لعدم استطاعتنا تسجيل شيء منه هنا ، ولكـــن القارىء يستطيع ان يرى صورة في قصيدته المشهورة التي يقول في اولها :

أقلـــي اللوم عاذل والعتابـــا وقولي ان أصبت لقد أصابـــا (٧٥)

والحق ان نقائضه جميعا لا تخلو من هذه النغمة البغيضة (٧٦) أمـــا

---

٦٩ ــ ديوان ص ٧٣ .
٧٠ ــ ديوان ص ٤٨ .
٧١ ــ عسبه : ضرابه .
٧٢ ــ ديوانه ص ٦ ، الرغوث: الشاة المرضع ــ تخور : تصوت ، وأصل الخوار للبقر.
٧٣ ــ الزمرات : قليلات الصوف وخصها لانها أغزر ألبانا ــ أسبل : طال . قادماها : ثدياها ــ مركنة : ضخمة ــ درور : كثيرة اللبن .
٧٤ ــ الرخل : بفتح الراء وكسر الخاء الانثى من ولد الضأن ــ تنور : تنفر .
٧٥ ــ ديوانه ص ٦٩ .
٧٦ ــ جرير ونقائضه للمؤلف .

الفرزدق فقد ترفع عن ذكر العورات ، وان اكثر من مخاطبة جرير بمثل قوله :

انا البدر يعشي طرف عينيك فالتمس بكفيك يا ابن الكلب هل انت نائله (٧٧)

استهانة به وبأبيه . وما من شك في ان الذوق العام كان يمقت هذا النوع من البذاء ويميل الى التعفف عن نهش الاعراض وتتبع العورات . ويرى ان التلويح خير من التصريح والمزاح اعذب من الجد ان كان لا بد من الكر والفر . ودليل ذلك ان النقاد وقد تعصبوا لجرير لم يجدوا له في الهجاء خيرا من قوله للراعي (٧٨) :

فغض الطرف انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وقد ترجم الجرجاني الذوق العام بقوله : « فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض . وما قربت معانيه وسهل حفظه ، وأسرع علوقه بالقلب ، ولصوقه بالنفس فأما القذف والافحاش فسباب محض ، وليس للشاعر فيه الا اقامة الوزن وتصحيح النظم » (٧٩) .

والآن وقد اشرنا الى ما كان من شأن الهجاء في الماضي ورأي المحدثين من النقاد فيه ومحاولتهم تنظيمه وتهذيبه نعود الى ما كان من امره عند المحدثين فنذكر انه قد جد فيه اشياء واختفت اخرى . ظهر التهكم ممتزجا بالهجاء ، واختفى الحديث عن الاحساب والانساب ومواقف الشجاعة والكرم ونحوها (٨٠) .

فقد عدنا لا نرى في هجاء هذا العصر مثل قول الحطيئة في الزبرقان:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

وانما رأينا الشعراء يسلكون مسلكا قريبا من ذلك الذي رأيناه عن الجرجاني منذ قليل ، حيث يعمد بعضهم الى التهكم من بعض سالكين أيسر

---

٧٧ ـ نقائض جرير الفرزدق ج ٢ ص ٦٠٦ .

٧٨ ـ طبقات الشعراء ص ١٣١ .

٧٩ ـ الوساطة ص ٢٣ .

٨٠ ـ ذكرنا في موقف اخر ان الحديث عن الاسر والقبائل مدحا وهجوا قل بسبب ضعف الروابط التي من هذا النوع ، نتيجة لشيوع الحضارة ، ونمو الشخصية الفردية.

الطرق واعظمها غناء في خدمة أغراضهم ، وأعونها على النيل من اعدائهم، غير متورعين عن قذف المهجو بأشنع التهم (٨١) وان خففا من حدة ذلك بعرضه في قالب المزاح الذي يختلط فيه الجد بالهزل ومن امثلة ذلك قول ابي نواس لأبان بن عبد الحميد اللاحقي ناقضا ثناءه على نفسه :

لم يكن فيك من صفاتك شي غير خلق مجحدر دحداح (٨٢)
لحية ثطة ووجه قبيح وانثناء عن النهي والصلاح
فيك ما يحمل الملوك على الخر م ق ويزري بالسيد الجحجاح
فيك تيه وفيك عجب شديد وطماح يفوق كل طماح
بارد الطرف مظلم الكذب ذو خر ق معيد الحديث نزر المزاح

وقول ابي نواس لأبان أيسر حملا حين يقاس بقول ابي العتاهية لعبد الله ابن معن بن زائدة :

الا قل لابن معن الـ ـلذي في الود قد حالا (٨٣)
لقد بلغت ما قالا فما باليت ما قالا
ولو كان من الاسد لما صال ولا هالا
فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخالا
وما تصنع بالسيف اذا لم تك قتالا
ولو مد الى أذنيـ ـه كفيه لما نالا

وقد جلده عبدالله انتقاما منه على تطاوله عليه وإساءته اليه فقال فيه قصيدة اخرى اشد صراحة واعظم ايلاما وفيها يقول :

قال ابن معن وجلا نفسه على من الجلوة يا اهلي (٨٤)
انا فتاة الحي من وائل في الشرف الشامخ والنبل
ويلي ويا لهفي على أمرد يلصق مني القرط بالحجل
صافحته يوما على خلوة فقال دع كفي وخذ رجلي

---

٨١ ـ ظهر في هذا العصر وفي ثنايا الهجاء اتهام بعض الناس لبعض بالتخنث او ما هو شر منه ، نظرا لانتشار هذه المفاسد الخلقية اذ ذاك .

٨٢ ـ ديوان ابي نواس ص ١٧ ـ والاوراق للصولي .

٨٣ ـ الاغاني ج ٣ ص ١٣٢ .

٨٤ ـ نفسه ص ١٣١ .

اخت بنـي شيبان مرت بنـا ممشوطــة كورا على بغـــل
قد نقطت فـي وجهها نقطـة مخافـة العين مـــن الكحـــل
أتجلد النـاس وانت امـــرؤ تجلد فـــي الدبر وفي القبـل

ووالبة بن الحباب كان فريسة اخرى لابي العتاهية . وقد تعجب حين تعرف ان والبة هذا على تحلله من الاخلاق ، وخروجه على التقاليد قد اضطر تحت ضربات ابي العتاهية المتوالية ان يفر من وجهه ، ويترك له بغداد على سعتها (٨٥) . وكان مما قاله فيه :

صرح بما قد قلتــه واجهـــر لابن الحباب وقل ولا تحصر (٨٦)
مالي رأيت أبـــاك اسود غر بيت القـــذال كأنـــه زرزر
وكأن وجهـــك حمرة رثـــة وكأن رأسك طائـــر أصفـــر
وابن الحبـاب صليبة زعمـوا ومـــن المحال صليبـــة أشقر
ما بال مـن آباؤه عـــرب الأ اوان يحسب مـــن بني قيصر
اترون اهل البدو قد مسخوا شقـــرا اما هـــذا من المنكـــر

وهكذا استغل ابو العتاهية التباين الشديد بين لون والبة وابيه الحباب واتخذ منه دليلا على انه ليس منه ، بل من سفاح .

ولعل موقف ابي العتاهية من والبة يفسر لنا طرفا من اسرار تطـــور الهجاء في ذلك العصر . الا ترى ان الاول لو قال في الاخير ما قاله الحطيئة في الزبرقان بن بدر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتهـــا واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

او مثل قول الاخر وقد عدّه قدامة من خبيث الهجاء (٨٧) :

ان يغـــدروا او يفجـــروا او يبخـــلوا لا يحفلـــوا
يغـــدوا عليـــك مرجلـ ين كأنهـــم لـــم يفعلـــوا

ما نال منه شيئا ، وهل ينكر والبة انه لا يجري وراء شيء في الحياة سوى شهوة الفرج والبطن . وهل ينكر هو والمتحررون من أمثاله انهـــم ساخرون من العرف خارجون على التقاليد ، لا يحفلون بأحد ولا يستحيون

---

٨٥ ـ الاغاني ج ١٦ ص ١٤٤ .
٨٦ ـ نفسه .
٨٧ ـ نقد الشعر ص ٣٠ .

احدا. ان والبة وأضرابه لا يفهمون الا تلك اللغة التيخاطبهم بها ابو العتاهية فآذاهم ، ولا يفرقون الا من تلك السياط التي سلقهم بها فأوجعهم . وما من شك في ان هذا الاتجاه كان اثرا من آثار الترف الذي شمل الحياة العامة ، وميل الجمهور الى اللهو والمرح على نحو ما ذكرنا سابقا في الفصل الخاص بالمجون .

وقد استغل الشعراء هذه النزعة العامة لإضحاك الناس من خصومهم، وقد بلغوا من ذلك ما ارادوا ، فقد كان عبد الله بن معن يقول : ما لبست سيفي قط فرايت انسانا يلمحني الا ظننت انه يحفظ قول ابي العتاهية فيّ فلذلك يتأملني فأخجل (٨٨) يعني قوله :

فصـــغ مـــا كنت حليت بـــــه سيفـــك خلخـــــالا
وما تصنـــع بالسيـــــف اذا لـــم تـــك قتّـــــالا

وكان هرون الرشيد كلما رأى عبد الله بن معن تمثل قول ابي العتاهية:

أخت بني شيبان مـــرت بنا ممشوطـة كورا على بغــل (٨٩)

ولكن ليس معنى هذا ان السباب المقذع المكشوف قد اختفى من الشعر تماما اذا ما زال هناك بقية منه نراها في مثل قول ابي الطيب المتنبي يهجو ابن كيغلغ :

يحمي ابن كيغلغ الطريق وعرسه ما بين رجليها الطريق الاعظم (٩٠)
يمشـــي بأربعة على أعقابـــه تحت العلوج ومـن وراء يلجـم
واذا اشار محدثـــا فكأنـــــه قرد يقهقه او عجـوز تلطـــــم
يقلي مفارقـــة الأكف قذالــه حتـــى يكاد على يـد يتعمـــم

واشد منه صراحة وإقذاعا ، وأعظم منه هجوما على الذوق وتحديا له هجاء بشار بن برد لضحاياه وان شئت نموذجا لذلك فاقرأ قصيدته فـي هجاء يحيى بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس والتي يقول في أولها :

لا تبغ شر امرىء شرا من الداء واقدح بحلم ولا تقدح بشحناء (٩١)

---

٨٨ ـ الاغاني ج ٣ ص ١٣٤ .
٨٩ ـ نفسه ص ١٣١ .
٩٠ ـ ديوانه شرح العكبري ج ٤ ص ١٢٦ .
٩١ ـ ديوانه ص ١٢٢ .

وإليك بيتين آخرين للشاعر نفسه في هجاء المهـــدي امير المؤمنين وزوجته الخيزران وولي عهده الهادي ، فانهما على سخفهما أقل هجنة من شعره في يحيى بن صالح ، وفيهما يقول :

خليفـــة يزنـــي بعماتـــه يلعب بالدبوق والصولجان (٩٢)
ابدلنـا اللــه بـــه غـــيره ودس موسى في حر الخيزران

وينبغي ان نلاحظ ان شخصية الشاعر ذات أثر قوي في الصبغـــة الغالبة على هجائه ، فهجاء الأشراف خلاف هجاء السوقة . وأهل الدعارة والفجور غير اصحاب الدين والعفة ويحاول بعض الشعراء ان يتهكم مـــن خصمه فيبلغ من ذلك ما يريد ، بينما يتعثر الآخرون دون تلك الغاية ؛ الا ترى ان ابا العتاهية قد نجح فيما أخفق فيه ابو الطيب المتنبي وذلك لغلبة الجد على الاخير واختلاط الاول بالمخنثين من اهل بغداد وتعلمه كيادهـم ودهاءهم .

واذا اردت ان تعرف فرق ما بين السوقة والخاصة فاقرأ هجاء امرىء القيس لسبيع بن عوف احد بني طهبة :

ابلـــغ سبيعا ان عرضت رسالة اني كهمك ان عشوت أحـــام (٩٣)
فاقصر اليـــك من الوعيد فانـــي مما الاقـــي لا أشـد حزامـــي

ثم يستمر في هجائه متئدا هادئا حتى يختمه بقوله :

خالي ابن كبشة قـــد علمت مكانه وابـــو يزيد ورهطـــه أعمامـي
واذا أذيت ببلـــدة ودّعتهـــا ولا أقيم بغـــير دار مقـــام (٩٤)

وحينما نضع بجانبه هجاء بشار او ابي العتاهية يتضح ما اشرنا اليه من اختلاف الهجاء باختلاف الشخصيات : والسبب في ذلك ان كل إناء بما فيه ينضح ، وان اهل المروءة يتقون العبث بأعراض الناس محافظة علـــى أعراضهم . ومن ذلك ما يرويه ابن قتيبة (٩٥) من ان قائلا قال للعجاج : انك لا تحسن الهجاء . فقال : ان لنا أحلاما تمنعنا من ان نَظلم وأحسابا

---

٩٢ ـ وفيات الاعيان ج ١ ص ٨٩ .

٩٣ ـ ديوانه شرح السندوبي ص ١٧٨ .

٩٤ ـ أذى على وزن بقي ، والمصدر أذى : معناه تأذى . ولا يصح ان يكون مبنيـــا للمجهول ، اذا كان يجب ان يقال فيه أوذيت .

تمنعنا من ان نظلم وهل رايت بانيا لا يحسن ان يهدم .

اما اهل السفه فليس لهم من الاحساب والانساب ما يغارون عليه او يعملون على صيانته . فلا يضيرهم بعد ذلك ان يهاجموا الناس او يتعرضوا لهجومهم .

وقد استغل المجان من شعراء القرنين الرابع والخامس الهجري المجون في الهجاء أوسع استغلال وأسوأه والقارىء في يتيمة الدهر للثعالبي يرى من ذلك ما يسوءه ومنه هجاء ابي القاسم الحسين بن الحسين الواساني لابن ابي اسامة ، وفيه يقول :

يا ساكني حلب العوا م صم جادها صوب الغمامه(٩٦)
أنا في مدينتكم غريـ ـب لست من اهل الاقامه

ثم يقول بعد قليل :

واذا بأسود كالفنيـ ـق يقل شيئا كالدعامة
واذا بشيخ تحته حسن الوسامة والقسامة (٩٧)
والشيخ يعصر تحته قد بل من عرق حزامه

الى اخر ما قاله فيها .

وفي المدح تغيرت المثل العليا تبعا لتغير الحياة الاجتماعية ، والمعايير الخلقية ، فبعد ان كانت الشجاعة والكرم وحماية الجار هي اهم ما يدور على ألسنة المادحين صرنا نرى أوصافا ترسم لنا شخصية مثالية غير تلك التي رسمها العصر الجاهلي لنفسه على ألسنة شعرائه ، شخصية تتحلى برقة الحاشية وعذوبة الروح والظرف وغير ذلك من الصفات التي يطلبها مجتمع متحضر راق يعيش في ظلال بني العباس (٩٨) ونستطيع ان نتبين ملامح تلك الشخصية في قول ابي نواس يمدح الرشيد :

ملك تطيب طباعه ومزاجه حلو المذاق على فم المتذوق

---

٩٥ ـ الشعر والشعراء ص ٢٦ .

٩٦ ـ اليتيمة ج ١ ص ٢٩٥ .

٩٧ ـ الشيخ في هذا البيت والذي يليه ابن ابي أسامة .

٩٨ ـ ان المجتمعات كلما ارتفعت قل حديثها عن الشجاعة والكرم لعدم حاجتها اليها حيث تتكفل الحكومات باطعام المحتاج وحماية الضعيف .

او في قول ابي تمام يمدح أبا سعيد الثغري :

لـك هضبة الحلم التي لو وازنت اجأ اذن ثقلت وكـــان خفيفـــا
وحلاوة الشيم التـــي لو مازجت خلق الزمان الفدم عاد ظريفـــا (٩٩)

او قوله فيه :

قطب الخشونة باللـيـــان معاقبا فغدا جليـــلا في القلـوب لطيفـا
هزتـــه معضلة الامـــور وهزها واخيـف في ذات الاله وخيفـــا
يقظـــان احصدت التجارب عقده شزرا وثقـــف حزمـه تثقيفـــا
واستل من آرائـــه الشعـل التي لـــو انهن طبعن كن سيوفـــا

ولعل ملامح تلك الشخصية الحديثة تبدو أوضح ما تكون في تلـك القصيدة التي أرسل بها أبان اللاحقي الى الفضل بن يحيى يزكي بها نفسه عنده وفيها يقول أبان :

انـــا مـــن بغية الامـــير وكنز مـن كنوز الامير ذو اربـــاح (١٠٠)
كاتـــب حاسب خطيـــب اديب ناصح راجـــح علـــى النصـــاح
وظريف الحديث مـــن كل فـــن وبصـــير بترهـــات المـــلاح
شاعـــر مفلـق أخـف مـن الريـ شـة مما يكــون تحت الجنـــاح
ايمـــن الناس طائرا يـوم صيد لغـــدو دعيـت او لـــرواح
ابصر الناس بالجـــوارح والخيل وبالخـــرد بالحســـان المـلاح
كـــل ذا قد جمعت والحمد للـه م علـــى انني ظريـف المـــزاح
لست بالناسك المشمـر ثوبيـــه م ولا الماجن الخليـــع الوقـــاح

وكأنما كان ينبغي للشخصية الحديثة ان تجمع بين عذوبة الخلق وجمال الخلق ولذا يحرص أبان على الاشارة الى الاخيرة حين انتهى من الاولى :

لست بالضخم يا اميري ولا الفـــد م م ولا بالمجحـــدر الدحـــداح
لحيـــة جعـدة وجــــه صبيح واتقـــاد كشعلـــة المصبـــاح (١٠١)

واذا شئت ان تعرف مدى ما كان بين القدامى والمحدثين فضع قول

---

٩٩ ـ ونظيره قوله :

رقيق حواشي الحلم لو ان حلمه بكفيك ما رأيت في انـــه يرد

١٠٠ ـ الاوراق للصولي ص ٤ ، ٥ .

١٠١ ـ وازن ايضا بين هذا البيت وقول طرفة :

انا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كراس الحية المتوقـد

الاعشى في قيس بن معدي كرب :

واذا تكون كتيبــة ملمومــة   خرساء يخشى الدارعون نزالها
كنت المقدم غير لابس جنــة   بالسيف تضرب معلما أبطالها

بجانب قول ابي نواس في الرشيد :

يغشى الهجير بغرة مهديـة   لو شاء صان أديمها الاكنان
لكنه في الله مبتذل لها   ان التقى مسدد ومعان

ارأيت الى عظم الفرق بين الحياتين والعقليتين . اما الاول فيحمد لصاحبه تعرضه للموت دون جنة ، وأما الثاني فيستكثر على ممدوحه التعرض للشمس دون وقاية .

اما الفخر فقد ظل على ما كان عليه في شعر ذوي الاحساب من أمثال الشريف الرضي الذي يقول مفتخرا بأسرته وعشيرته :

انا من علمت قديمه وحديثه   علم اليقين وان جهلت فسائل
قومي الملوك وخيم نفسي خيمها   أفلج بمثل أواخري وأوائلي

ولكن ظهر الى جانب ذلك روح جديدة اهم ما تمتاز به انها فردية يفخر فيها الشاعر بنفسه لا بقبيلته ، لان الروابط القبلية ضعفت ، فأصبح كل فرد يشعر باستقلاله الذاتي في ظل الدولة وحمايتها وصار فخر الشعراء بآدابهم ونباهة شأنهم اكثر من فخرهم بالشجاعة وحماية الجار وغيرها من المثل العليا عند اهل الجاهلية كما ترى في قول ابي الطيب :

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي   وأسمعت كلماتي من به صمم
انام ملء جفوني عن شواردها   ويسهر الخلق جراها ويختصم

وكثرت فيها المبالغات الدالة على الغرور كما ترى في قول ابي العلاء:

بأي لسان ذامني متجاهل   علي وخفق الريح في ثناء
ومن هو حتى يحمل النطق عن فمي   اليه ويمشي بيننا السفراء

وأخيرا نحب ان نلفت الانظار الى ان تحول الفخر والمدح على النحو الذي ذكرناه ، هو الذي يمكن ان يسمى تطورا ، حيث تغيرت فيه المثل العليا تغيرا كبيرا . اما ما ظهر في شعر الامويين من تمدح بالدفاع عن الاسلام والمسلمين ، بدلا من الدفاع عن القبيلة كما هو الشأن في الشعر الجاهلي ، فلا يمثل تحولا خطيرا في الشعر ، حيث ان الموقف في الحالين لا يعدو الاشارة الى بلاء القائد او الرئيس في الدفاع عن المجتمع الذي يعيش فيه والتقاليد التي تحكم ذلك المجتمع .

جولات الشعراء في جوانب النفس البشرية

تعمدنا ان نختم مظاهر التجديد والتطور في أغراض الشعر العربي بالحديث عن النواحي النفسية لخطورتها واتصالها الوثيق بتطور الفكر العربي والحياة العربية . فالنفس البشرية لم تكن من الموضوعات التي أطال القدماء الخوض فيها او التعرض لها كما يبدو في أشعارهم . اما في العصر العباسي عصر التطور والتجديد فان النفس البشرية ونزعاتها المختلفة صارت تحظى بالكثير من ملاحظة الشاعر ، ملاحظة لا تلبث ان تترجم الى أبيات ومقطوعات شعرية . ويأتي المتنبي وأبو العلاء وأبو العتاهية في مقدمة الشعراء العباسيين من هذه الناحية ، وان اختلفت دوافعهم الى ذلك ، كل بحسب مزاجه وظروفه الخاصة .

فالاول كان ناقما على الناس لانه يحب نفسه ، ولذا كان يصور نفسه دائما بصورة المحسود المغبون ، والناس من حوله حسدة ظالمون ، أقزام يقحمون انفسهم في مواكب العمالقة . ومعظم فلسفته تدور حول هذه المعاني .

اما الثاني فكان عاتبا على الناس ، لانه يحبهم ، عاتبا الرعاة لانهم يسيئون الى الرعية ، وعلى الرعية لانها لا تحسن الى نفسها . وحاول اصلاح هؤلاء وأولئك ولكنه تعجل النتائج فيئس . ونادى بما ينادي به اليائسون ، نادى بالانتحار ، انتحار الانسانية جمعاء عن طريق الامتناع من التزاوج والتوالد ، وأخذ يردد الاناشيد في فضل الموت على الحياة .

اما الثالث فلم يكن يعاني آلام انتفاخ الشخصية كالمتنبي ، بل على العكس كان يعاني تلك الآلام التي يعانيها المرء حينما يحس بتفاهته ، ولذا حقد على طائفة خاصة من المجتمع ، وهي التي كانت تفوقه حسبا ونسبا وسلطانا . ولم يكن الموت الذي اكثر من ذكره سبيلا الى القضاء على العالم ووضع حد لما به من شرور ، كما هو رأي ابي العلاء ، ل سبيلا الى القضاء
ووضع حد لما به من شرور ، كما هو رأي ابي العلاء ، بل سبيلا الى القضاء على الامتيازات التي يتمتع بها السادة والتسوية بينهم وبين أفراد الطبقات

والناس في غفلاتهم ورحا المنية تطحن

كان باعترافه أحب أقواله اليه ، لانه يشتمل على أبلغ وسائل التحطيم وهو الطحن .

وقد اتخذنا من هؤلاء الثلاثة نماذج فقط ، وإلا فهناك كثيرون بجانب هؤلاء كانت لهم مشاكلهم . وكل ما نريد ان نلفت الانظار اليه هو ان الحضارة الحديثة جرت في أذيالها مشاكل مختلفة ، منها تعقد الحياة الاجتماعية بانقسام المجتمع الى طبقات متفاوتة في الحقوق والواجبات تفاوتا يدعو الى التنافس والتحاسد ، وقديما كان الناس متساوين او كالمتساوين في ظل النظام البدوي الديمقراطي المتقشف .

وقد زاد من شعور الناس بذلك التفاوت ، الثقافة الحديثة التي عرفت الفرد بحقوقه وواجباته ، حين بدأ علماء الكلام يناقشون نظرية الخير والشر والصلاح والاصلاح ، وهل يجب على الله مراعاة العدل في معاملة عبده او لا يجب ، واذا كان المرء اصبح لا يطيق أن يقع عليه غبن حتى من خالقه الذي لا يسأل عما يفعل ، فكيف به لو كان من بشر مثله يأكل الطعام ، ويمشي في الاسواق .

وليس معنى هذا ان القدماء لم تكن لهم مشاكلهم ، او ازماتهم النفسية بلى ولكن لم يكن لديهم الفراغ الكافي للانصات اليها ، او التفكير فيها كما فعل المحدثون بعدهم ، وان شئت فاستمع الى ما يؤيد هذه الدعوى من كلام هؤلاء وأولئك ، يقول طرفة بن العبد :

---

١ ــ من ذلك قوله :

وافترقنا في المقدرات وسوى الله في الموت بيننا فاستوينا

ديوانه ص ٢٥٦ .

لعمرك ما أمري على بغمـــة   نهاري ولا ليلي على بسرمـد (٢)

اما ابو العتاهية فيقول :

أقلب طرفي مرة بعد مـــرة   لأعلم ما فيالنفس والقلب ينقلب(٣)

او يقول :

يـــا نفس انـــي تؤفكينـــا   حتى متـــى لا ترعوينـــا (٤)
حتـــى متـــى لا تقلعــــ   م ين وتسمعين وتبصريــــن
اصبحت اطـول مـــن مضى   أمــــلا واضعفهـــم يقينـــا
يـــا نفس طـــال تمسكـي   بعـــرا المنى حينـا فحينـــا
يـــا نفس الا تصلحــــي   فتشبهـــــي بالصالحينـــا
وتفكـــــري فيمـــا اقـــو   ل لعـــــل قلبك ان يلينـــا

وهذا هو السبب في ان الفكر كثيرا ما يمتزج بالوجدان عند المحدثين كما ترى في قول المتنبي :

يـا ساقي أخمر في كؤوسكما   أم في كؤوسكما هم وتسهيـد
أصخرة انا مالي لا تحركنـي   هذي المدام ولا تلك الاناشيـد

فانه يناقش القضية مناقشة إهل المنطق او علماء النفس ليعرف السر في عجز الخمر عن التغلب على همومه ، وهل ذلك لنقص فيها ، ام لان طبيعته قد حالت فصارت لا تتأثر بما يتأثر به سائر الناس ؟ اما القدامى فيصورون مشاعرهم دون مناقشة او تأمل طويل كما ترى في قول طرفة .

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند (٥)

والذي نريد ان نصل اليه هو ما بدانا به من ان النفس البشرية صارت ميدانا لدراسة الشعراء وملاحظتهم ، ملاحظة ظهرت في انتاجهم الادبي على نحو لم يعهده الاوائل ولم يفكروا فيه ، فبعد ان كانت الازمة عند القدامى في الماء والمرعى ، او هكذا كانوا يعتقدون على الاقل ، صارت عند المحدثين

---

٢ ـ معلقته .
٣ ـ ديوان ص ٣٦ بيروت .
٤ ـ ديوان ص ٢٦٤ بيروت .
٥ ـ معلقته .

في النفوس والصدور ، كما ترى في قول المتنبي :

وكأنـــا لم يرض فينا بريب الد م دهر حتى أعانه من أعانـــا (٦)
كلمـا أنبت الزمـــان قنـــاة ركب المـــرء فـــي القناة سنانـا
ومـــراد النفوس أيسر مـــن أن نتعادى فيـــه وأن نتفانـــى
غـــير ان الفتى يلاقـــي المنايـــا كالحـــات ولا يلاقـــي الهوانـــا

او قول بشار :

ومـــا ضاق فضل الله عن متعفـــف ولكـــن أخلاق الرجال تضيـــق

ومن الموضوعات التي شغلت المحدثين من الشعراء مسائل القضـــاء والقدر وعبث الحظ بالناس ، فقد أطالوا من ذلك عجبهم وحيرتهم كما ترى في قول بشار :

طبعت على ما فيّ غـــير مخيّر هواي ولو خيّرت كنت المهذبـــا
أريد فلا أعطـــي وأعطـــي ولم أرد وقصر علمـــي ان انال المغيبـــا
فأصرف عـــن قصدي وعلمي مقصر وامسي وما أعقبت الا التعجبـــا

ويقول ابو العتاهية قريبا من ذلك :

نبغـــي من الدنيا الغنى فتزيدنـــا فقرا ونطلب ان نصح فنمرضـــا (٧)

ويقول ايضا :

أيـــا دنياي مالـــي لا أرانـــي أسومك منـــزلا الا نبابـــي (٨)
الا واراك تبـــذل يـــا زمانـــي لي الدنيـــا وتسرع باستلابـــي

وقد اختلفت مواقفهم مما يكرهون من أمور الحياة والأحياء ، فحينا يلجأون الى المغالطة فيقول قائلهم :

تصفو الحيـــاة لجاهـــل او غافل عما يرام بـــه وما يتوقـــع (٩)
ولمن يغالـــط فـــي الحقائق نفسـه ويسومها طلب المحـــال فتطمـــع

---

٦ ــ شرح العكبري ج ٤ ص ٣٤٠ .
٧ ــ ديوانه ص ١٣٨ .
٨ ــ ديوانه ص ٢٤ .
٩ ــ ديوان المتنبي شرح العكبري ج ٢ ص ٢٦٩ .

واحيانا يملئون تلك المغالطة التي لا تقضي على المشكلة بل تعقدها ، وترسبها في أعماق النفس ، فيرتمون في أحضان اليأس ، ويجدون في ظلاله الوريفة بردا وسلاما على أكبادهم المقروحة فيقول بعضهم عاتبا على الدنيا ، شاكيا صروفها :

قطّعت منك حبائل الآمال — وحططت عن ظهر المطي رحالي (١٠)
ويئست ان أبقى لشيء نلت مما — م ما فيك يا دنيا وان يبقى لي
فوجدت برد اليأس بين جوانحي — وارحت من حل ومن ترحال
ولئن يئست لرب برقة خلب — برقت لذي طمع ولمحة آل
ما كان أشأم اذ رجاؤك قاتلي — وبنات وصلك يعتلجن ببالي
فالآن يا دنيا عرفتك فاذهبي — يا دار كل تشتت وزوال

وقد كان من اثر هذه الملاحظة الدقيقة مع الحس المرهف ان كثرت في اشعارهم عبارات تدل على ادراكهم التام لاسرار النفس البشرية ومن ذلك قول ابي الطيب الذي يعدّ بحق استاذ الشعراء جميعا في هذا الاتجاه.

واحتمال الاذى ورؤية جانيه — غذاء تضوي به الاجسام

فان المتنبي بمثل هذا البيت ينبىء عن ادراك فطري لراي علماء النفس في الانفعالات والعواطف المكبوتة (١١) ، وما تسببه للمرء من متاعب نفسية واضطرابات عصبية وخلق حالة مزاجية تستمر مع المنفعل وقتا يطول ويقصر حسب استعداده الشخصي .

وكان الشعراء قديما لا يفطنون الى مثل تلك الآثار حين يدعو العقلاء منهم الى الاحتمال والمصانعة كما نرى في قول زهير :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة — يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم (١٢)

---

١٠ ــ ديوان ابي العتاهية ص ١٩٤ .

١١ ــ راجع ما كتبه الاستاذ حامد عبد القادر في الانفعالات والعواطف بالجزء الثالث من كتابه «علم النفس» بالاشتراك مع الاستاذ الابراشي . واقرأ بصفة خاصة صفحات ١٧٠ ، ٢٣٨ .

١٢ ــ ينبغي ان يلاحظ ان الاحتمال والمصانعة ليست من خلق العربي الذي يميل الى الصراحة والمجازاة على الشر بمثله وزهير نفسه يقرر ذلك العرف الجاهلي بعد أبيات قلائل من البيت الاول حيث يقول : =

واذا شئت موازنة اخرى بين العقلية الحديثة والقديمة فضع قول ابي الطيب :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

بجانب قول زهير :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلم

فسترى ان زهيرا يمثل احد شيوخ القبائل وحكمائها حين يتحدثون عن قانون البادية ومنطق الغابة ، بينما يذكرنا المتنبي بمباحث علم النفس في نفسية الطفل وهل هي خيرة بطبعها ، ام انا نحمل بين جوانحنا رواسب وراثية توجهنا الى الخير او الشر .

بل مالي لا اعود الى بيتين آخرين يكملان مع البيت السابق تصوير الثورة النفسية التي كانت تعصف براس الشاعر في تلك الاثناء ويوضحان مدى تغلغل فكره في فهم الحياة والأحياء واعني قوله :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

الا يدل البيت الاول على اتساع بل تطور خطير في آفاق الفكر العربي؟ فبينما كان القدامى يحمدون التعقل والتدبر ، فرحين بما يصل اليهم من رشاش يسير يرطب البدن ويبلّ الصدي ، اخذ هو يشكو غرقه في ذلك الخضم الواسع ، وينشد النجاة منه ، ويحسد الواقفين على شواطئه حيث الامن والدعة والغفلة . ألا يؤكد هذا البيت ما قلناه سابقا من ان الثقافة الحديثة كانت شرا على اهلها حيث فتحت أعينهم على ما حولهم من مشاكل ومفارقات غفل عنها الجهال فاستراحوا واراحوا ، على حين أطالوا هم التفكير فيها والاسى لها فأتعبوا انفسهم وأتعبوا الناس معهم .

= ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وليس معنى هذا ان زهيرا يناقض نفسه ولكنه في الاول مثالي موجه وفي الثاني واقعي مصور وشبيه بقول زهير الاول قول السموأل :

وان هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس الى حسن الثناء سبيل

اما البيت الثاني فيمثل يقظة الشاعر لما يدور حوله ، واحساسه بخطر قوي الشر المتكتلة في كل جهة من جهات الحياة ، واصرارها على ان يكون لها الغلبة والسلطان ، رضيت الشرائع السماوية ، والوشائج الانسانية ام سخطت ، مما يجعل ازهد الناس في الصراع مضطرا الى ان يخوض ضدها حربا مدمرة ، محافظة على شرفه ، واحتفاظا بحياته .

وقد لا يكون هذا الاذى الذي يتطاير الينا شرره حادا حاسما حتى نحسمه بعمل ايجابي سريع مهما كلفنا ، بل منغصات صغيرة لا تكاد تنقطع ، كلما اغلقت دونها بالحلم والاحتمال بابا نفذت اليك من باب اخر بحيلة او اخرى وذلك هو ما يعنيه ابو العتاهية حين يقول :

أرقع من دنياي دنيا دنية ودارا كثيرا وهنها وخروقها (١٣)

واذا كان معظم ما أوردناه من شواهد يرجع تقريبا الى نزعة واحدة هي سخطهم او سوء ظنهم بالحياة والأحياء ، فان هناك أبياتا اخرى تدل على انهم حاولوا حل تلك الازمة الحادة التي كانت تنتابهم من وقت لاخر ، لا عن طريق اليأس او المغالطة الصريحة كما قدمنا ، بل عن طريق مقاومة اليأس بالامل والتشاؤم بالتفاؤل وتلمس الخير في ثنايا الشر ، وخيوط الضوء الدقيقة في طيات الظلام الحالك كما نرى في قول ابي العتاهية :

كم نعمة لا يستقل بشكرها الله في طي المكاره كامنة (١٤)

وقد احالوا اليأس المرير الى زهد عذب مريح كما نرى في قوله ايضا :

وجدت الروح جدب العيش لما عرفت العيش مخضا واحتلابا

وكأنهم بذلك يرثون لمن لا يزال متعلقا بالدنيا من اهلها ، وهل راينا شاعرا قبل ابي العتاهية يرى في الفقر زينة وبهاء فيقول :

ولقد عجبت من المثمر ماله نسي المثمر زينة الإقلال

وربما هدتهم الفطرة السليمة الى بعض ما نستعين به الان في ضوء علم النفس على ضبط انفعالاتنا ، وتهدئة أعصابنا امام ما نكره من أمور

---

١٣ ـ ديوان (بيروت) ص ١٧٧ .
١٤ ـ الموازنة ص ٤٠ .

الدنيا ، وذلك بتغيير الجو العام حولنا (١٥) كما نرى في قول ابي العتاهية:

لا يصلح النفس ان كانت مدبرة الا التنقل من حال الى حال (١٦)

كما أدركوا اهمية التناسي او النسيان في اماتة الآلام النفسية مستعينين على ذلك بالزمن فيقول قائلهم :

واذا مضى هم امرىء فقد انقضى ان الهموم اشدهن الاحداث (١٧)

وبعد فقد حاولنا فيما مضى ان نعني بما كان من اشعارهم متفقا مع ثورتهم على الحياة والأحياء فقط . وإلا فهناك قدر غير ضئيل من أشعارهم النفسية بجانب ما ذكرنا ، يستطيع القارىء ان يعثر عليه بسهولة فمن ذلك مثلا قول المتنبي :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

وينبغي ان نلفت نظر القارىء الكريم الى اننا لم نكتب هذا فيما يسميه النقاد بفلسفة هذا الشاعر او ذاك ويعنون به نظرته الى الدين او السياسة او الزواج ونحو ذلك (١٨) وانما اردنا امرا واحدا فقط وهو ادراك شعراء العصر العباسي لما لم يكن يدركه سلفهم من أسرار النفس البشرية ، وملاحظتهم الدقيقة لها .

والآن وقد انتهينا من الحديث عن أغراض الشعر نحب ان نشير الى اننا جعلنا ما اصابها من تغير مظهرا من مظاهر تطور الشعر العربي لأمرين :

أولهما : كونها صدى لتغيرات وتطورات في الحياة الاجتماعية والسياسية كشعر ابي العتاهية الذي يعد من بعض نواحيه مظهرا من مظاهر تعقد الحياة الاجتماعية والنفسية ، وتناحر الطبقات وتحاسدها ، وكالخمر والمجون والغزل بالمذكر التي انبعثت في الغالب عن موجة الزندقة التي غزت الدولة من الخارج وروح اليأس التي دبت في انحائها من الداخل.

---

١٥ ـ راجع كتاب الاستاذ حامد عبد القادر والابراشي في «علم النفس» ج ٣ مبحث ضبط «الانفعالات» .

١٦ ـ ديوان (بيروت) ص ٢٢٣ .

١٧ ـ المرجع السابق ص ٦٠ .

١٨ ـ من أمثلة ذلك ما كتبه الدكتور مهدي علام بعنوان «فلسفة المتنبي» في مجلة دار العلوم ـ يونية سنة ١٩٣٦ .

وهذا هو السبب الذي يجعلنا لا نلقي بالا لما كان من مجون الوليد بن يزيد في العهـــد الاموي ، لان تلك الحركة كانت محصورة في اضيـــق الحدود ، لم يتأثر بل لم يشعر بها المجتمع . واهم من هذا كله انها لم تكن مظهرا من مظاهر تطور الحياة الاجتماعية لدى طائفة كبيرة من الشعب ، على نحو ما حدث في العصر العباسي ، بل لدى شخص من الاشخاص أو شرذمة من الناس .

ثانيهما : اتساع شقة الخلاف بين ماضي الشعـــر وحاضره . واذا اتخذنا الغزل الحسي مثلا نموذجا لذلك راينا التشابه القوي ان لم يكن التام بين غزل امرىء القيس وعمر بن ابي ربيعة ، ثم الاختلاف التام بينهما جميعا وبين غزل بشار بن برد ان صح ان يسمى ذلك غزلا ، وهذا قول لا يلقى القاء بل له ما يؤيده من التاريخ ، الا ترى ان ابن عباس على علمه وورعه ربما استمع الى شعر ابن ابي ربيعة في بيت الله ، على حين كان يخشى المحافظون من اهل بغداد ان يؤثر شعر بشار على نسائهم تأثيرا سيئا.

الفصل الثالث

عناصر الشعر العربي ومدى ما أصابها من تطور أو جمود

لعل القارىء كان يتوقع ان نقدم هذا البحث على مبحث الاغراض . ولكننا خشينا ان نكون صورة من ذلك الضابط الذي سأله رئيسه عن السبب في إحجامه عن مهاجمة إحد الحصون ، فأجابه بأن لديه مائة سبب احدها ان الذخيرة قد نفدت ، مما دعا القائد الى اغلاق سمعه دون ما جاء بعد ذلك من اسباب . وإلا فاننا لم نغفل عن ان هذا الفصل هو اهم واخطر خطوات الكتاب ، وسيكون واجبنا فيه استعراض العناصر التي اشرنا اليها في صدر الكتاب ومعرفة مدى ما اصابها من تغير او استقرار واسباب ذلك . ولنبدأ بالطبع الذي بدانا به هناك .

الطبع ـ العنصر الاول :

قد عرفنا فيما سبق ان العرب كانوا يتقبلون كل ما تجود به قرائحهم، دون طويل مراجعة او تنقيح ، وظلوا كذلك حتى ظهرت مدرسة زهير ، فجودت لغة الشعر وصقلته وتنخلت معانيه ، ولكن ذلك لم يحد بالشعر

كثيرا عن اتجاهه الاول . ولذا ظل خلال العهد الاموي يسير على نفس النهج القديم . وعرفنا ان ميل العرب الى الجريان مع الطبع في اشعارهم راجع الى بساطة حياتهم البدوية وبعدها عن التكلف والتعقيد .

والآن وقد جاء العصر العباسي ، وتغير وجه الحياة ، وتطور العربي من بدوي يفترش الرمال الصفراء النقية وتحيط به إبله وضأنه الى رجل متحضر يتمتع بكل ما وصلت اليه مدنية العصر العباسي – المشرق رغم ظلام العصور الوسطى – من ألوان الترف والنعيم المادي متمثلا في الرياش والزخرف ، والادبي متمثلا في الوان الثقافة التي عرفها عصر الرشيد والمأمون الان وقد حدث ما حدث ، ماذا كان موقف الشعر والشعراء من كل ذلك ؟ لم تتبدل سنة الله ولم تتحول ، بل حدث ما يحدث عادة في جميع شعوب الارض حين تتغير ظروفها ، وتتسع امامها آفاق الحياة ، حيث يستجيب قوم لتلك الظروف الجديدة استجابة تامة ، بل ويسرفون فيها ان صح ذلك التعبير ، بينما يقف قوم آخرون موقف التردد والاشفاق من ذلك الجديد الذي لم يعرفوه . والتشبث او الحنين الى ذلك القديم الذي عرفوه واطمأنوا اليه . وكثيرا ما تتدخل عوامل مختلفة شخصية وغير شخصية لتوجيه كل فريق لما خلق له . وليس معنى هذا ان هناك فريقا يقف دائما والى الابد في وجه تيارات التطور وقوف الجبال الرواسي . بل كل ما هنالك ان الناس دائما امام موجات التجديد اشبه بالمواد المختلفة من اخشاب واحجار ومعادن حين يجرفها السيل ، فيسرع بعضها الى امتطاء ظهره ، والسير معه حيثما اتجه ، بينما يسير بعض متثاقلا كأنه مقيد بالسلاسل او مرهق بالاغلال .

وعلى مقتضى تلك السنة ظلت طائفة من الشعراء تحتذي الاوائل من حيث الجري مع الطبع ، وضع الهدف النهائي فوق الافكار الجزئية الجانبية وعنيت بعذوبة العبارة وموسيقيتها اكثر من عنايتها بذلك الزخرف الاضافي والجمال المكتسب الذي يتمثل في المحسنات البديعية .

وكان على راس هذه الطائفة ابو العتاهية والسيد الحميري والبحتري ومالت طائفة اخرى الى العناية بالصورة اللفظية وإثقالها بالمحسنات البديعية من جهة ، وبالمعاني عمقا ودقة واحاطة من جهة اخرى ، وعلى راس هذه الطائفة مسلم بن الوليد وابو تمام . ويمكن ان نسمي الطائفة الاولى بأهل الطبع والثانية بأنصار الصنعة . وانا لذاكرون لك اربعة نماذج اولها جاهلي ، وثانيها اموي ، والثالث عباسي لامام اهل الطبع ، والرابع عباسي ايضا ولكن لحامل لواء اهل الصنعة ، لترى معنا مدى ما بين بعضها وبعض

من توافق او تخالف . ولتكن جميعها في المدح . قال الاعشى يمدح قيس ابن معدي كرب :

عودت كندة عادة فاصبر لهـا   اغفر لجاهلها وروّ سجالهـا (١)
وكن لها جمـلا ذلولا ظهـره   احمل وكنت معاودا أحمالهـا
واذا تحـل مـن الامور عظيمة   نفسي فداؤك فاكفهم أثقالها
فلعمر من جعل الشهور علامة   قدَرا فبيّن نصفها وهلالهـا
ما كنت في الحرب العوان مغمرا   اذ شب حر وقودها أجزالهـا
وسعي لكندة غير سعي مواكـل   قيس فضر عدوّها وبنى لهـا
واهان صالح مالـه لفقيرهـا   وأسا وأصلح بينها وسعي لها
ما ان تغيب لها كما غاب امرؤ   هانت عشيرتـه عليه فغالهـا
وترى لـه ضرا على اعدائـه   وترى لنعمته على مـن نالهـا
اثرا مـن الخير المزيّن اهلـه   كالغيث صاب ببلدة فأسالهـا

وقال جرير يمدح هشام بن عبد الملك :

امير المؤمنين جمعت دينـا   وحلما فاضلا لـذوي الحلوم (٢)
لـك المتخيران أبـا وخـالا   فأكـرم بالخؤولـة والعموم
فيابن المطعمين اذا شتونـا   ويابن الذائدين عـن الحريم
واحرزت المكارم كـل يوم   بغرة سابـق وشظا سليـم
نما بـك خالد وأبـو هشـام   مع الاعياص في الحسب الجسيم
وتنزل من أمية حيث تلقـي   شؤون الراس مجتمع الصميـم
وأعداء زويتهـم بحـرب   تكف مسالـح الزحـف المقيـم
ترى للمسلمين عليـك حقـا   كفعـل الوالـد الرؤف الرحيم
وليتم امرنـا ولكـم علينـا   فضول في الحديث وفي القديم
اذا بعـض السنين تعرقتنـا   كفى الايام فقد ابـى اليتيـم

وقال البحتري يمدح الفتح بن خاقان :

تذود الدنايا عنـه نفس ابية   وعزم كحد الهند واني قاطع (٣)

---

١ ــ ديوانه ص ٢٩ وهي مشروحة فيه شرحا جيدا .
٢ ــ ديوانه ص ٥٠٧ .
٣ ــ ديوانه ج ٢ ص ٧٧ .

مبيد مقيل السر لا يدرك الذي — يحاولها منـه الاريب المخـادع
ولا يعلم الاعداء من فرط عزمه — متى هو مصبوب عليهم فواقع
خلائق لا تنفك توقـف حاسدا — له نفس فـي اثرها متراجـع
ولن ينقل الاعداء مجدك بعدما — تمكن رضوي واطمأن متالـع
أأكفرك النعماء عندي وقد نمت — على نمو الفجر والفجر طالـع
وانت الذي اعززتني بعد ذلتي — فلا القول مخفوض ولا الطرف خاشع
واغنيتني عن معشر كنت برهة — أكافحهم عن نيلهم واقـارع
فلست ابالي جاد بالعرف باذل — على راغب او ضن بالخير مانـع
واقصرت عن حمد الرجال وذمهم — وفيهم وصـول للاخاء وقاطـع

وقال ابو تمام يمدح عياش بن لهيعة :

له أفعال عياش وشيمتـه — تزيده كرما أن ساس او سيسا(٤)
ما شاهد اللبس الا كان متضحا — ولا أرى الحق الا كـان ملموسا
فاضت سحائب من انعامه فطمت — نعماه بالبؤس حتى اجتثت البوسا
يحرس بالبذل عرضا ما يزال من الـ — م آفات بالنفحات الغر محروسا
فرع علا في سماء العز متخذا — اصلا ثوى في قرار المجد مفروسا
ليث ترى كل يوم تحت كلكله — ليثا من الانس جهم الوجه مفروسا
أهيس أليس لجـاء الـى همم — تغرق الاسد في آذيها الليسـا
تجري السعود له في كل نائبة — نابت وان كان يوم البأس منحوسا
نافس اهل العلا فاحتاز علقهم — منهم فأصبح معطي الحق منفوسا
له لواء ندي مـا هز عاملـه — الا اراك لواء البخل منكوسـا

واظن ان النماذج واضحة فيما قدمنا ، وان الشبه بين النماذج الثلاثة الاولى واضح من حيث جريانها مع الطبع وعنايتها بالغرض العام وبعدها عن المحسنات بخلاف شعر ابي تمام الذي يشبه المعادلات الجبرية فترى فيه الفرع بأزاء الاصل وسماء العز في مقابل قرار المجد وترى فيه الـى جانب ذلك استعارات مركبة او مزدوجة او ما شئت لها من الاسماء . فانه لم يكتف بجعل صاحبه اسدا حتى استعار له كلكلا ، وهكذا يخلق لنا في خياله العجيب حيوانا لم يخلقه الله تعالى له أنياب الاسد واظفاره وكلكل الجمل وجرانه .

---

٤ ــ ديوانه ص ١٢٨ .

ولا بأس على ممدوحه في ان يكون منحوسا (٥) . ما دام ذلك يحقق نوعا من البديع الذي أولع به .

ومن عجب ان معظم النقاد ومؤرخي الادب قد اهتموا بناحية الزخرف اللفظي وما يحمله ذلك الزخرف من جمال او قبح . ونسوا ان هذا الزخرف عند اهل الصنعة توام لمجهود اخر في ميدان المعاني لا يقل خطورة عن الجانب اللفظي ، والتنبيه الى تلك الصلة بين التوامين تساعدنا على معرفة الدوافع التي دفعت زعماء مذهب الصنعة الى اعتناقه .

لقد كان إماما هذا المذهب مسلم وابو تمام (٦) بطلين من أبطال المديح ، وقفا حياتهما على هذه المهنة مهنة التكسب بالشعر ، وجعلاها مرتزقهما وشغلهما الشاغل ، فأحبا ان يقولا في الممدوحين قولا لم يسمع من قبل. والسبيل الى ذلك ان يحشدا في العبارة كل ما يتسع له جلدها من معان على حد تعبير ابي تمام ، ثم يخلعا عليها بعد ذلك من الحلى اللفظية بقدر ما تتسع ثروة الشاعر اللغوية ، وما تسعفه به ملكته الشعرية .

وهكذا نرى ان العناية بالالفاظ والمعاني مظهران مختلفان لفكرة واحدة هي الوصول بالشعر الى اقصى ما يمكن الوصول اليه من مراتب الابداع والكمال . ولكن الطريق امامهما لم يكن مفروشا بالورود والرياحين كما يحب بعض الناس ان يفعل بهم أولهم ، بل تعرض الاخير منهما لانواع من المحن والمتاعب .

اهمها ثورة انصار القديم عليه وعنفهم به . فقد كان للقديم انصاره ومعظمهم من الرواة وكان أشدهم عنفا به ابن الأعرابي . ولم لا ينصرون القديم ويتعصبون له ، وهو بضاعتهم ورأس مالهم . ولو رضوا عن الجديد، او سكتوا عن مقاومته لطغى على قديمهم ، وذهب بمجدهم . على انهم لو سألوا الله ان يشرب قلوبهم حب الانصاف فاستجاب لهم لوجدوا انفسهم امام خطر جديد ، هو صعوبة ما اتى به اهل الصنعة من معان بعيدة عن اذهانهم وتجاربهم . ومن ثم احبوا ان يستروا موقفهم فتعلقوا ببعض

---

٥ ــ نشير بذلك الى قوله :

تجري السعود له في كل نائبة نابت وان كان يوم البأس منحوسا

وشتان ما بين القولين .

٦ ــ انسطررنا الى اطالة الحديث عن ابي تمام لان في فهمه فهما المذهب الصنعة كما ذكرنا اعلى هذه السطور .

أخطاء ابي تمام وراحوا يتزيدون فيها ، ويتهكمون منه ومنها ، حتى يشغلوا الناس عن النقط الاساسية في قضية القديم والحديث ، وقد افاحوا الى حد كبير فبقيت آراء الناس حول هذا الموضوع مضطربة حتى هذه الساعة. ومع ان ابا تمام لم يعدم الانصار من أمثال ابي بكر الصولي فان ذلك لم يجده نفعا ، لانه كان في دفاعه شبيها بخصومه في هجومهم ، من حيث ان هؤلاء وأولئك ينظرون الى المسألة من زاوية واحدة تناسب رايهم الشخصي ويغمضون أعينهم عن بقية الزوايا ، فالانصار يركزون اهتمامهم على محاسنه محاولين فتح أعين الناس عليها ، والخصوم يعكسون الوضع فيهتفون بما يأخذونه عليه من مآخذ ويصمون الآذان عما له من محاسن .

ولعل أخطر محاولة لدراسة مذهب الصنعة حتى الان هي تلك التي قام بها الدكتور شوقي ضيف وقد انتصر فيها لمذهب الصنعة ولإمامه (٧) ومع انه قد القى عليه ضوءا قويا الا انه نظر الى المسألة بذوقه الخاص (٨) ، وكان الاولى ان ينظر اليها في ضوء الذوق العام لجمهور القراء .

ونعود الى ما بدأنا به من مخالفة ابي تمام وصحبه لسنة القدامى في الجريان مع الطبع والبعد عن التكلف فنسأل انفسنا متى يكون الشعر مطبوعا ومتى يكون متكلفا ؟ وجواب هذا السؤال ان الشعر يكون مطبوعا اذا تمت له أمور ثلاثة .

أولها : صدوره عن شاعر مطبوع ، اي مستعد بمقتضى فطرته وتركيب جسمه لقول الشعر ، ولا يكون كذلك حتى يتم له رقة العواطف ، ودقة الاحساس والقدرة على تتبع مظاهر الجمال في الكون وتذوقه ، الى غير ذلك من الامور التي يكون بها الشاعر شاعرا والاديب اديبا (٩) .

ثانيها : جريان الشاعر مع طبعه ، اي انه لا يكفي ان يكون الشاعر مفطورا على قول الشعر ، حتى يصحب ذلك رغبة اكيدة في الاستجابة لذلك الطبع والجريان معه حيثما اتجه ، دون تعويق لتياره بالبحث عن معنى

---

٧ ـ راجع ما كتب عن ابي تمام في كتاب «الفن ومذاهبه» .

٨ ـ الدكتور شوقي كأبي تمام ثائر على التقاليد ، يضع الصنعة فوق الطبع ، ولا يضيره خفاء المعنى وسنتعرض لرأيه فيما بعد .

٩ ـ لابي عامر بن شهيد حديث حول هذا الموضوع في الرسالة التي كتب بها الى ابي بكر المعروف بأشكمياط (الذخيرة لابن بسام ـ القسم الاول ـ المجلد الاول) اخراج كلية الآداب ص ١٩٥ وما بعدها .

جديد او لفظ بديع . وهذا غالبا هو ما يشير اليه النقاد حينما يتحدثون عن الطبع والتكلف .

ثالثها : الا يحمل الشاعر نفسه على قول الشعر حملا ، بل ينبغي ان يكون راغبا فيه بدافع من نفسه . ولا يكون كذلك الا اذا كان تحت تأثير انفعال مناسب لموضوع الشعر . فاذا اتجه الى الهجاء فلا بد ان يكون اذ ذاك مغيظا محنقا ، وان حاول الرثاء وجب ان يكون محزونا ولعل هذا هو السبب في قول الفرزدق : يأتي علي وقت وخلع ضرس أهون عندي من قول بيت من الشعر «١٠» . وينصح ابن قتيبة بالذهاب الى الرياض ، والتقلب في اعطاف الطبيعة المشرقة لمن كان بصدد قرض شيء من الشعر «١١» ولعل ما اشرنا اليه من ضرورة كون الشاعر تحت تأثير انفعال مناسب يبين لنا السر في قوة تلك القصيدة «١٢» المشهورة التي قالها جرير في هجاء الراعي وقومه ، والتي يقال انها اجلتهم عن ديارهم فرارا من العار الذي صبه شيخ الشعراء عليهم . فقد قالها وهو يهذي كالمحموم ويهدر كالبعير على اثر مشادة بينه وبين الراعي «١٣» .

وشعراء العرب ونقادهم لم يكونوا يجهلون اثر الانفعالات القوية في اجادة الشعر ، فقد قال عبد الملك لأرطاة بن سهية : «هل تقوم اليوم شعرا ؟ قال : كيف اقول وانا لا اشرب ولا أطرب ولا أغضب وانما يكون الشعر بواحدة من هذه» «١٤» .

اما علم النفس الحديث فرايه في هذه المسألة واضح ، فانه يخبرنا ان الانفعالات المتنوعة من غضب وخوف وفرح وغيرها تحدث تغيرات وإفرازات مختلفة في الكبد وغيره من الغدد «١٥» يكون من نتائجها امداد الجسم

---

١٠ ــ الشعر والشعراء ص ١٨ .

١١ ــ نفسه .

١٢ ــ نعني تلك التي يقول فيها :

فغض الطرف انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وقد بلغ من اعجاب بعض النقاد بهذا البيت وقائله ان قالوا : «انه أهجى بيت قالته العرب» . طبقات الشعراء ص ١٣١ .

١٣ ــ طبقات الشعراء ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

١٤ ــ الشعر والشعراء ص ١٨ .

١٥ ــ باب الانفعالات من كتاب «في علم النفس» للاستاذ حامد عبد القادر ص ١٥٨ .

بنشاط غير عادي يمكنه من الاتيان بأمور ربما تعذر عليه الاتيان بها في الاحوال العادية ، والنفس هادئة ، والبال مستقر ، وكما يظهر أثر ذلك النشاط في الناحية الجسمية ، فيستطيع المرء رفع الاثقال الضخمة ، وقطع المسافات الطويلة ، فانه يظهر في الناحية العقلية والعاطفية فيستطيع الانسان التحليق في أجواء من الخيال ما كان يرقى اليها ، والنفاذ بفكره في أسرار ما كان ليهتدي اليها في أحواله العادية . ولا شك في ان أبا تمام قد استوفى الامرين الاول والاخير من تلك الامور التي اشترطناها للشعر المطبوع وكان ينقصه الثاني منها ، فاشتغاله بالمحسنات البديعية وتصيده لغرائب المعاني كان من غير شك يقطع تيار الطبع الجارف ويميل بالشاعر الى الغموض والتكلف . ونتائج ذلك خطيرة جدا وضارة بالشاعر .

اولا : لانها تهاجم الذوق العام عند فريق كبير من الناس . ونعني به ذلك النوع الذي يطربه المظهر الطبيعي رغم تواضعه اكثر مما تغريه الدهون والمساحيق .

ثانيا : ان استغلاق بعض ابيات ابي تمام على عقول القراء ، وما اكثرها، تحول بين استمتاع القارىء بالقصيدة كوحدة متكاملة ، لانها ستشغله عن جمالها بمحاولة فهمها وتجعل عمله فيها عقليا اكثر منه وجدانيا .

ونحن لا ننشد في الشعر حكمة ولا ثقافة ، ولا نجري فيه وراء الافكار المجردة ، ولكننا ننشد اولا وأخيرا المتعة الروحية التي لا تتم الا حين يغمرنا الشاعر بسيل من الاحساسات القوية والانفعالات الجياشة حول عواطف وموضوعات مشتركة بيننا وبينه . يقدمها الينا في أعذب لفظ وأيسر عبارة ولعل هذا هو السبب في قول القدامى من النقاد «ابو تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحتري» (١٦) .

ومع هذا فذلك القدر المتواضع من الحكمة والعلم الذي يمكن ان نصيبه من قراءة ابي تمام لا يتيسر الا لطائفة قليلة من المثقفين ، بينما يحرم معظمهم الاتصال بالشاعر أتصالا مباشرا ويحرم هو ايضا منهم . وما ظنك برجل يستعصي فهمه احيانا حتى على اقرب الناس اليه وأعرفهم بطريقته. ولن نذكر لك شيئا مما هتف به النقاد او اكثروا فيه ولكن اليك أبياتا ثلاثة لم يشر اليها احد من قبل قالها في ابي سعيد الثغري بعد ان فرغ من ذكر

---

١٦ ـ نحن نتفق معهم فيما يختص بالاول ولا نطلق الحكم في الثاني اطلاقهم كما سيتضح فيما بعد .

خدمته له ومدائحه فيه :

هذا الى قدم الذمام بـــك الذي   لو انه ولد لكان وصيفـــــا [17]
وحشا تحرقه النصيحة والهوى   لو انـــه زمـــن لكـــان مصيفـــــا
ومقيل صدر فيـــك باق روعـــه   لـــو انـــه ثغر لكـــــان مخوفـــــا

وتعجب حين تعلم ان الخطيب التبريزي على بصره بالشعر العربي بعامة وشعر ابي تمام بخاصة ترك البيت الاخير دون شرح ، وليس ذلك استهانة منه بشأنه فانه أشدها غموضا ولكن لاسباب يعرفها هو . وسنحاول ان ننثرها جميعا لتدرك مدى الغموض والعنت الذي يجره الشاعر على القارىء حين يسلك به شعابا ملتوية من الفكر يحار فيها الدليل ويمكن ان تقرأ هكـذا :

أضف الى ما تقدم من مدائحي فيك قديم حرمتي وسابق خدمتي وأكيد ولائي الذي لو صور بصورة البشر ، او اتخذ شخصية ولد لكان من الطاعة لك والفناء فيك بحيث يحسبه الناس وصيفا لا ولدا .

وبين جوانحي حشا أنضجته عواطفي الحارة بلهيبها حتى انه لو صح ان يكون زمنا تختلف عليه الفصول الاربعة ، لكان أشدها حرا وأعظمها هجيرا وهو الصيف .

ولكن وسط ذلك الحر اللافح والجحيم المستعر كهف متواضع باطنه فيه الرحمة وظاهره معرض للهجير . وفي ظلال ذلك الكهف الوريفة يكمن حدب لك وإشفاق عليك واحتياط لسلامتك ، وما هذا الكهف الا صدري ، الذي لو اتخذ صورة الثغر واتخذت تلك المعاني المختلفة صورة ما يعده الناس في الثغور لحماية ارضهم من عدد وذخائر لكان ذلك الثغر مخوفا لا يجرؤ احد على الاقتراب منه .

اذا كان هذا ما يقصده الشاعر فما أغربه ، وإلا يكن ، فهو أشد غرابة. ومع ذلك يقال لنا ان في فهم مثل هذا الشاعر متعة . حقيقة فيه متعة ولكنها منغصة . انها أشبه بما يناله المرء من انثى لعوب غضوب ، يختلط فيه اللذة بالالم والدموع بالبسمات .

وهكذا نرى ان أبا تمام كان يسرف في الغموض حقا ، وكان جديـرا بثورة القدامى عليه . ولكنه كان الى جانب ذلك محسنا جدا حين يسلم

---

١٧ ـ ديوانه ص ٢٠٨ .

بعض شعره من تلك الغرائب والعجائب التي جرها عليه مذهبه الجديد . ومن هنا نعلم ان موقف قدامى النقاد منه كان يشبه تماما قول الذي قال : «رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وسخطت فقلت اسوأ ما علمت ، وما كذبت في الاولى ووالله لقد صدقت في الآخرة» وكان اهم ما اخذه القدامى على ابي تمام قبح الاستعارة كما في قوله :

يا دهر قوم من أخدعيك فقد اضججت هذا الخلق من خرقك (١٨)

وقبح الجناس كما في قوله :

فاسلم سلمت من الآفات ما سلمت سلام سلمى ومها أورق السلم (١٩)

وسوء النظم كما في قوله :

يوم أفاض جوي أغاض تعزيا خاض الهوى بحري حجاه المزبد (٢٠)

واللحن كما في قوله :

ثانيه في كبد السماء ولم يكن لاثنين ثان اذ هما في الغار (٢١)

والخروج على تقاليد القدامى في الوصف كما في قوله :

رقيق حواشي الحلم لو ان حلمه بكفيك ماما ريت في انه برد (٢٢)

وأخذوا عليه النقل عن القدامى حتى قال بعضهم انه لم يخترع سوى ثلاثة معان (٢٣) . اما احسانه فكثير كثرة اساءته . وقد رايت نموذجا له في شعر الطبيعة السابق ونزيد هنا أبياتا اخرى قلائل منها قوله في ابي سعيد الثغري :

قطف الخشونة باللسان معاقبا فغدا جليلا في القلوب لطيفا

---

١٨ ـ موازنة ص ١١٦ .
١٩ ـ موازنة ص ١٢٢ .
٢٠ ـ موازنة ص ١٢٦ .
٢١ ـ موازنة ص ١٢ .
٢٢ ـ موازنة ص ٦٣ .
٢٣ ـ موازنة ص ٦٠ .

واذا مشى يمشي الدفقيّ او سرى   وصل السرى او سار وجيفا
هزته معضلة الامور وهزها   وأخيف في ذات الاله وخيفا
يقظان أحصدت التجارب عقده   شزرا وثقف حزمه تثقيفا

وقوله فيه ايضا :

لك هضبة الحلم التي لو وازنت   أجا اذن ثقلت وكان خفيفا
وحلاوة الشيم التي لو مازجت   خلق الزمان الفدم صار ظريفا

او قوله في الافشين على اختلاف الهدف في الشعرين :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه   حتى اصطلى سر الزناد الواري
نارا يساور جسمه من حرها   لهب كما عصفرت شق إزار

استفحال الثورة وتشعبها

استفحلت الثورة التي قام بها مسلم وأبو تمام وتشعبت وذهبت بتلك السمات العامة التي تركها الطبع في الشعر القديم وأحلت اخرى مكانها ، وكان اهم ما ظهر من ذلك :

اولا : الغوص على الطريف من المعاني والجديد من الأخيلة ، فقد كان من آثار التغير الشامل الذي طرأ على العقلية وعلى الذوق والخيال وعلى الحياة العربية بصورة عامة ، ان نبتت عند القوم آراء ومذاهب وأفكار لم تكن تخطر للقدامى ببال . ثم هم بعد ذلك لا يكتفون بهذا التفوق او النمو الطبيعي ، بل يجهدون انفسهم في تصيد الجديد والطريف من المعاني كيما يجعلوا من شعرهم مسرحا او مرآة لعرض معان وأخيلة لا عهد للسامعين بمثلها . وغايتهم من ذلك اظهار ما لهم على الاوائل من امتياز واليك عدة نماذج توضح ما ذكرنا ، يقول ابو العلاء المعري في الاول منها :

حياة عناء وموت عنا ... فليت بعيد حمام دنا
وموقد نيرانه في الدجا ... يروم سناء برفع السنى
يحاول عاش ستر القميـ ... ـص وملء الخميص وبرء الضنى
ومن ضمه جدث لم يبل ... على ما أفاد ولا ما اقتنى
يصير ترابا سواء عليه ... مس الحرير وطعن القنا

وفيها يقول :

ينافي ابن آدم حال العصو ن فاتيك أجنت وهذا جنى
اذا هو لم يخن دهر عليه قال الفريّ وجاء الخنا
وسيان من أمه حرة حصان ومن امه فرتني

ويقول ابو الحسن الانباري في الوزير ابي الطاهر محمد بن بقية وزير عز الدولة :

علو في الحياة وفي الممات لحق انت احدى المعجزات (١)
كأن الناس حولك حين قاموا وفود نداك ايام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا كلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء كمدهما اليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الارض عن أن يضم علاك من بعد الوفاة
اعاروا الجو قبرك واستعاضوا عن الاكفان ثوب السافيات

ارأيت هذا السيل الجارف من الافكار الجديدة ، بل العواطف الحارة التي تأخذ بالعقل والقلب معا ، فقد استطاع الشاعر ببراعته واخلاصه (٢) ان يحيل المهانة كرامة والهزيمة نصرا . انها مغالطة من غير شك ، فالبون شاسع بين الحقيقة المرة وبين الاخيلة المستعارة التي خلعها الشاعر على صاحبه فليس هناك ارتباط بين مصلوب في جذع وخطيب على منبر الا في خيال قوي جامح يذكيه قلب محب ثائر . ولكننا نتقبل تلك المغالطة عن رضا ، بل نجري وراءها ونتشبث بها تشبثنا بالاحلام السعيدة لاننا نريد ان نعيش في هذا العالم الخيالي المصطنع بعيدا عن الواقع المرير ، نريد ان ننسى ان الانسانية أهينت في شخص ذلك المصلوب ، وأن نعتقد اننا حين يدفعنا الحرص على الحق الى مثل هذه المواقف لن نقابل بشماتة الحاسدين، بل بإكبار المعجبين .

اما ابو العلاء في أبياته السابقة فلا يعمد الى الخيال ، بل يعتمد على الحقائق ، وكل ما هنالك انها حقائق دقيقة ، قلما يقف الشخص العادي عندها او يلاحظها ، اما الفلاسفة والمفكرون فطورا يسرفون في التفكير والتقدير كما فعل ابو العلاء هنا ، وتارة ينتقلون الى الطرف الاخر طفرة واحدة ، فيستهينون بالاخطار ، بل يرتمون في أحضانها فرحين ، كما فعل

---

١ ــ ابن خلكان (وفيات الاعيان) ج٢ ص ٨٣ .
٢ ــ يظهر من أبيات القصيدة ان الشاعر كان متأثرا حقا بالحادث .

الشاعر نفسه حين قال :

وهوّنت الخطوب عليّ حتى كأني صرت أمنحها الودادا

والشاعر لا يناقض نفسه . ولكنه يسلك نفس الطريق الذي يسلكه كل من أسرف في الاحتياط لنفسه ، ثم لم يظفر من كل ذلك بطائل . وفي هذا المعنى يقول ابو الطيب :

وهان فما أبالي بالرزايا لاني ما انتفعت بان أبالي (٣)

وبعد فهل يدري القارىء كم قرنا طواها ابو العلاء حين قال :

وموقد نيرانه في الدجا يروم سنا برفع السنى

ناعيا على الناس اشتغالهم بأنفسهم حتى في تلك اللحظات النادرة التي يبدو الواحد منهم وكأنه مشغول بمن سواه ، فتراهم يحسنون الى الضعفاء، ولكن لا ليكشفوا ما بهم من ضر ، بل ليقال عنهم انهم أجواد . انه بذلك يذكرنا بطائفة من الكتاب المحدثين الذين ثاروا على المثل العليا القديمة من كرم ووطنية وحب بل وتدين ، قائلين ان الكرم نوع من الدعاية والوطنية تجر الى الحروب ، والحب الى الزواج ومشاكله المختلفة ، والدين كثيرا ما ينتهي بالتعصب البغيض . وشبيه بقول ابي العلاء مع اختلاف الهدف قول ابي الطيب :

ارى كلنا يبغي الحياة بسعيه حريصا عليها مستهاما بها صبا (٤)
فحب الجبان النفس أورده التقى وحب الشجاع النفس اورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد الى ان يرى احسان هذا لذا ذنبا

واذا كان ابو الطيب قد ذهب بمعظم ما في الادب العربي من أشعار تفسر خلجات النفس ، وسلوك الناس ، فان ابا تمام قد برز في تصيد الغريب من الأخيلة والطريف من المعاني (٥) .

واليك طرفا من قصيدته الرائية التي يمدح فيها المعتصم ويذكر احتراق الأفشين :

---

٣ ــ ديوانه ج ٣ ص ١٠ .
٤ ــ ديوانه ج ١ ص ٦٥ .
٥ ــ يشاركه في ذلك ابن الرومي .

كـم نعمة اللـه كانت عنـده ... فكأنهـا فـي غربـة وإسـار
كسيت سبائب لؤمـه فتضاءلت ... كتضاؤل الحسنـاء في الأطمـار
موتورة طلب الالـه بثأرهـا ... وكفـى برب النار مـدرك ثـار

وفيها يقول :

مـا زال سر الكفر بين ضلوعـه ... حتـى أصطلي سر الزناد الـواري
نارا يساور جسمه مـن حرهـا ... لهب كما عصفـرت شـق إزار
مشبوبـة رفعت لأعظـم مشرك ... مـا كان يرفع ضوءها للسـاري
صلى لهـا حيا وكـان وقودهـا ... ميئتا ويدخلهـا مع الفجـار
وكذاك اهـل النار فـي الدنيا هم ... يـوم القيامـة جل اهل النـار

ثم يعرج على بعض المصلوبين معه فيقول :

ولقد شفـى الأحشاء مـن برحائها ... ان صار بابـك جار مازيـار
وكأنمـا ابتدرا لكيما يطويـا ... عـن باطس خبرا مـن الاخبـار
سود اللباس كأنما نسجت لهـم ... أيـدي السموم مدارعـا من نـار
بكروا وأسروا في متون ضوامـر ... قيـدت لهم مـن مربط النجـار
لا يبرحـون ومـن رآهم خالهـم ... ابدا علـى سفر مـن الأسفـار
كادوا النبـوة والهـدى فتقطعت ... أعناقهـم فـي ذلك المضمـار

فالقارىء لهذه الابيات التي اخترناها يجد في كل منها معنى جديدا ورائعا في الوقت نفسه ، فتراه يبرز النعم وقد اصابت غير موطنها ، تارة في صورة الغريبة او الاسيرة ، وطورا في صورة الحسناء وهي تتعثر في ثياب مهلهلة بالية .

ثم يشبه جسده وقد شبت فيه النيران بالثوب المعصفر ، فاذا ما اتت عليه النار وتفحم بدا وكأنه في ثياب سوداء . وبعد ذلك يستغل انتساب الافشين الى المجوسية اعظم استغلال فيدعي ان صلته بالنار قوية ، ومتصلة الحلقات ، فقد عبدها حيا ، واحترق بها ميتا ، وسيساق اليها في زمرة الكفرة والمفسدين . ثم يستغل انحراف بعض الجذوع وتقاربها ليشبه من عليها ــ شماتة وتهكما ــ بمن يسر حديثا الى صاحبه . وكل هذه معان وأخيلة ما كانت لتطرأ على ذهن شاعر قديم لو انه وقف من المصلوبين هذا الموقف . وقد ذكر بعض الرواة انه رأى ابا تمام يتصبب عرقا كأنما يتنزل عليه الوحي وهو ينشد بعض أشعاره ، ومثل هذا الجهد العنيف يتيح لهم طرق أفكار لا يكاد يصل اليها البدوي القديم الذي ينتقل بين الصـور

والاخيلة تنقل النحلة بين الزهور ، لا تكاد تستقر في مكان حتى تثب منه الى غيره مكتفية منها بالرشفة السريعة . وليس أدل على قوة تصرف الفكر الحديث واتساع آفاقه مما رأيناه من اتحاد الموضوع وهو الصلب في قصيدتي ابي تمام والانباري ، واختلاف القول عندهما اختلافا تاما .

محاولة الاقناع :

كان لانتشار العلوم ، واتساع الثقافة ، واستفاضة الجدل بين العلماء واطلاع العرب على منطق اليونان ، كان لكل ذلك اثره في الشعر العربي ، بل والعقل العربي الذي اصبح ينتظر لكل شيء تعليلا ، ويتطلب عليه دليلا وكان القدامى من جاهليين وامويين لا يجدون ضرورة لشغل انفسهم او السامعين بمثل ذلك التعليل او التدليل .

على ان ميل المحدثين من الشعراء الى استنباط كل جديد وغريب من المعاني كثيرا ما كان يؤدي بالسامعين الى استنكار ما يأتون به فيضطر الشعراء بدورهم الى سوق الدليل على صحة ما يقولون حتى يتمكن من نفوس السامعين . ومن ذلك ما رواه الصولي من ان ابا تمام كان ينشد قوله:

شاب راسي وما رايت مشيب الر اس الا من فضل شيب الفؤاد (٦)

فاحس شك من حوله في صحة هذه القضية فعقب بقوله :

وكذا القلوب في كل بؤس ونعيم طلائع الاجساد

واليك عدة نماذج من كلام القدامى والمحدثين تبين ما بينهما من فروق في هذا الصدد .

قال جرير في النظر :

ان العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا (٧)
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله اركانا

وقال فيه ابن الرومي :

---

٦ ــ أخبار ابي تمام ص ٢٣٢ .
٧ ــ ديوانه ص ٥٩٥ .

نظرت فأقصدت الفؤاد بلحظهـــا ثـــم انثنت عنه فظل يهيـــم (٨)
فالموت ان نظرت وان هي أعرضت وقـــع السهام ونزعهـن أليـــم

وقال الحرث بن حلزة في قالة السوء :

ايهـــا الناطـــق المرقش عنـــا عند عمرو وهل لذاك بقـــاء (٩)
لا تخلنـــا علـــى غراتـــك انا قبل ما قـــد وشت بنـــا الاعـداء
فبقينـــا على الشنـــاءة تمنينا حصـــون وعـــزة قعـــاء

فقال ابو تمام :

واذا اراد اللـــه نشر فضيلـــة خفيت اتاح لها لسان حســـود (١٠)
لولا اشتعـــال النار فيما جاورت مـــا كان يعرف طيب غرس العـــود

وقال الفرزدق في وفاة مولود :

وجفن سلاح قد رزئت فلـم انـح عايه ولم ابعث عليه البواكيـــا (١١)
وفي بطنه مـــن دارم ذو حفيظـــة لو ان المنايـــا أخطأته لياليـــا

فقال ابو تمام في صغيرين ماتا لعبد الله بن طاهر :

لهفي على تلـك المخايـــل فيهما لو أمهلت حتى تكون شمائـــلا (١٢)
ان الهـــلال اذا رأيت نمـــوه أيقنت ان سيصير بـــدرا كامـــلا

دعك من التوسع في المعنى والتجديد فيه حيث جعل ابن الرومي العين تصيب حين ترسل النظر وحين تغضبه ، بينما اقتصر جرير على الاول ، وحيث ادعى ابو تمام ان قالة السوء تفيد المفتري عليه ، على حين قنع ابن حلزة بنفي آثارها السيئة ، دعك من هذا الان فانه ظاهرة اخرى مـــن ظواهر الشعر الحديث (١٣) وانظر الى طريقة القدامى في ايراد القضايـــا خالية من الادلة ، جريا على عادتهم في الاكتفاء من القلادة بما احاط بالعنق، ثم انظر الى اصرار المحدثين على اقامة البراهين عليها .

---

٨ ـ تاريخ الادب العربي ص ٣٧٩ .
٩ ـ المعلقات العشر .
١٠ ـ الموازنة ص ٦١ .
١١ ـ الموازنة بين ابي تمام والبحتري ص ٣٧ .
١٢ ـ نفسه .
١٣ ـ استنباط الجديد الدقيق من المعاني .

وشيوع التعليل على هذا النحو يعدّ ظاهرة خطيرة في الشعر العربي لان فيه عملية عقلية مركبة ، حيث يبدأ الشاعر بذكر دعوى يكتنفها الشك لغرابتها غالبا كذيوع ما خفي من فضل الفضلاء كلما جد الحاسدون في تسويد صحائفهم ، ثم يثني باقامة الدليل على امكان حدوث ذلك ، ممثلا له بنار اشتعلت في عود طيب الرائحة فتضوع شذاه بعد ان كان فضله على غيره خافيا ، يحسبه الجاهل نوعا من الحطب . وهذه الظاهرة خطيرة لانها وليدة خيال جامح وفكر ثاقب متحرر يستطيع ان يتغلغل في أسرار الكون، فيدرك ما بين أجزائه المختلفة من روابط ووجوه شبه . وهكذا ينبغي ان يدرك القائل :

وشبه الشيء منجذب اليه   واشبهنا بدنيانا الطغام
ولو لم يعل الا ذو محل   تعالى الجيش وانحط القتام

الشبه بين الغبار المتعالي في الجو رغم تفاهته ، والطغام الذين يتسلقون كالقردة والزواحف على اكتاف غيرهم الى المناصب العليا رغم هوانهم على انفسهم وعلى الله ، ثم يقفز الى الطرف الاخر للقضية فيدرك الشبه بين تواضع الجيش وانضوائه تحت لواء الغبار من جهة ، وخفاء أقدار النفوس الكبيرة من جهة اخرى فيجمع بين هذين ويضعهما بإزاء ما سبق .

والشعر العباسي مليء بهذا النوع من التعليل وان أردت مزيدا فاقرأ قول ابي العتاهية :

يا صاحب الدنيا المحب لها   انت الذي لا ينقضي تعبه (١٤)
ان استهانتها بمن صرعت   بقدر ما تعلو به رتبه
ولو استوت للنمل أجنحة   كيما يطير فقد دنا عطبه

وقول ابي تمام :

لا تنكري عطل الكريم من بالغنى   فالسيل حرب للمكان العالي (١٥)

وقول ابي الطيب :

ارى المتشاعرين غروا بذمي   ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مريض   يجد مرا به الماء الزلالا

وقوله :

---

١٤ ـ ديوانه ص ٣٤ .

١٥ ـ ديوانه ص ٢٤٦ .

فان تفـــق الانام وأنت منهم   فان المسك بعض دم الغـــزال

ولا يعتمد المحدثون فيما يحاولون من اقناع السامع على المنطق الجاف، بل يسلكون الى النفوس مسالك لطيفة ، تنتهي بها الى التسليم ان كان الموقف موقف خصومة وجدل ، وبالرضا والهدوء عند السخط والمعانــاة ويبدو ما قلناه واضحا حين تضع قول النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمــه   على شعث اي الرجال المهذب

بجانب قول بشار بن برد :

واذا كنت في كل الامور معاتبـــا   صديقـــك لـم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحدا او صـــل اخاك فانه   مقارب ذنب مـــرة ومجانبـــه
اذا انت لم تشرب مرارا على القذى   ظمئت وأي الناس تصفو مشاربـــه

والبيت الاخير من أبيات بشار يجعل الاخوان كالماء يصفو تارة ويكدر اخرى فاذا كنا نتقبل هذا الوضع في مشاربنا ، ونتسامح فيه ابقاء على حياتنا ، فلم لا نفعل مثل ذلك بالاخوان ايضا فنتقبلهم على علاتهم .

وينبغي الا ننسى ان في مثل هذا التعليل شيئا غير قليل من المغالطة والتسامح اذ لا صلة طبيعية بين الماء والاصدقاء ، او بين الطعام والفتام ، او النار وقالة السوء . وكأني بالشعراء يلتمسون او هي الاسباب لتمكين ما يقولون من نفوس السامعين . وما اشبههم هنا بالجاحظ حين قال (١٦) في تفضيل السودان على البيضاء «ودهم الخيل ابهى وأقوى ، والبقـــر السود احسن وابهى وجلودها أنفع واثمن وابقى .. وكلّ جبل وحجر اذا كان اسود كان أصلب صلابة واشد يبوسة . والاسد الاسود لا يقوم له شيء . وليس من التمر احلى حلاوة من الاسود .. والانسان احسن ما يكون في العين اذا كان اسود الشعر وأكرم ما في الانسان حدقتاه وهما سوداوان وكذا كبده ، وسويداء قلبه» . وكأنه بمثل هذا الاسهاب يريد ان يقول ان نواميس الطبيعة في جانب دعواه وكذلك يفعل المحدثون مـــن الشعراء فيما ذكرناه .

والقدماء في موازنتهم ابعد عن المغالطة ، وأقرب لطبائع الاشياء . اقرأ اذا شئت قول عباس بن مرداس :

---

١٦ ـ مجموعة رسائل الجاحظ ص ٦٨ ، ٦٩ .

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه اسد مزير (١٧)
ويعجبك الطرير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطرير (١٨)
فما عظم الرجال لهم بفخر ولكن فخرهم كرم وخير
بغاث الطير اكثرها فراخا وأم الصقر مقلاة نزور (١٩)
ضعاف الطير أطولها جسوما ولم تطل البزاة ولا الصقور

فسترى ان الرجل يبسط بين يديك قضية محددة ، وهي ان عظمة المرء ليست بقدر ضخامة جسمه ، ولكن بأعماله النافعة . ثم يحاول في البيتين الرابع والخامس الاستدلال على صدق قضيته ، فلا يذهب بك بعيدا ، كما فعل المحدثون من بعده . ولكن يوازن بين الانسان والطيور ، لانهما تابعان لجنس واحد وهو الحيوان . وقوانين الطبيعة المسيطرة عليهما واحدة ، او متقاربة .

وهناك نوع من القياس الصريح الذي لا يحتاج الى مثل هذا المجهود الذهني لانه مأخوذ من التاريخ ، لا من نواميس الطبيعة وترى نماذجه في مثل قول ابي تمام يمدح المعتصم ، ويعتذر عنه في استمال الافشين رغم ما كان ينطوي عليه من خيانة للدين والدولة :

هذا النبي وكان صفوة ربه من بين باد في الانام وقار (٢٠)
قد خص من اهل النفاق عصابة وهم أشد أذى من الكفار

او يقول مشيرا الى ان الدين والورع لا ينبغي ان يكون اساسا يقسَّم في ضوئه الناس الى أشراف وسوقة ، بل ينبغي ان يكون الحكم في ذلك مواقفهم ومآثرهم :

ان كان بالورع ابتنى القوم العلا او بالتقى صار الشريف شريفا (٢١)
فعلام قدم وهو زان عامر واميط علقمة وكان عفيفا
وبني المكارم حاتم في شركه وسواه يهدمها وكان حنيفا

---

١٧ ـ الحماسة ج ٢ ص ٢١ ـ مزير : عاقل .
١٨ ـ الطرير : الناعم المترف .
١٩ ـ بغات الطير : شرارها ـ مقلاة نزور : قليلة الاولاد .
٢٠ ـ ديوانه ص ١٥٣ .
٢١ ـ ديوانه ص ٢٠٩ الاشارة الى البيت الثاني الى عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة وكانا قد تفاخرا فقدم الاول لشجاعته وكرمه . ولم يضره كثيرا ما عرف عنه من فسوق وفجور .

العنصر الثاني

التزام الحقائق : اذا عرفنا ان التزام الحقائق كان ظاهرة من ظواهـــر الشعر الجاهلي . ولم يكن ذلك منهم مراعاة لدين ، او خضوعا لشريعة ، ولكنه أثر من آثار حياتهم الساذجة ، التي تكتفي بقدر الضرورة من كل شيء في المأكل بل والمشرب والملبس ، وتدع الفضول والمبالغات جانبا . ونتيجة من نتائج الحياة المكشوفة الصريحة التي يحبونها . وتتبعنا آثار تلـــــك الظاهرة في الشعر العربي ، فوجدنا الميل الى الاقتصاد الشديد في المـدح والفخر ، بحيث لا يكاد الشاعر ينسب الى نفسه وقومه حين يفخر ، او ممدوحه حين يمدح الا ما يعتقده ..

اما العصر العباسي فعصر الضخامة والمبالغة في كل شيء ، ضخامة الدولة وفخامتها ، وضخامة الجيوش ، وتكدس الاموال ، وابهة الملك ، وسطوة الخلافة . مظاهر رائعة وحياة جديدة مختلفة كل الاختلاف عن حياة البادية ، بحيث صار الشعر الجاهلي الساذج المتواضع يبدو امامهــا وكأنه عباءة البدو التي تحيّفها الزمن على كتفي احد المارة في بعض شوارع لندن او باريس .

لم يكن اذن بد من ان يساير الشعر العربي تلك الحياة الجديدة . وان يطرح التواضع والبساطة والقصد الذي عاد لا يلائم الظروف الجديدة . فان تردد ، او تباطأ حمله الناس على ذلك حملا ، ودفعوه اليه دفعا ، دون هوادة او ملاينة . ومما يذكر بهذه المناسبة ان ابا تمام وقف يمدح احمد

ابن المعتصم فقال :

ابليت هذا المجد ابعـــد غاية فيه وأكرم شيمة ونحـاس (١)
إقدام عمـرو في سماحة حاتم في حلم احنف فـي ذكاء اياس

قال ذلك وظن انه قال شيئا . ولكن ابا يعقوب يوسف الكندي الذي درس كتب ارسطو وافلاطون ، سرعان ما لاحظ البون الشاسع بين قول ابي تمام ومقتضيات العصر فقال معترضا : وهل زدت على ان شبهت الامير بأجلاف العرب . اذن فلا بد ان يلتمس الشاعر لغة غير تلك التي كانت تقال من قبلّ ، ومثلا عليا غير تلك التي عرفت فيما مضى . لقد كان مثل هذا البيت يمكن ان يقع موقعا جميلا من نفس عبد الملك بن مروان او اشباهه من خلفاء الدولة الاموية وامرائها ، اما اليوم فلا . وقد اخذ الشعـــراء اذ ذاك يلتمسون رضا الذوق العام بأساليب شتى . فمال بعضهم الـــى الغلو كما ترى في قول ابي نواس للرشيد :

واخفت اهل الشرك حتى انــــه لتهابـــك النطف التي لم تخلـــق

او وقل المتنبي في بدر بن عمار :

لو كــان علمك بالإلــــه مقسما في الناس ما بعث الالــه رسولا (٢)
او كان لفظك فيهم ما انــــزل التـ ـوراة والقـــرآن والانجيـــلا

وسرعان ما سرت الروح الجديدة في أغراض الشعر الاخرى من هجاء وغزل وفخر وغيرها ، فاذا بابن الرومي يقول هاجيا :

لو ان قصرك يا بن يوسف كلـــه إبـــر يضيق بها فنـــاء المنزل (٣)
وأتاك يوسف يستعـــيرك ابـــرة ليخيط قد قميصه لـــم تفعـــل

ومن قبلهم قال بشار يتغزل :

سلبت عظامي لحمهـــا فتركتهـــا عواري فـــي اجلادهـــا تتكسر (٤)

---

١ ـ اخبار ابي تمام ٢٣١ والمعنى بلغة الرياضيين ان الممدوح حطم الرقم القياسي في هذه الفضائل جميعا .

٢ ـ ديوانه ج ٣ ص ٢٤٤ .

٣ ـ تاريخ الادب ص ٣٩٩ .

٤ ـ نفسه ص ٣٩٨ .

وأخليت منهـــا مخها فجعلتهـــا انابيب في أجوافها الريح تصفـــر

واذا احببت ان ترى مدى ما بين القدامى والمحدثين من تفاوت بصورة ادق واوضح فوازن بين قول ابي نواس السابق في الرشيد وقول جريـر في الحجاج :

وخافوك حتى القوم تنزو قلوبهـم نزو القطا التفت عليها الحبائل (٥)

او قول النابغة :

نبئت ان أبا قابـوس أوعدنـــي ولا قرار على زار مـــن الاســـد

او وازن قول بشار فيما رماه به الحب من ضعف :

سلبت عظامي لحمهـــا فتركتهـــا عواري فـــي أجلادهـــا تتكسر

يقول عروة بن حزام في نفس المعنى :

متى تخلعا عني القميص تبينـــا بي الضر من عفراء يا فتيــــان (٦)
وتعترفـــا لحمـــا قليـــلا واعظما رقاقـــا وقلبا دائم الخفقـــان

وشبيه بهذا قول الاخطل في الخمر :

تدب دبيبا فـــي العظام كأنهـــا دبيب نمال فـــي نقا يتهيـــل (٧)

اذا قيس بقول ابي تمام :

اذا الروح دبّت فيه تحسب جسمه لما دب فيه قرية من قرى النمل (٨)

وقول النابغة :

وعيّرتنـــي بنو ذبيـــان خشيته وهل عليّ بأن اخشاك من عـــار (٩)

حين يوضع بإزاء قول ابي تمام :

---

٥ ـ ديوانه ص ٤٤٠ .
٦ ـ ذيل الامالي ص ١٥٨ .
٧ ـ الموازنة ص ٣٨ .
٨ ـ نفسه .
٩ ـ نفسه ص ٣٦ .

خضعوا الصولتك التي هي عندهم   كالموت يأتي ليس فيه عار (١٠)

فانك لا شك واجد في اقوال السابقين قصدا واعتدالا ، وربما رأيت عند القدامى شيئا من المغالاة ، ولكنها نادرة ومستساغة . والسر في ذلك انها اما أن تجري مجرى التهكم ، والتهكم يعني بإضحاك الناس اكثر مما يعني بتحري الحقائق . ومن ذلك قول الطرماح :

ولو أن برغوثا على ظهر قملة   يكرّ على صفي تميم لولت (١١)

وقول العيني في جوابه :

ولو ان عصفورا يمد جناحه   على طيىء في دارها لاستقلت (١٢)

وإما لان المرء يستطيع ان يتقبل ما فيها من حقائق مع شيء من التأويل والمغالطة ، كما ترى في قول بعض القدامى :

الا انما غادرت يا أم مالك   صدى اينما تذهب به الريح يذهب (١٣)

حين يقاس بقول المتنبي :

ولو قلم القيت في شق رأسه   من السقم ما غيّرت من خط كاتب (١٤)

فان الناس كثيرا ما يقولون فلان ظل لفلان ، او صدى له . اما ابو الطيب فقد ضيق على نفسه سبل التأويل ، ووضع نفسه بين شقي قلم فلا يستطيع احد لذلك تخريجا ، ولا يجد له من كلام الناس شبيها . ولسنا في ذلك نتحامل على المحدثين بدليل اننا نعتقد ان قول ابي الطيب :

كفى بجسمي نحولا انني رجل   لولا مخاطبتي اياك لم ترني (١٥)

ابعد عن المبالغة ، واقرب الى المتعارف من قوله السابق ، لأن المرء قد يكون قميئا ، او نحيلا ، بحيث يمكن ان يقول قائل مثلا : ما كدت اراه حتى تحدّث الي او نحو ذلك من العبارات .

ونحن نسلم بأن القياس مع الفارق . ولكن كم من الناس يفطنون الى

---

١٠ ـ نفسه .

١١ ـ الوساطة ص ٤٣٦ .

١٢ ـ نفسه .

١٣ ـ نفسه ص ٤٣٢ .

١٤ ـ نفسه ص ٤٣٤ .

١٥ ـ نفسه .

مثل هذه الفوارق الدقيقة ، أليس معظم الشعر مغالطات ، الا فليكن هذا بعضها . ومن عجب ان الجرجاني في وساطته (١٦) سوّى بين هذه الامثلة من كلام القدامى والمحدثين ، وان اعترف بكثرتها عند هؤلاء ، وندرتها في كلام اولئك .

ويختلف النقاد ايضا حول هذا اللون من التجديد اختلافهم حول تجديد ابي تمام ومسلم ، فمنهم من يتمسك بظاهر العبارة وحرفيتها على عادة القدماء فيرمي الشعراء بالاحالة ، ويتهمهم بالخطأ(١٧) ومنهم من وسَّعت الثقافة الحديثة آفاقهم فصاروا لا يقفون عند المعنى الحرفي للعبارة ولا يرون فيها الا نوعا من المبالغة البريئة المقبولة بل المرغوب فيها . وما من شك في ان هذا الفهم والتساهل كان صدى لما اصاب الحياة من تطور اجتماعي جعلهم يطربون لكل طريف من المعاني وجديد من الأخيلة ، ولو كان ذلك على حساب الحقيقة التي عادوا لا يحفلون بها كثيرا وقد قوّى هذا الاتجاه شيوع الثقافة اليونانية التي تحمل آثار الخيال الخصب الشائع في آدابهم وأساطيرهم . وترى آثار هذه الثقافة في قول قدامة بن جعفر (١٨) «ان الغلو عندي أجود المذهبين ، وهو ما ذهب اليه اهل الفهم بالشعر والشعراء قديما ، وقد بلغني عن بعضهم انه قال : أحسن الشعر اكذبه . وكذلك نرى فلاسفة اليونان في الشعر على مذهب لغتهم» (١٩) .

ولنا في هذه القضية موقف وسط ، فلا نرفض مثل تلك المبالغات ، ونرمي اصحابها بالخطأ والاحالة ، ولا نتحمس لها تحمس قدامة لا نرفضها لاننا لا نوافق على ما يبديه القدامى من تزمت وتحامل على المحدثين ، لان المحدثين لم يحاولوا مغالطة السامعين ولا قلب الحقائق ، ولا ايهام الناس بحدوث ما لم يحدث ، ووقوع ما لم يقع ، وكل ما ارادوه هو امتاع السامعين على أسلوب العصر . ومثل هذا الفهم يجعل ثورة أنصار القديم

---

١٦ ــ نفسه ص ٤٣٣ .

١٧ ــ الصناعتين ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ .

١٨ ــ نقد الشعر ص ١٩ .

١٩ ــ اذا كان قدامة يمثل رأي المحدثين وأذواقهم هنا ، فان الجاحظ يتحدث بلسان القدامى حين يقول : «وأنفع المدائح للمادح ، وأجداها على الممدوح ، وأبقاها اثرا ، وأحسنها ذكرا ان يكون المديح صدقا ، ولظاهر الممدوح موافقا وبه لائقا» ــ رسائل الجاحظ ص ٣٢ .

عليهم غير ضرورية .

ولا نتحمس لها تحمس قدامة لاننا نعتقد ان القصد في الفخر والمدح أوقع من الاسراف والغلوّ فيهما . فقد تكون المبالغة عذبة وجميلة ، وقد تعطي ضوءا ساطعا كأنه البرق الخاطف ، قبل ان يتناولها الفكر بالتحليل. ولكن هذا الضوء اللامع سرعان ما يتلاشى او يضعف على الاقل حينما يظهر انها مجرد مبالغة أحسن الشاعر صوغها ، وليس بينها وبين الحقيقة الا سبب ضعيف .

اما الممكن من المبالغات فانه شبيه بنار الفحم ، بطيئة الاشتعال ولكنها مع ذلك شديدة الاثر ، طويلة الامد . وسبب ذلك ان الحقيقة فيها تختلط بالخيال ، لجواز وقوعها ، وامكان حدوثها ، اختلاطا ربما قوي في نفس السامع حتى يصير الخيال عنده حقيقة او كالحقيقة . اما عند الغلو فقد يعجب السامع بخيال الشاعر ، او عبقريته ، ولكن اعجابه يقف عند هذا الحد ، ولا ينفذ منه الى الممدوح نفسه الا القليل . وآية ذلك اني وإياك حينما نقرأ قول الاعشى في قيس بن معدي كرب :

واذا تكون كتيبة ملمومة ... خرساء يخشى الدارعون نزالها
كنت المقدم غير لابس جنة ... بالسيف تضرب معلما أبطالها

بعد قول ابي تمام في نوح بن عمرو :

لو ان طول قناته يوم الوغى ... ميل اذن نظم الفوارس ميلا

نؤمن من حيث لا نشعر بأن صاحب الاعشى كان شجاعا حقا . اما صاحب الطائي فلا نؤمن ببطولته الا بقدر ما نؤمن برحلات «جلفر» في ارض الاقزام (٢٠) .

والقارىء للشعر العربي في العصر العباسي وما بعده يراه سلسلة من المبالغات متصلة الحلقات ، يجمل وقعها على الاسماع ، ودبيبها الى القلوب، اذا أسعفها التوفيق فجاءت كما ترى في قصيدة المتنبي التي يقول في ثناياها عن أعداء سيف الدولة :

اذا صرف النهار الضوء عنهم ... دجا ليلان ليل والغبار

---

٢٠ ـ رحلات خيالية قام بها احد العمالقة الى ارض الاقزام فبدا الفرق شاسعا بينه وبينهم . وكتبها سوفت الكاتب الانجليزي المتوفي سنة ١٧٤٥ م .

وان جنح الظلام انجاب عنهم اضاء المشرفية والنهار
اذا فاتوا الرماح تناولتهم بأرماح من العطش القفار

ثم يقول في سيف الدولة :

واصبح ذكره في كل ارض تدار على الغناء به العقار
تخر له الجبابر ساجدات وتحمده الأسنة والشفار
كأن شعاع عين الشمس فيه ففي أبصارنا عنه انكسار

ولعل السر في اعجابنا بهذه الابيات واستساغتنا لما فيها من غلو ومبالغات ان تلك المبالغات قد أحسن وضعها حتى بدت كأنها حقائق مجردة من الخيال . ربما كان اعجابنا بشخصية سيف الدولة ، وبلائه في حرب الروم ونيله منهم رغم ضيق رقعة دولته ، مع سخطنا على تلك القبائل العربية لتجاهلها مثل هذا المجهود ، واستغلال ابقاء سيف الدولة عليهم ، واحتماله لهم استغلالا سيئا ، ونكرانهم أياديه عليهم وحمايته لهم . لعل ذلك كله هو الذي يجعلنا نحس بما نحس به من متعة حين نقرأ هذه القصيدة . على ان جمال أسلوبها ، وخفة عبارتها ، وجريان ماء الطبع فيها أمور ينبغي ان تدخل في حسابنا .

اما المبالغات البغيضة فيمكن ان ترى صورة منها في قول ابي تمام يمدح نوح بن عمرو الذي اشرنا اليه سابقا وذلك حين يقول :

لا تدعوَن نوح بن عمرو دعوة للخطب الا ان يكون جليلا (٢١)
يقظ اذا ما المشكلات عرَونه ألفيته المتبسم البهلولا
ما زال يبرمهن حتى انه ليقال ما خلق الإله سحيلا
ثبت المقام يرى القبيلة واحدا ويرى فيحسبه القبيل قبيلا
لو ان طول قناته يوم الوغى ميل اذن نظم الفوارس ميلا

وهكذا ندرك ان مدى اعجابنا ، او نفورنا من المبالغات يتوقف على مبلغ ايماننا باستحقاق الممدوح او المرئي او ما سواهما لما يقال فيه . وهذا هو السبب في اننا لا نساء حين نقرأ قول ابي الطيب :

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي وأسمعت كلماتي من به صمم
انام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

---

٢١ ـ ديوانه ص ١٨٣ .

وذلك لايماننا بكثير مما يدعيه . وننفر في الوقت نفسه من قـــول بن سناء الملك :

توقد عزمي يترك الماء جمـرة — وحيلة حلمي تترك السيف مبرا (٢٢)
ويأبى إبائي ان يراني قاعـدا — وأن ارى كل البرية مقعـــــدا

حيث لا نعلم الاسباب ولا الظروف التي من اجلها استحق ان يجعل من البشرية مقعدا يتربع عليه .

وهناك نوعان من المبالغة دارا على لسان ابي تمام اكثر من اي شاعـر اخر ، وذلك لما قدمناه من انه كان يهتم بتحميل اشجاره اكبر قدر ممكن من الثمار ، ولو أدى ذلك الى تحطيم اغصانها . اما النوع الاول فيمكن ان نسميه المبالغة التي يقصد بها التأكيد ، لانها ليست من تلك المبالغـات المدوية التي تسبق الى الاسماع ، بل فيها هدوء لا تكاد تصل معه الـى الاذهان الا في النظرة الثانية ، ولهذا غفل معظم النقاد عنها وما نظن ان احدا منهم اشار اليها وتتضح في مثل قوله :

يا منزلا اعطى الحـــوادث حكمها — لا مطل فـــي عدة ولا تسويفـــا
ارســى بعرصتك الندى وتنفست — نفســـا بعقوتك الرياح ضعيفـا
ولئن ثوى بــك ملقيا أجرامــــه — ضيف الخطوب لقد اصاب مضيفـا
وهي الفجائع لم تـــزل نكباتها — يألفن ربـــع المنـــزل المألوفـــا

فاستعمال أرسى في البيت الثاني ، وثوى وملقيا أجرامه في الثالث ، ويألفن في الرابع ، مع امكان الاكتفاء بنزل وزار وحل يمثل لنا ولـــوع المحدثين بتأكيد معانيهم والمبالغة فيها ما وجدوا الى ذلك سبيلا ، وشبيه بذلك قوله من نفس القصيدة يخاطب الغري :

اسمع اقامت فـــي ديارك نعمـة — خضراء ناضرة تـــرف رفيقـــا
ريـــا اذا النعـــم انتقلن تخيمت — واذا نفـــرن غدت عليك الوفـــا

وقولـــه :

جدوى أصيل العلم ان سيضيمــه — قضف المكارم ان رجعت قضيفـــا

وقولـــه :

---

٢٢ ــ تاريخ الادب العربي ص ٤٠٩ .

لك هضبة الحلم التـــي لو وازنت   أجأ اذن ثقلت وكـــان خفيفـــا

فوصفه النعمة بالخضرة والنضرة والرفيف والري امر لم يسبق اليه. وكلمة تخيمت التي احتلت مكان اقامت في شعر القدماء تكاد تكوّن مع البيت السابق وصفا او تخطيطا لجنة خيالية يرسمها الشاعر في خياله للممدوح . جنة ملتفة الاشجار دانية الثمار ، وارفة الظلال ، تضرب فوق الممدوح سرادقا ضخما فخما يسعه ويسع كل من يلوذ به او ينتسب اليه.

وكان يكفيه في البيت الثالث ان يقول : «جدوى من يعلم كذا وكذا»(٢٣) ولكنه يصر على ان يقول ان عطاءه هذا ليس عطاء المجامل او المصانع الذي لا يؤمن بما يفعل ، فيجود حياء وتورطا ، وانما عطاء من يؤمن ايمانا قويا في قرارة نفسه ان حرمان الشاعر سيؤدي الى ضياع المكرمات التي اقام نفسه حارسا عليها . وفي البيت الرابع لا يكتفي بتشبيه حلمه في الرسوخ بالجبل كما كان يفعل القدامى ، بل يختار الهضبة لضخامتها واتساعها .

واما النوع الثاني من المبالغة فيبدو في مثل قوله :

كانـــوا برود زمانهم فتصدعوا   فكأنما لبس الزمـــان الصوفـــا

او قوله :

عاقدت جـــود ابي سعيد انـــه   بـدن الرجـــاء بـه وكان نحيفـــا
جدوى أصيل العلم ان سيضيمـــه   قضف المكارم ان رجعت قضيفـــا
واستل مـــن آرائـــه الشعل التي   لو انهن طبعـــن كن سيوفـــا
ان غاض ماء المزن فضت وان قست   كبد الزمان علـــيّ كنت رؤوفـــا
خفضت عني الدهـــر بعد ملمـــة   تركت لنابيـــه علـــيّ صريفـــا

ويسمى هذا النوع من التجديد عند النقاد بالتشخيص والتجسيم حيث جعل الزمان انسانا يتقشف حينا فيلبس الصوف ، ويقسو احيانا فتتغلظ كبده ، ثم يمعن في القسوة فيصير جملا صؤولا ينشب انيابه في عظـــام الشاعر . ثم وصف الرجاء وهو امر معنوي بالنحافة والبدانة وفعـــل بالمكارم مثل ذلك وصنع من الراي شعلا وسيوفا .

وقد شغل النقاد انفسهم ببيان ما في مثل تلك الابيات من مخالفـــة

---

٢٣ ــ وازن بينه وبين الاعشى حين يقول :

وعلمت ان النفس تلقى حتفها   ما كان خالقها المليك قضى لها

لاساليب الاوائل ، ولم يهتموا بالبحث عن الدوافع التي دفعت بالشعراء وعلى رأسهم ابو تمام الى الاكثار من ذلك . وقد لا نكون مخطئين اذا ادعينا انها مظهر من مظاهر احتفال ابي تمام ومن على شاكلته للمعاني ومحاولته دائما ايضاحها وتأكيدها والمبالغة فيها ، لان المدرَ بالحواس أشد جـلاء ووضوحا من المدرك بمجرد النظر والفكر .

اما فيما يختص بجمال ما ورد في شعر ابي تمام من تشخيص او قبحه، فيجب ان يكون مرد ذلك الى وجود تشابه قوي او عدم وجوده بين المشبه به والمشبه . فاخراج الليل الطويل الثقيل في صورة البعير من قـول امرىء القيس :

وليل كموج البحـر ارخى سدوله   عليّ بأنـواع الهمـوم ليبتلـي
فقلت لـه لما تمطّـى بصلبـه   وأردف اعجازا ونـبـاء بكلكـل
الا ايها الليل الطويـل الا انجلي   بصبح وما الاصباح منك بأميـل

جميل ومقبول حيث ان في كل من الليل والجمل ثقلا وامتدادا . وهذا هو السبب في اننا نرحب بمثل قول ابي تمام :

خفضت عنـي الدهر بعد ملمـة   تركت لنابيـه علـيّ صريفـا

حيث تشبه الملمات والكوارث بالجمل الصؤول . ولكن قوله :

يـا دهر قوّم من اخدعيك فقـد   اضجرت هذا الخلق من خرقـك

وقولـه :

كانـوا برود زمانهـم فتصدعوا   فكأنما لبس الزمـان الصوفـا

فغير سائغ حيث لا صلة بين الانسان والزمن ، حتى يستعار هـذا المذاك ، ويشبه به في الخرق والتقشف ، اللهم الا اذا كان ابو تمام يحمل بين جنبيه نقمة على بني جنسه ، تجعله من حيث يشعر او لا يشعر ، يرى الانسان صورة مجسمة للظلم والعدوان . وليس هذا ببعيد على من كان مثله ذا ذكاء متوقد ، وحس مرهف ، فان امثال هؤلاء يكونون في كثير من الاحيان موضع حسد الاقران ، ولا يقابل الحسد الا بالسخط والنقمة من المحسود . ويؤكد هذا التوجيه من نراه من كثرة حديثه عن الاخادع، ومطالبة الدهر بتقويمها ، فان الاخادع في صفحة العنق ، التي يظهر فيها العجب والصلف .

وينبغي ان نختم هذا الفصل بالاشارة الى ما شاع عند المحدثين من قلب

التشبيهات بقصد المبالغة . وذلك كما يرى في قول البحتري يمدح المتوكل على الله ، ويصف البركة التي شادها :

كأنهـــا حين لجت في تدفقها   يد الخليفة لمـــا سال واديهـــا

او قول ابي نواس في مدح الامين :

تتيه الشمس والقمر المنــــير   اذا قلنا كأنهمـــا الامـــير (٢٤)
فان يك أشبهـــا منه قليـــلا   فقـــد أخطأهما منـــه كثـــير

ووجه المبالغة ان التشبيه مبني دائما على زيادة المشبه به على المشبه في وجه الشبه . فاذا قلنا محمد كالاسد ، فلا بد ان يكون الثاني اعظـــم جراة وإقداما من الاول . فنحن نستغل عن طريق المغالطة ما وقر فـــي اللاشعور من زيادة المشبه به على المشبه حين نقلب الاوضاع فنجعل الفرع اصلا . وبذلك يتقبل السامع القضية دون مناقشة طويلة واثقا او كالواثق بأن يد الخليفة في التدفق وسعة العطاء بحيث يمكن ان تجعل اصلا يشبه به الانهار والجداول ونحوها حين يراد تأكيد غزارة مائها وتلاطم أمواجها .
والتشبيه المقلوب على هذا النحو ، وبهذا القصد ، لم يرد الا في شعر العباسيين وأما قول ذي الرمة :

ورمل كأوراك العذارى قطعتـــه   وقد جللته المظلمـات الحنادس (٢٥)

فليس مما نحن فيه ، حقا انه تشبيه مقلوب حيث كان ينبغي ان يعكس الامر فتشبه الاوراك بكثبان الرمل لضخامة الاخيرة . ولكن الشاعر لم يقصد بيان ضخامة الاوراك ، لانه لم يكن لديه عذارى يتحدث عنها ، بل كـــان يقصد بيان عظم تلك الكثبان مع شيء من طرافة التعبير .

---

٢٤ ــ ديوانه ص ١١٣ .
٢٥ ــ زهر الاداب ج ٢ ص ٩٤ .

العنصر الثالث

التصوير :

تحدثنا فيما مضى عن الميل الى التصوير ، وعرفنا انه احد الاصول الهامة في الشعر الجاهلي ، وحددنا هدفه عند الجاهليين بأنه نقل المشاهدات والتجارب التي شاهدها الشاعر او مر بها عن طريق التشبيه او الاستعارة محاولا في تصويره الاقتراب من الحقيقة ما أمكن ، فالى اي حد تطور هذا الاصل او جمد على السنة المحدثين من شعراء بني العباس ؟ الجواب على هذا السؤال : ان هذا الاصل قد تلون بما اصاب الحياة العقلية والاجتماعية من الوان اذ ذاك ، وانتهى به الى الانحراف الواضح عن الوضع القديم الذي عهدناه عليه ، ويمكن تحديد عوامل ذلك التطور او الانحراف وآثارها على النحو التالي :

اولا : تأثير ما ظهر في العصر العباسي من غلو ومبالغة ، فقد كان التصوير قديما قريبا من الواقع متأثرا في ذلك باتجاه شعراء الجاهلية الى القصد والاعتدال ، ولكن لما جاء العهد العباسي وفشا الغلو والمبالغة ، ترك ذلك الذوق الجديد أثره في التصوير ، فعظم الفارق بين الحقيقة التي يتحدث عنها الشاعر والصورة التي يعرضها فيها وما كان عظيما قبل ذلك، واليك عدة أمثلة يظهر فيها القديم بجانب المحدث ، وبضدها تتميز الاشياء.

قال عروة بن حزام متحدثا عن خفقان قلبه واضطرابه :

كأن قطاة علقت بجناحهـــا على كبدي من شدة الخفقـــان

وقال بشار في نفس المعنى :

كأن فـــؤاده كرة ترامـــى حذار البين لو نفع الحذار (١)

وما من شك في ان الاول اقرب الى الحقيقة ، لاننا لا نشعر بأن قلوبنا تنتزع من صدورنا ويقذف بها بعيدا عنا حينما تصيبنا نوبة من نوبات الشوق او القلق ، بل نشعر بها تخفق وهي لا تزال حبيسة داخل اقفاصها وامثلة هذا النوع كثيرة كقول ابي الطيب في الرماح :

جوائـــل بالقنـي مثقفات كـــأن على عواملها الذبـــالا

بعد وقل امرىء القيس :

ايقتلني والمشرفـــي مضاجعي ومسنونـــة زرق كأنياب اغوال

وكقوله في لبدة الاسد :

متخضب بدم الفوارس لابس فـــي غيله من لبدتيه غيـــلا

بعد قول طرفة في ذيل ناقته :

كأن جناحي مضرحيٍ تكنفـــا حفافيه شكا في العسيب بمسرد

وكقوله في الخيل وما تثيره من غبار :

خافيات الالوان قد نسج النق ع عليها براقعـــا وجـــلالا

حين يوضع بجانب قول طرفة في ناقته وما تثيره بيديها من حصا .

فترى المرو اذا مـــا هجرت عن يديهـــا كالفراش المشفتر

ومن مراجعة الامثلة السابقة ترى مدى احترام القدامى لقواعد فـــن التصوير ، وعدم اكتراث المحدثين به ، وانما اختلفوا على هذا النحو تبعا

---

١ ـ الادب العربي ص ٣٩٢ .

لاختلاف غايتهم من التصوير . فالقدامى يهدفون الى الايضاح (٢) ، بينما يهدف المحدثون الى الجدة والابداع والتضخيم والتعظيم . القدامى يحاولون الاقتراب من الحقيقة ما استطاعوا ، ولا يبتعدون عنها الا مكرهين والمحدثون يحلقون في سماء الخيال الى اخر ما يمكن ان تحملهم اليه اجنحتهم أليس هذا هو ما يمكن ان يفهمه المرء من قول امرىء القيس من جهة .

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا   لدى وكرها العناب والحشف البالي

وقول ابي الطيب من جهة اخرى :

شرف ينطح النجوم بروقيه   وعز بقلقل الأجبالا (٣)

او قوله في اعداء سيف الدولة :

قد سودت شجر الجبال شعورهم   فكأن فيه مسفة الغربان (٤)
وجرى على الورق النجيع القاني   فكأنه النارنج في الاغصان

اما العامل الثاني فهو تغلغل المحدثين فيما وراء ذلك الإهاب الخارجي لمظاهر الكون نتيجة لانتشار العلوم ، وتقدم الثقافة ، واتساع آفاق الفكر بحيث صار الشاعر المحدث يستطيع عن طريق تداعي المعاني ، وغير ذلك من العمليات العقلية المختلفة ان يرى ويسمع ما لم يكن سلفه في الجاهلية يستطيع ان يسمع ويرى . هذا مع قصد شعوري الى الابداع والتجديد. واذا شئت ان ترى نماذج لهذا فارجع الى قول امرىء القيس في الطبيعة متحدثا عن السيل وأثره في البادية سهولها وجبالها .

كأن ثبيرا في عرانين وبله   كبير أناس في بجاد مزمل
كأن ذرا رأس المجيمر حوله   من السيل والغثاء فلكة مغزل

---

٢ ـ وازن بين قول طرفة في مغنية :

اذا رجعت في صوتها خلت رجعها   تجلوت اظآر على ربع ردي

وقول بشار في حبيبته :

وكأن رجع حديثها   قطع الرياض كسين زهرا

لترى كيف يحاول احدهما الاقتراب من الحقيقة جاهدا ، بينما يضرب بها الاخر عرض الحائط .

٣ ـ ديوانه ج ٢ ص ١٤٣ .

٤ ـ ديوانه ج ٤ ص ١٨٣ الدانية من الارض .

كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى انابيش عنصل
والقي بصحراء الغبيط بعاعه نزول اليماني ذي العياب المحل (٥)
كأن مكاكي الجواء غدية صبحن سلافا من رحيق مفلفل

وضع بجانبه حديث شاعر محدث عن الطبيعة وعن المطر وآثاره في السهول والرياض . كأبي تمام حين يقول :

مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من الغضارة يمطر (٦)
غيثان فالأنواء غيث ظاهر لك وجهه والصحو غيث ممطر
يا صاحبي تقصيا نظريكما تريا وجوه الارض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه زهر الربا فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى اذا حل الربيع فأنما هي منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها نورا تكاد له القلوب تنور
من كل زاهرة ترقرق بالندى فكأنها عين اليك تحدر
تبدو ويحجبها الجميم كأنها عذراء تبدو تارة وتخفر

فما اظنك الا مدركا عظم الفرق بين الشعرين والفكرين ، فامرؤ القيس مصور ، وأبو تمام مفكر ، الاول قد اعاد المناظر الطبيعية بعينها او بعبارة اخرى نقلها الينا بأمانة عن طريق تلك التشبيهات المتوالية .
اما الثاني فركب أجنحة الخيال وابتعد به كثيرا عن ارضنا وسمائنا ، فتخيل الصحو وكأنه ممطر لغضارته ، والنهار المشمس وكأنه مقمر لبهائه ورقته والزهرة حين تسفر ثم تحتجب خلف الاوراق والاغصان وكأنها عذراء خجول تظهر ثم تختفي خلف الحجب والاستار .

كأن ثبيرا في عرانين وبله كبير اناس في بجاد مزمل

وقول ابن خفاجة عن جبل اخر مر به :

وقور على ظهر الفلاة كأنه طوال الليالي مفكر في العواقب (٧)

---

٥ ــ شبه ضروب الازهار الناشئة عن هذا المطر بضروب الثياب الملونة التي يعرضها التاجر اليماني للبيع .
٦ ــ ديوانه ص ١١٨ .
٧ ــ ديوانه ص ٢٧ .

يلوث عليه الغيم سود عمائم — لها من وميض البرق حمر ذوائب(٨)
أضحت اليه وهو أخرس صامت — فحدثني ليل السرى بالعجائب
فقال الاكم كنت ملجأ قاتل — وموطن أواه تبتل تائب (٩)
وكم مربي من مدلج ومؤوب — وقال بظلي من مطي وراكب (١٠)
فما هو الا ان طوتهم يد الردى — وطارت بهم ريح النوى والنوائب

فامرؤ القيس قد وقف عند حدود الشبه الظاهري بين جبل ممتد على جوانبه خطوط ملونة من أثر الزبد والغثاء وشيخ كبير قد تزمل في ثوب مخطط ، ولم يفكر او يعن بما وراء ذلك ، لانه مصور يرى ان واجبه قد انتهى عند هذا الحد . اما ابن خفاجة فقد تغلغل الى ما وراء تلك الثياب الخارجية ، وتعمق فكر الشيخ ودرس ما يجول به من خواطر وعبر ، او يبدو عليه من وقار وتعقل ، وأخذ يستعيد معه أخبار من لجأ اليه من أخيار واشرار . ومن المثالين السابقين نستطيع ان ندرك ما بين العقليتين من خلاف أما امرؤ القيس فأشبه بالمرآة المصقولة تعكس الحياة والطبيعة في دقة وامانة . وأما ابو تمام وابن خفاجة ــ والمحدثون من خلفهما ــ فقد سلطا عليها أضواء قوية من فكرهما وخيالهما ، فكشفا عن جوانب خفية ، لا يفطن اليها الفكر الجاهلي الساذج الذي لا يعني الا بالجوانب الظاهرية للحياة (١١) وما أشبه الفرق بين التفكيرين القديم والمحدث بالفرق بين

---

٨ ــ يلوث : يعصب ــ ذوائب : جمع ذؤابة وهي الشعر النابت على الناصية .

٩ ــ أواه : كثير الدعاء .

١٠ ــ مدلج : سائر بليل ــ المؤوب : الذي يقضي النهار سائرا قال بظلي : استظل به وقت الظهيرة .

١١ ــ يؤيد ذلك عدم شيوع الخرافة في آدابهم ومعتقداتهم ، كما ترى في أمة كالامة اليونانية . ولعل السبب في ذلك وضوح الصحراء العربية ، مع غموض البحار التي تكتنف بلاد اليونان ، والتي تثير كثيرا من الفروض والاوهام كلما ابتلعت طائفة من المسافرين على ظهرها . ومن آثار تلك النظرة السطحية للحياة عدم ايمانهم بالحياة بعد الموت . ولذا يعد قول طرفة بن العبد :

ارى قبر نحام بخيل بماله — كقبر غوي في البطالة مفسد
ترى جثوتين من تراب عليهما — صفائح صم من صفيح منضد

ممثلا للرأي السائد بين فريق كبير من اهل الجاهلية ، فلا يكاد يخالفهم في ذلك الا الحنفاء وهم أقلية . والبيتان في الوقت نفسه واضحان في وقوفهم عند ظواهر الامور .

تفكير الرجل الناضج والطفل الغرير (١٢) . او بين العالم المثقف والأمي الساذج . ولا عيب في ذلك فالحياة البدوية اثناء العصر الجاهلي تمثل مرحلة أولية من مراحل نمو الفكر الانساني ، بينما تمثل الحياة العباسية مرحلة اكثر نضجا ورقيا ، وطبيعي ان يترك ذلك أثره في الشعر ولكن ليس معنى هذا دائما تفوق الحديث على القديم ، اذ ربما مال بعض الناس الى رؤية الطبيعة في أثوابها الاولى دون تغيير لها او تبديل ، وأمثال هؤلاء يلذ لهم قراءة الشعر الجاهلي (١٣) .

فاذا ما انتقلنا الى ميدان التجارب النفسية وجدنا دقة التصوير أشد امتاعا من الجري وراء الخيال كما ترى في قول عروة بن حزام :

كأن قطاة علقت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان

حين يوضع بجانب قول بشار :

كأن فؤاده كرة ترامى حذار البين لو نفع الحذار

او كما ترى في قول طرفة بن العبد يصف حبيبته ونعومتها وإدلالها :

تحسب الطرف عليها نجدة يا لقومي للشباب المسبكر

حين يوازن بقول ابراهيم بن سيار في نفس المعنى :

توهمه طرفي فآلم خده فصار مكان الوهم من نظري أثر (١٤)

---

١٢ – أعتقد ان الشبه قوي بين ما يوصي به علماء التربية من استخدام وسائل الايضاح في تعليم الاطفال ، وبين ما شاع في الشعر الجاهلي من تصوير يقصد به الايضاح كما ترى في قول طرفة :

أبا منذر رمت الوفاء فهبته وحدت كما حاد البعير عن الدحض

ديوانه ص ٤٨ .

١٣ – بالقرب من لندن منطقة واسعة تركت للطبيعة تعمل فيها عملها دون تدخل من جانب البشر . وبالسؤال عن هذا الاهمال رغم خصوبتها . عرفت ان القوم قد ملوا مظاهر الحضارة وتدخل الانسان في كل شيء ، أحبوا ان يروا الحياة في مظاهرها الاولى ، فتركوا هذه المنطقة للرياح والامطار وكفى . ولكن يجب ألا ننسى ان للجانب الاخر شيعته وأنصاره الذين لا يحفلون بالنسيم حين يداعب اطراف النبات وأغصان الاشجار ، ولا يسمعون ألحانا او موسيقى حينما تعزف الرياح على أوتارها الهادئة الرقيقة .

١٤ – تاريخ الادب العربي ص ٣٦٩ .

والسبب في ذلك ان عروة وطرفة قدما لنا في عبارة عذبة جميلة تجربة طالما احسسنا بها وعجزنا عن تصويرها ، وأعادا الى اذهاننا ذكريات عزيزة ، فطرفة مثلا قد اعاد الى ذاكرتك صورة لفتاة مدللة او كالمدللة ، مترفة او كالمترفة ، طالما رفعت طرفها اليك في تثاقل فعل المتأذي حتى بتلك الحركة الهينة ، والمجهود اليسير . اما بشار وابن سيار فلم يفعلا شيئا سوى الجري وراء الاوهام .

ولا يفوتنا ان نذكر هنا ان التصوير كما عرفناه في العهد الجاهلي نادر جدا في العصر العباسي ، ولا يأتي حين يأتي الا وعليه مسحة من الحضارة الحديثة تجعل الفرق بينه وبين الجاهلي كبيرا . وتستطيع ان تطمئن الى صواب هذا الحكم حين تضع قول ابي الطيب مخاطبا سيف الدولة ومشيرا الى اعدائه .

نثرتهم فوق الأحيدب　　كما نثرت فوق العروس الدراهم

او قوله في الاسد :

يطأ الثرى متمهلا من تيهه　　فكأنه آس يجس عليلا

بجانب قول طرفة :

انا الرجل الضرب الذي تعرفونه　　خشاش كراس الحية المتوقد

او قوله :

أبا منذر رمت الوفاء فهبته　　وحدت كما حاد البعير عن الدحض

فطرفة قد انتزع من بيئته اقرب صورها لتمثيل الحفة والنشاط او الإحجام والتردد غير متأنق ولا متوقف . اما ابو الطيب فيختار اجمل الصور وأعذبها (١٥) .

ومن هذا النوع القديم الذي يلتزم فيه أمانة النقل عن الطبيعة معظم ما جاء لابي عبادة البحتري في التصوير ، فهو من هذه الناحية بدوي

---

١٥ ــ قد ذهب عبد الله بن المعتز بأجمل ما في الشعر العباسي من تشبيهات تقترب فيها الصور من الاصل المنقول عنه . وللمؤلف فيه بحث مفصل .

يعيش في المدينة او جاهلي تأخر به الزمن الى عهد بني العباس (١٦) ووصفه للبركة التي بناها المتوكل خير شاهد على ذلك واليك أبياتا منه :

تنصب فيها وفود الماء معجلة ... كالخيل خارجة من حبل مجريها (١٧)
كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من السبائك تجري في مجاريها
اذا علتها الصبا ابدت لها حبكا ... مثل الجواشن مصقولا حواشيها
اذا النجوم تراءت في جوانبها ... ليلا حسبت سماء ركبت فيها

وما أظنك الا ملاحظا تلك البساطة والسذاجة البادية على تشبيهاته ، فخياله في البيت الاول أيسر منالا حتى من قول امرىء القيس :

كأنه ذرا راس المجيمر حوله ... من السيل والغثاء فلكة مغزل

اما في البيت الثاني فهو يعيد عبارة يعرفها العامة قبل الخاصة حيث يشبهون الماء النقي دائما بأسلاك الفضة . وفي الثالث لم يزد على ان قلب قول عمرو بن كلثوم في الدروع :

كأن غضونهن متون غدر ... تصفقها الرياح اذا جرينا (١٨)

اما من حيث البيت الاخير فلا فضل له الا في اقامة الوزن فان قوة الشبه بين الاجسام وخيالها في الماء امر يدركه من لديه ادنى حظ من سلامة الملاحظة ولا اقول دقتها . ولا يسعنا ان نترك هذا الموقف دون ان نشير الى ما كان من شأن التصوير في العهد الاموي . وأظننا لن نكون بمعزل عن الحقيقة اذا قلنا ان شعراء هذا العهد كانوا يسيرون في أعقاب الجاهليين . وقد اخترنا لك احدى نقائض جرير لترى مدى اكثاره من ذلك التصوير الجاهلي الذي يهدف الى نقل الحقائق دون مبالغة او تزيد الا ما تقتضيه ضرورة الايضاح ، ودون جري وراء الخيال ، او تعمق لمظاهر الكون . واليك بعض الابيات التي اخترناها على غير ترتيب :

---

١٦ ـ ومن هذا ترى ان اعجاب أنصار القديم من النقاد به وقولهم فيه «انه يحافظ على عمود الشعر» لم يكن لاقلاله من البديع ، وبعده عن غريب المعاني .

١٧ ـ ديوانه ص ٣١٩ .

١٨ ـ المعلقات .

حور العيون يمسن غير جوادف ... هز الجنوب نواعم العيدان (١٩)
عطر الثياب من العبير مذيل ... يمشي الهوينى مشية السكران
صدع الظعائن يوم بنّ فؤاده ... صدع الزجاجة ما لذاك تدان
من كل منتفخ الوريد كأنه ... بغل تقاعس فوقه خرجان
لاقوا فوارس يطعنون ظهورهم ... نشط البزاة عواتق الخربان (٢٠)
ولقيت راية آل قيس دونها ... مثل الجمال طلين بالقطران
هزوا السيوف فأشرقوها منكم ... وذوابلا يخطرن كالأشطان

١٩ ـ ديوانه ص ٥٧٠ ـ الجوداف : القصار ـ العيدان : جمع عيدانة ، وهي النخلة الطويلة .

٢٠ ـ انشط : الجذب ـ البزاة : الصقور ـ الخربان : جمع عرب وهو الحباري الذكر ، وعواتقها صغارها ، اي فعلوا بهم كما تفعل الصقور بالخربان .

العنصر الرابع

الموسيقية : عرفنا ان الشعر الجاهلي يمتاز بالموسيقية ، وأن السبب الاول في ذلك انه كان مسموعا ، فوجب ان يكون كذلك حتى يخف على الاسماع والقلوب . ومن الحق ان نقول : ان الشعر العربي في مجموعه قد احتفظ بهذه الموسيقية دون تغيير كبير الا عند إمامي مذهب الطبع والصنعة ومن لف لفهما ، حيث حرص الاول منهما على تجويد موسيقى الشعر وتهذيبها ، بينما اضطر ثانيهما الى التضحية بها كما ضحى بالطبع في سبيل الصناعة اللفظية . وتفصيل ذلك ان البحتري وقد تخلف عن استاذه ومعاصره ابي تمام في ميدان الفكر ، ولم يستطع ان يحلق معه في تلك السماء التي طالما حلّق فيها ، أحب ان يحدث نوعا من التوازن بينه وبين ذلك العملاق ، فلم يجد امرا اقرب الى متناول يده ، او أحب الى نقاد عصره من تهذيب موسيقى الشعر ، فصرف الى ذلك الامر همه ، وما زال بشعره حتى بلغ في تلك الناحية شأوا عظيما .

وكان يعتمد في تحقيق تلك الموسيقية على اختيار أعذب البحور واخفها . وكثيرا ما كان يجمع الى ذلك خفة القافية وجمال حرف الروي فيختار قوافيه من بين المفردات التي تشتمل على حرف او اكثر من حروف اللين ، حتى يسهل مرورها في الحلق ، ويحسن وقعها على الأذن . ثم لا يشغله شيء من ذلك عن بقية البيت بوجه عام ، فيختار مفرداته من أعذب

الالفاظ وارقها . ولا يكتفي بذلك حتى يتأكد ان كلا منها جديرة بأن تحسن جوار زميلتها حين تلتقي بها في عبارة ، او تقيم معها في بيت . ونحن لا نشك في انه كان يتمتع بأذن ذوّاقة ، وأنه كان يستغل تلك الموهبة الى أبعد حدود الاستغلال ، وذلك بترديد البيت عدة مرات على مسامعه حتى يتأكد من خفته وسلاسته .

ومع ان الكلمة الاخيرة في عذوبة الالفاظ وثقلها ينبغي ان تترك لعلماء الاصوات الذين يستطيعون ان يبنوه على قواعد علمية تجريبية مفصلة ، فان ذلك لا يمنعنا من القول بأن شيئا غير قليل من ذلك تستطيع الفطر السليمة ان تدركه دون عناء ، وان لم تعرف له اسما ، او تحفظ له قاعدة. وقديما لاحظ النقاد شيئا من ذلك ، ومثلوا لتنافر الحروف والمفردات بقول امرىء القيس في شعر حبيبته :

غدائره مستشزرات الى العلا ... تضل العقاص في مثنى ومرسل

وقول الاخر :

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

واليك أبياتا من احدى مدائح البحتري في المتوكل على الله ، يتمثل فيها ما قدمنا من خصائص شعره . وفيها يقول وقد بدأ مشببا :

عذيري فيك من لاح اذا ما ... شكوت الحب حرقني ملاما
فلا وابيك ما ضيّعت عهدا ... ولا قارفت في حبيك ذاما
الام على هواك وليس عدلا ... اذا احببت مثلك ان الاما
لقد حرمت من وصلي حلالا ... وقد حللت من هجري حراما
أعيدي فيّ نظرة مستثيب ... توخي الاجر او كره الأثاما
تَرى كبدا محرقة وعينا ... مؤرقة وقلبا مستهاما
تناءت دار علوة بعد قرب ... فهل ركب يبلغها السلاما
وجدد طيفها عتبا علينا ... فما يعتادنا الا لماما
وربة ليلة قد بت أسقى ... بعينيها وكفيها المداما
قطعنا الليل لثما واعتناقا ... وأفنيناه ضما والتزاما

ويترك التسيب الى المديح فيقول :

مخالف امركم لله عاص ... ومنكر حقكم لاق اثاما
وليس بمسلم من لم يقدّم ... ولايتكم وان صلى وصاما

شهرتـــم في جوانب كل ثغر ظبـات البيض والأسل المقامـا
وأقدمتـم وفي الاقدام كـره علـى الغمرات تقتحم اقتحامـا
أمين الله دمت لنـــا سليما ومليت السلامـــة والدوامـــا
ارى المتوكليـــة قد تعالت محاسنهـــا وأكملت التمامـا
قصور كالكواكب لامعـــات يكـدن يضئن للساري الظلامـا

اما ابو تمام فيصدر عن ذوق وعقلية مغايرة تمام المغايرة لصاحبه ، فقد وضع نصب عينيه جودة المعاني وغرابتها من جهة وازدحام المحسنـــات البديعية التي قد تجف حتى تشبه العمليات الحسابية من جهة اخرى ، وترك عذوبة اللفظ وجمال الموسيقى تأتي في المؤخرة ، وهكذا يمكن ان تقول انه لم يكن يحفل بها الا بقدر ما كان اهل الطبع يحفلون بالمحسنـات البديعية ولذا جاءت معظم أشعاره ثقيلة على الاسماع والالسنة . وسنذكر لك هنا أبياتا من احدى قصائده المشهورة ، قالها في رثاء محمد بن حميد الطوسي :

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض ماؤهـا عذر (١)
توفيت الآمـال بعـــد محمـــد وأصبح في شغل عن السفر السفر
وما كان يدري مجتدي وجود كفه اذا ما استهلت انه خلـــق العسر
الا فـــي سبيل الله من عطلت لـــه فجاج سبيل الله وانثغـــر الثغـــر

وفيها يقول :

وقد كانت البيض المآثير في الوغى بواتـــر فهـــــي الان من بعده بتر
أمن بعد طـــي الحادثات محمـدا يكون لأثـــواب الندى ابـدا نشر
اذا شجرات العرف جذب اصولها ففي اي فرع يوجـــد الورق النضر
لئن ابغض الدهر الخزون لفقـده لعهدي به ممن يُحَبُ له الدهـــر

والابيات تعلن عن نفسها في وضوح فكثرة الجناس والطباق مع البناء للمجهول قد اساء الى الموسيقية كثيرا .

على ان لابي تمام أبياتا تجعل المرء يجزم بأنه كان يتحدى الذوق العام والاوضاع الموسيقية احيانا كقوله في ابتداء احدى قصائده :

---

١ ـ ديوانه ص ٣٦٨ .

قَــدكَ اتئب اربيت في الغلواء　　كــم تعذلون وانتم سجرائـــــي (٢)

وكقولــه :

قرت بقرّان عين الدين وانشترت　　بالأشترين عيون الشرك فاصطلما (٣)

وكقوله لبعض ممدوحيه :

جاءتك مـــن نظم اللســــان قلادة　　سمطان فيها اللؤلــؤ المكنــــون (٤)
حذيت حذاء الحضرميــة ارهفت　　واجابهـــــا التخصــــير والتلسين

وقد تعجب حين تراه يشبه قصائده بالاحذية ، كأنما عجز عن ان يجد لها شبها خيرا من ذلك ، لكن رويدا فأنه يشبهها في مكان اخر بما هو شر من ذلك ، واشد وقعا على اذن الممدوح فيقول :

فكأنما هـــي فـــي لسماع جنادل　　وكأنما هي فـــي القلوب كواكب (٥)

ويقول في رثاء بني جميد :

لو خر سيف مـــن العيوق منصلتا　　ما كان الا علـــى هاماتهم يقـــع

وما اعظم الفرق بينه وبين قول كعب بن زهير الذي نسج على منواله .

لا يقع الطعن الا فـــي نحورهـــم　　وما لهم عن حياض الموت تهليـــل

ويقول في احد ممدوحيه :

هو الهمام هو الموت المريح هـــو الـ　　ـم حتف الوحي هو الصمامة الذكر (٦)

اخذه من قول مسلم بن الوليد :

موف على مهج واليوم ذو رهـــج　　كأنـــه اجـــل يسعى الى امـــل

وتورط ابي تمام في هذه الغرائب وغيرها من أمور يأباها الحس المرهف

---

٢ ــ ديوانه ص ٢ .
٣ ــ ديوانه ص ٢٢٩ .
٤ ــ ديوانه ص ٢٣٠ .
٥ ــ ديوانه ص ٢٩ .
٦ ــ ديوانه ص ١٥٠ .

يرجع الى تغلب الناحية الفكرية على غيرها من نواحي الشعور ، فان قوة احدى هذه النواحي كثيرا ما يكون على حساب الاخرى (٧) .

واستخفاف ابي تمام بالذوق العام ، على نحو ما بدا في الابيات السابقة ، ومخالفته طريقة الاوائل ، واسرافه المرزي في المحسنات ، يهدينا الى الفكرة المسيطرة عليه وعلى كثير من شعراء العصر العباسي ، الا وهي الاعتماد على الرأي الشخصي ، وعدم التقيد بالتقاليد الموروثة ، او الوقوف عند السماع .

وهو واصحابه في هذا يشبهون اهل الكوفة بين النحويين ، والمعتزلة في المتكلمين ، وأبا حنيفة مع الفقهاء . ومن هذا نرى ان تيار التقليد والتجديد او التبعية والتحرر لم تظهر آثاره في ميادين الادب وحدها ، بل شملت انواع النشاط الفكري المختلفة . فهي اذن ثورة فكرية عامة أعان عليها ، ومهد لها تطور المجتمع . وهي لذلك تذكرنا بالثورة الرومانتيكية في الآداب الاوروبية ، فهي تشبهها من حيث انها صدى لتطور الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية ، وتشبهها من حيث ان كلا منهما حاولت التحرر من كل ما هو قديم ، سواء في ذلك لغة الشعر ومعانيه ، او دوافعه واغراضه .

واذا كان ابو تمام قد مثل الذروة العليا لتلك الثورة ، فان له سلفا مهدوا لها . وكان لكل منهم لونه الخاص . فبشار بن برد اول من اصاب عناصر الشعر القديم في الصميم ، فلم يحفل بدقة التصوير ، ولم يلتزم الحقيقة فيما يقول ، ثم ذهب بعد ذلك بوقار الشعر العربي في غزله وهجائه .

وقد كان ابو نواس يشبهه في مهاجمة الذوق العام ، حيث أسرف في الحديث عن الخمر والغلمان ، ثم رفع لواء الثورة على بناء القصيدة العربية اما ابو العتاهية فحاول تيسير لغة الشعر والميل به نحو العامية .

ومسلم بن الوليد هو واضع اسس الطريقة التي انتهجها ابو تمام فيما بعد ، واهم ما تمتاز به العناية بالبديع من جهة ، والغوص على المعاني من جهة اخرى .

---

٧ ـ ينقسم الشعور الى فكر ووجدان وارادة . وموقف ابي تمام هنا شبيه بموقف شوقي في ذكرى شكسبير ، حيث شبه جمجمته بأصيص أزهار ، ولسانه بذنب عقرب الى اخر ما ذكره هناك .

وهذا الاختلاف بين قادة الثورة هو سر ما نراه من خلاف بين مؤرخي الادب حين يحاولون البحث عن زعيمها ، ومرسل الصيحة الاولى فيها ، فتراهم يجعلون بشارا زعيم المحدثين جميعا حينا ، وأبا نواس حينا اخر ، او يتخطونهما معا الى مسلم وأبي تمام ، لان مذهبهما متشعب النواحي ، واضح المعالم والرسوم .

ولعل السر في اغفالهم بشارا احيانا ان نواحي التجديد عنده لم تكن واضحة في أذهان معظم النقاد الذين لم يحاولوا ان يتعرفوا على عناصر الشعر القديم ، ويعرفوا موقف زعماء المحدثين منها .

ومن هذا ايضا تعرف السر في تعصب انصار القديم للبحتري ، رغم تأخر الزمن به ، وجعلهم اياه زعيم اهل الطبع ، مع ان ابا العتاهية وبشارا يشاركانه فيه . وما ذلك الا لان كلا من الاخيرين وان حافظ على أهم عناصر الشعر القديم ، وهو الجريان مع الطبع ، قد خالفها في امر او أكثر ، اما البحتري فكان صورة من القدماء ، لا تكاد تختلف عنهم الا بقدر ما تمليه الضرورة من امور لا تمس أصول الشعر العربي التي اشرنا اليها .

وكأني بالقارىء يسأل نفسه ـ وقد فرغ من امر القدامى والمحدثين ـ عن اشعر الفريقين ، وأعذب الشعرين . ومن حقه ان يسأل هذا السؤال. ومن منا لا يسأل نفسه من حين لآخر ، وبمناسبة او اخرى عن أشد عصور الشعر العربي ازدهارا ، وهل هو الجاهلي ، ام الاموي ، ام العباسي ، وعن امير شعراء العربية ، وهل هو امرؤ القيس ، ام جرير ، ام المتنبي .

وجواب هذا السؤال ان لكل من القديم والجديد مزاياه ، والفرق بينهما اشبه بالفرق بين فن البناء قديما وحديثا . فالاول يمتاز بالبساطة والرحابة ، والثاني بالدقة والتعقيد . وكلّ طراز صالح لعصره ، مناسب لظروف اهله . فنحن نعجب ببساطة الشعر القديم وقصده ، ووضوحه وتناوله الامور من اقرب الطرق وأيسرها على القارىء والسامع ، وقارىء الشعر الجاهلي أشبه براكب المطية الذلول ، او البحر الهادىء .

اما الشعر الحديث فانه يهز نفوسنا ، ويبهر أعيننا بما فيه من معان بديعة ، ونظرات عميقة ، وفهم تام للحياة والأحياء حين تتوفر له جودة العبارة ، وعذوبة اللفظ ، ويسعفه الطبع السليم . ترى شيئا من ذلك لبشار وابن الرومي وأبي نواس وأضرابهم كما ترى كثيرا منه عند ابي الطيب، وقدرا صالحا عند ابي تمام ، فاذا تعقّد لفظه ، واضطربت عبارته ، وخنق انفاسه كل غث ومتكلف من البديع ، ذهبت حلاوة المعنى وجمال الفكرة .

وهكذا نستطيع ان نقول : ان شعر القدامى ومعهم اهل الطبع من

المحدثين كالبحتري ، يحلق فوق رؤوسنا حتى نكاد نلمسه بأيدينا ، ولكنه لا يتهافت تحت اقدامنا . اما ابو تمام واشباهه فيصعدون احيانا الى أوج السماء ، ويسقطون أطوارا الى اعماق الارض .

والآن وقد استعرضنا عناصر الشعر الاربعة ، وعرفنا اهم ما اصابها من تطور في العصر العباسي ، نحب ان نلفت الانظار الى احد الامور الهامة التي يمكن بمساعدتها ان نميز بين القديم والحديث من الشعر . ونعني به شيوع مظاهر الترف والحضارة في الشعر الحديث ، ويقابل ذلك في القديم سيطرة الحياة البدوية عليه ، بحيث لا يكاد القارىء يخطىء وهو يقرأ في الشعر العربي ما اذا كان يقرؤ لقديم ام محدث .

واذا احببت ان تتأكد من هذا ، فاقرأ قول الفرزدق :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ترة من جذبها بالعصائب

ثم اقرأ بعقبه قول ابن المعتز في موقف مشابه للسابق :

والريح تجذب أطراف الرداء كما افضى الشفيق الى تنبيه وسنان (٨)

فالظروف التي اوحت بالبيتين واحدة . ألا وهي عبث الريح بأطراف ثياب هذا الشاعر او ذاك . ولكن كلا منهما يفسر هذا العمل في ضوء تجاربه الخاصة . فالفرزدق الذي قضى حياته في منازعات مستمرة مع جرير وغير جرير من الشعراء . بل واشترك بطريق مباشر او غير مباشر في حروب تميم مع غيرها من قبائل البدو يرى في جذب الريح لطرف عصابته نوعا من الخصومة . اما ابن المعتز فيتذكر به موقفا كريما ، وهو موقف الحواضن والخدم وهم يوقظونه في رفق ولين .

وشبيه بهذا قول طرفة وبشار في الغناء والحديث . قال الاول في قينة :

اذا رجعت في صوتها خلت رجعها تجاوب أظآر على رُبَع رَدي

وقال الاخر :

وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا

فطرفة يتخير اقرب الاشياء اليه واشدها شبها بترجيع القينة ألا وهو

---

٨ ـ ديوانه ص ٦٨ .

تجاوب النوق المرضعات حين تفقد احد فصلانها . بينما راى بشار في احاديثها شبها من الرياض والازهار ، لما في كل منهما من جمال ومتعة .

وينبغي الا تنسى ان سلطان الزمن والبيئة على الشاعر اقوى من ان يقاوم ، فهذا عبد الله بن المعتز يحاول في بعض قصائده ان يتشبه بالاوائل فيقول معارضا لبيدا :

أذلك ام فـــرد بقفـر اجاده　　من الغيث ايك فرعه قد تهللا (٩)
لدى ليلة خوارة المزن كلمـــا　　تنفس في أرجائها البرق أسبلا
كأن عليه من سقيط قطارهـا　　جمانا وهت أسلاكه فتفصـــلا
فبات بليـل العاشقين مسهدا　　الى ان راى صبحا اغر محجـلا
فنفض عن سرباله لؤلؤ الندى　　وآيس ذعرا قلبه فتأملـــلا (١٠)

واظن ان البون شاسع بين هذه الابيات وتلك التي قالها لبيد في ناقته فاللؤلؤ والجمان وليل العاشقين الطويل وسهادهم أمور ما كان لها ان تعرف الطريق الى ثور الوحش الذي يتحدث عنه ابن المعتز ، فالموقف عصيب لا يحتمل كل تلك الرقة ، خشن لا يتسع لكل ذلك الترف ولكن الامـــير العباسي رجل مترف ، فلا بد ان تخونه عباراته ، وتنم عنه لغته شاء أم لم يشأ .

واذا كانت شخصية ابن المعتز وعصره يأبيان ان يستترا حتى حين يريد ان يخفيهما ، فانهما يظهران بوضوح تام حين يرسل نفسه علـــى طبيعتها . وهذا هو السبب فيما اشتهر به من جمال التشبيهات ونبلها. فالقارىء لقوله :

انظـــر الى حسن هلال بـــدا　　يهتـــك مـــن أنواره الحندســـا
كمنجل قـــد صيـــغ مـــن فضة　　يحصد ما زهر الدجا النرجســـا

لا يشك في انه يقرأ لشاعر عباسي ، كما ان القارىء لمثل قول زهير :

ومـــن لم يصانع في امـــور كثيرة　　يضرّس بأنياب ويوطـــأ بمنســـم

---

٩ ــ ديوانه ص ٢٨١ .

١٠ ــ وازن بين هذه الابيات وبين قول لبيد في معلقته :

افتلك ام وحشية مسبوعـة　　خذلت وهادية الصوار قوامها

وما بعده .

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلم

يدرك من اول نظرة انها لشاعر بدوي .

وما ذلك الا لان المناجل الفضية لا يمكن ان تخطر ببال البدوي ، كما ان الانياب والمناسم ، وأحواض المياه والدفاع عنها بحد السيوف والدعوة الى التظالم من شأن الجاهلية الاولى وضروراتها .

الفصل الرابع

استرداد الشعر العربي لحريته

خرج ابو تمام من المعركة التي نشبت بينه وبين أنصار القديم منتصرا او كالمنتصر وصار له مذهب عرف به ، ونسج على منواله بعض فحول الشعراء كابن المعتز ، بل والمتنبي في مبدأ حياته الشعرية ولكن الاخير لم يلبث ان ثار عليه ، وحرر نفسه ، بل والشعر العربي منه ايضا .

وقد ادهشنا (١) أن نرى صاحب «الفن ومذاهبه» قد وضعه في مكان غير لائق به ، حيث جعله رأس جماعة من الشعراء ظهرت في القرن الرابع الهجري ، وأخذت تعيد وتبدىء في الخواطر المسوقة والافكار المطروقة ، ثم هي تعقد في الالوان والاصباغ القديمة ، اذ تستعين بوسائل من التكلف للثقافة . فليس فيها نقش ولا زخرفة انما هي اشياء غريبة عن الفن لا تفصح عن وجدان ، ولا ثراء في الالوان ، ولذا جاء جمالها مملا ينقصه الروعة الفنية» (٢) .

---

١ ـ قد يعجب القارىء لطول تتبعنا للزميل الدكتور شوقي واشارتنا الكثيرة الى كتابته ولكن ماذا نفعل ، وقد كتب خير ما كتب في الموضوع وان خالفنا وخالفناه احيانا ؟ والمرء يشغل نفسه دائما بأهم ما سبقه من بحوث أو باحثين .

٢ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور شوقي ضيف ص ١٧٨ .

وقد استدل الزميل على دعواه بعدة أبيات تثبت تصنعه للثقافات المختلفة كمصطلحات الصوفية وعبارتهم ، وللافكار الفلسفية . ومن ذلك قوله مشيرا الى فكرة التجلي :

تجلى لنا فأضأنا به كأنا نجوم لقينا سعودا

او فكرة الحال كما في قوله :

وحالات الزمان عليك شتى وحالك واحد في كل حال

وكقوله مشيرا الى قول أرسطو في الحكمة : «قد يفسد العضو لصلاح اعضاء» :

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الاجسام بالعلل

ثم يأخذ عليه أبياتا اخرى مثل قوله :

ولك الزمان من الزمان وقاية ولك الحمام من الحمام فداء

وقوله :

اسفي على أسفي الذي دلهتني عن علمه فيه علي خفاء

ورأينا ان ابا الطيب رغم هذه الابيات وغيرها أقل تصنيعا وتصنعا من ابي تمام فشعره ليس تلفيقا او تعقيدا ، بل ولا امتدادا لشعر ابي تمام ، وانما هو عودة الى القديم ، ونقض لمذهب الصنعة الذي شاء ابو تمام بنيانه . والى ابي الطيب يرجع الفضل الاول في وقف تيار هذا المذهب الغريب على الشعر العربي والعقلية العربية .

وتسألني بعد ذلك : ما بال هذه الابيات التي مرت منذ قليل ، وظاهرها التصنع والتعقيد ، وبجانبها عدد غير قليل لمن تتبع شعر ابي الطيب ؟ والجواب على ذلك ان هذه الابيات لا تمثل شعر المتنبي ، فقد قالها محاكيا أبا تمام ، لان الاخير كان اقرب الفحول المحدثين اليه وأعظمهم ذكرا (٣)

---

٣ ـ ربما كان من تمام الفائدة ان نذكر ان القصيدة الهمزية التي أكثر خصوم ابي الطيب من الاشارة اليها ، والتي ذكرنا بعض أبياتها منذ قليل قد ارسل بها الشاعر الى اديب مثله هو ابو علي هرون بن عبد العزيز الاوارجي الكاتب . ولغة العلماء والادباء فيما بينهم دائما غير لغتهم حين يتحدثون الى الجمهور ومن يدري لعل الاوارجي هذا كان مولعا بالتعقيد مفتونا بهذا النوع من الشعر فأحب ابو الطيب ان يزيده منه .

ولكن طبيعة المتنبي المتمردة الجامحة ما كانت تستكين لقيود الصنعة ، ولا تصبر على الرسف في سلاسلها طويلا ، ولذا كانت تثور عليها فتحطمها ثم تنطلق على طبيعتها غير حافلة الا بما جاء عفوا ودون عناء . ويذكر الدكتور عبد الحميد يونس ان ابا الطيب حاول ان يسلك مسلك ابي تمام فوجده صعبا وعر المسالك فتحول عنه الى غيره (٤) وليس الامر كما ذكر ، بل أعرض عنه للاسباب التي اشرنا اليها .

فمن الظلم اذن لابي الطيب ، بل ولأي شاعر اخر ، ان نأخذه بالبيت او البيتين نتصيدهما من هذه القصيدة او تلك ، الا ترى ان أبا العتاهية يقول :

الدهر ذو دول ، والموت ذو علل والمرء ذو أمل والناس أشباه (٥)
ولم تزل عبر فيهن معتبر يجري بها قدر والله أجراه
يبكي ويضحك ذو نفس مصرفة والله اضحكه والله أبكاه

ومع ذلك لا ندخله في رجال الصنعة ، لانه قالها لغرض خاص (٦) وخرج فيها عن طبعه وطابعه العام .

والمنهج السليم اذن ان نتخير قصيدة او بعض قصيدة لكل من الشاعرين تمثل طابعه العام ثم نوازن بينهما من حيث شيوع البديع وغير البديع من خواص المذاهب الحديثة فيهما وعدم شيوعه .

وقد استعرضنا انتاج كل من الشاعرين لاختيار نماذج للموازنة فوجدنا ان شعر ابي تمام يكاد يكون في مستوى واحد من حيث الحرص على تقاليد مذهب الصنعة والتكلف ، اما المتنبي فيمكن تقسيم شعره الى قسمين احدهما على مذهب ابي تمام ، وثانيهما قاله وهو مشغول بنفسه او كالمشغول ، معني بآماله وآلامه او كالمعني . وهو قدر ضخم لا يقل عن سابقه ، وقد ارخى فيه لنفسه العنان وابتعد كثيرا عما تقتضيه الصنعة من تكلف وتعقيد وتصنع وتصنيع ، فكان كالبركان الثائر يرسل الحمم دون

---

٤ ـ مقدمة ديوان ابي تمام اخراج مطبعة صبيح .

٥ ـ ديوانه ص ٢١٢ .

٦ ـ يظهر انه كان يعارض بها قول مسلم بن الوليد .

موف على مهج واليوم ذو رهج كأنه أجل يسعى الى امل

حيث تحداه ان يقول مثلها كما ورد في الاغاني ج ٣ ص ١٢٩ .

طويل فكر او مراجعة . وسنبدأ بذكر أبيات له تمثل النوع الاول ، ونضع بإزائها أبياتا لابي تمام كي يتضح وجه الشبه او الخلاف بينهما . ثم نذكر بعد ذلك هذا النوع الذي انفرد به ابو الطيب .

وقد اخترنا لهما قصيدتين متشابهتين حيث قيلت كل منهما في مدح ملك او امير مع التعرض لتنكيله بخارج عليه وكافر بنعمته مكتفين بقدر كاف من كل منهما .

قال ابو الطيب يمدح سيف الدولة ويذكر ايقاعه ببعض القبائل الخارجة عليه :

طوال قنا تطاعنها قصار ... وقطرك في ندى ووغى بحار (٧)
وفيك اذا جنى الجاني أناة ... تظن كرامة وهي احتقار
واخذ للحواضر والبوادي ... بضبط لم تعوده نزار
تشمَّمه شميم الوحش إنسا ... وتنكره فيعروها نفار
وما انقادت لغيرك في زمان ... فتدري ما المقادة والصغار
فقرّحت المقاود ذفرييها ... وصعَّر خدها ذاك العذار (٨)
واطمع عامر البقيا عليها ... ونزّقها احتمالك والوقار
وغيرها التراسل والتشاكي ... وأعجبها التلبب والمغار
جياد تعجز الأرسان عنها ... وفرسان تضيق بها الديار
وكانت بالتوقف عن رداها ... نفوسا في رداها تستشار
وكنت السيف قائمه اليها ... وفي الاعداء حدك والغرار
فأمست بالبديَّة شفرتاه ... وأمسى خلف قائمه الحيار
وكان بنو كلاب حيث كعب ... فخافوا ان يصيروا حيث صاروا
تلقوا عز مولاهم بذل ... وسار الى بني كعب وساروا
فأقبلها المروج مسومات ... ضوامر لا هزال ولا شيار

اما ابو تمام فيقول مادحا المعتصم ومشيرا الى حرق الأفشين :

الحق أبلج والسيوف عوار ... فحذار من اسد العرين حذار
ملك غدا جار الخلافة فيكم ... والله قد اوصى بحفظ الجار
يا رب فتنة أمة قد بزها ... جبارها في طاعة الجبار

---

٧ ـ ديوانه ج ٣ ص ١٠٠ .

٨ ـ ذفرييها : مثنى ذفري وهي العظم الذي خلف الاذن .

جالت بخيذر جولة المقدار   فأحله الطغيان دار بوار
كم نعمة الله كانت عنده   فكأنها في غربة وإسار
كسيب سبائب لؤمه فتضاءلت   كتضاؤل الحسناء في الأطمار
موتورة طلب الإله بثأرها   وكفى برب النار مدرك ثار
صادى امير المؤمنين بزبرج   في طيه حمة الشجاع الضاري
مكرا بني ركنيه الا انه   وطد الاساس على شفير هار
حتى اذا ما الله شق غباره   عن مستكن الكفر والاصرار
ونحا لهذا الدين شفرته انثنى   والحق منه قانيء الاظفار
هذا النبي وكان صفوة ربه   من بين باد في الأنام وقار
قد خص من اهل النفاق عصابة   وهم أشد أذى من الكفار
واختار من سعد لعين بني ابي   سرح لوحي الله غير خيار
حتى استضاء بشعلة السور التي   رفعت له سجفا عن الاسرار

اما أبيات المتنبي التي تمثل الشطر الثاني من شعره فهي :

عيد بأية حال عدت يا عيد   بما مضى أم لأمر فيك تجديد
أما الأحبة فالبيداء دونهم   فليت دونك بيدا دونها بيد
لولا العلا لم تجب بي ما اجوب بها   وجناء حرف ولا جرداء قيدود
وكان اطيب من سيفي مضاجعة   أشباه رونقه الغيد الأماليد
لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي   شيئا تتيمه عين ولا جيد
يا ساقيي أخمر في كئوسكما   ام في كئوسكما هم وتسهيد
أصخرة انا مالي لا تحركني   هذي المدام ولا تلك الاناشيد
اذا اردت كميت الخمر صافية   وجدتها وحبيب النفس مفقود
ماذا لقيت من الدنيا واعجبها   اني بما انا باك منه محسود
امسيت أروح مثر خازنا ويدا   انا الغني واموالي المواعيد
اني نزلت بكذابين ضيفهم   عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الايدي وجودهم   من اللسان فلا كانوا ولا الجود
ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم   الا وفي يده من نتنها عود
من كل رخو وكاء البطن منفتق   لا في الرجال ولا النسوان معدود

وأظن ان القارىء الكريم بعد الموازنة بين الشعرين سيوافقنا على ان اتهام ابي الطيب بالتلفيق والعيش على تراث الاوائل مع الخلو من الروعة الفنية فيه حيف شديد عليه ، ومع ان في قصيدته الاولى بديعا لا يقل عما لصاحبه ، فان بديع ابي الطيب تتطلبه المعاني في إلحاح . الا ترى ان وضع

طوال القنا مع القصار ، والكرامة بجانب الاحتقار وقائم السيف بأزاء جده والفرار ينسجم انسجاما تاما مع غرض القصيدة وهو الحرب والنضال .

فأين من هذا ما تراه عند ابي تمام من وضع الجبار بجانب الجبار والثار بعد الثار ماذا يقصد بهذا ؟ أيريد ان يجعل منها جناسا ؟ لقد رجعنا الى شرط الجناس فرأينا ان تكرار الكلمة بلفظها ومعناها كما هي الحال هنا ليس من الجناس في شيء ، بل لا بد ان يختلف المعنى اذا اتحد اللفظ كما هو الحال في كلمة إباء من قول المعري :

فان إباء الليث ما حل انفه   بأن محلات الليوث إباء

او يختلف اللفظان في الاشتقاق اذا اتحد المعنى كما ترى في لفظي حل ومحلات من البيت السابق .

اما هذا التكرار فليس من الجناس في شيء (٩) ومع ذلك يصر عليه ابو تمام ويكثر منه كأن ولوعه بالصورة اللفظية أغراه بالاكثار حتى مما لا خير فيه وقد كان العرب يفعلون ذلك ولكن لفائدة كما في قول مالك بن الريب :

لقد كان في اهل الغضى لودنا الغضى   مزار ولكن الغضى ليس دانيا
فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه   وليت الغضى ماشي الركاب لياليا

فانه انما فعل ذلك حين حضرته الوفاة فحن الى موطنه في بلاد الغرب .

ولهذه الكلمة في قلبه وحياته وضع خاص وارتباطات كثيرة وذكريات عزيزة لانها موطنه ، وطبيعي ان يحن اليه في اللحظات الاخيرة من حياته . ولذا لا نجد بأسا في تكرارها . ومع ان النقاد يأخذون على الاعشى قوله (١٠) :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعني   شاو مشل شلول شلشل شول

لا تحاد معنى الصفات الاربعة الواردة بعد شاو وتقارب لفظها ، فانا نعتقد انه فيها خير ألف مرة من ابي تمام في قوله :

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن   يرضى المؤمل فيك الا بالرضا

لان التكرار عند الاول له دوافعه النفسية فالاعشى سكير وحريص على

---

٩ ــ المثل السائر لابن الاثير ص ١٥٦ .

١٠ ــ الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٢ .

ان يكون الشوّاء نشيطا خفيف الحركة حتى لا ينغص عليه لذة الخمر بطول انتظار الشوّاء . اما ابو تمام فلا هدف له من هذا التكرار سوى الزخرف اللفظي .

ويمتاز الاعشى بأمر اخر ، ذلك ان التكرار عنده استوفى شرط الجناس ، وهو اختلاف الالفاظ من حيث الاشتقاق .

فاذا ما ولينا وجهنا شطر النوع الثاني من شعر ابي الطيب وجدنا له قصائد كثيرة يمكن ان توضع بجانب الدالية السابقة ونذكر على سبيل التمثيل :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بحالي وجسمي عنده سقم

وقوله :

ملومكما يجل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام

وقوله :

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثلما تهب اللئام

وقوله :

على قدر اهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وقوله :

فديناك من ربع وان زدتنا كربا فانك كنت الشرق للشمس والغربا

وقوله :

كم قتيل كما قتلت شهيد ببياض الطلى وورد الخدود

على ان هناك امرا خطيرا ينبغي ان نفطن اليه، وذلك ان قصائد ابي الطيب حتى المعروفة بغرابتها لا تخلو من ابيات وهاجة ترسل ضوءا قويا يشغلنا عما حوله من غرابة ويغرينا بمتابعة القراءة حتى النهاية . ومثال ذلك قصيدته الهمزية التي يرى فيها الدكتور شوقي صورة واضحة للتعقيد ، الا ترى ان قوله :

مثلت عينك في حشاي جراحة فتشابها كلتاهما نجلاء

كاف لان يدفعنا لاغتفار ما عساه ان يأتي بعده من سيئات . بل دعني اتقدم معك الى هذه الابيات التي نأخذها عليه مثل قوله :

ولك الزمان من الزمان وقايـــــة   ولك الحمام مــن الحمام وقـــاء

قل فيها وخذ عليها ما تشاء ، ولكنك لن تستطيع ان تقول انها ميتة ينقصها الحياة والحركة ، وهذا يكفينا . دعها تثيرنا ضد الشاعر او ضد انفسنا ، او تثير الخصومة بين بعضنا وبعض كما توقع هو ، فانها في جميع هذه الحالات ستبعث فينا الحياة والنشاط . ومهما يكن من امر فانها خير من قول ابي تمام في عياش بن لهيعة :

مقابل في ذرا الاذواء منصبـــــه   عيصا فعيصا وقد موسا فقد موسا
الواردين حياض الموت متأقـــة   ثبا ثبا وكراديســـا كراديســـا
نموك قنعاس دهــر حين يحزنـه   امر يشاكـــه آبـــاء قناعيســـا

وبعد فهل آمنت معي بأن الحكم على الشاعر اعتمادا على عدة أبيات منتزعة من اماكنها انتزاعا قد لا يؤدي الى سلامة الاحكام وسدادها . بل أرجو ألا اكون متهما بالتطرف والاسراف اذا قلت : انه لا يصح اصدار حكم من الاحكام العامة على شاعر من الشعراء اعتمادا على قصيدة بعينها ، بل ينبغي ان نختار قصيدة تمثل مذهب الشاعر اتم تمثيل . الا نرى اننا لو خترنا للموازنة بين مذهب ابي تمام وابي الطيب قول الاول يمدح عياش ابن لهيعة (١١) :

أحيا حشاشة قلب كـــان مخلوسا   ورم بالصبر عقلا كان مأوســـا

ووضعنا بأزائه قول ابي الطيب في مدح سيف الدولة وعتابه :

واحـــر قلباه ممــن قلبه شبـــم   ومن بحالي وجسمي عنده سقـــم

لكان تزيدا على ابي تمام لانه أكثر من البديع فيها الى حد الابتذال .

ويؤكد ما ذهبنا اليه من ان الاحكام ينبغي ان تبنى على الكثير الغالب ، وأن الاعتماد على الابيات المفردة يؤدي الى فسادها ، ان العمل بغير ذلك يكاد ينقض راي الزميل نفسه ، الا تراه يجعل قول المتنبي :

أعدى الزمان سخاؤه فسخابـــه   ولقـــد يكون به الزمان بخيـــلا

بعد قول الطائي :

---

١١ ــ ومع ذلك لا مانع من ذكرها حين نذكر للمتنبي اسوأ شعره .

هيهات ان يأتـــي الزمان بمثله   ان الزمـــان بمثلـــه لبخيـــل

دليلا على جمود الشعر ونضوب معينه ، بحيث صار الاواخر يعيشون على تلفيق أشعار الاوائل ، مع ان لابي تمام ما هو شر من ذلك الا تـــراه يقول متغزلا :

ملطومة بالورد أطلـــق طرفهـــا   في الخلق فهو مع المنون محكم (١٢)

بعد قول ابي نواس :

تبكي فتذري الدر مـــن نرجس   وتلطـــم الـــورد بعنـــاب (١٣)

الى غير ذلك من الامثلة التي لا يتسع لها المقام . وتخلف الطائي ظاهر، فاستعمال ملطومة على هذا الوجه ، والربط بين طرف الحبيبة والموت على هذه الصورة يأباهما الذوق السليم . فهل يفهم من هذا ان ابا تمام ايضا كان ملفقا ، ام ان للشعراء سقطات من حين لآخر ، لا يختص بها احد دون سواه (١٤) .

اما ابو العلاء فشعره نوعان ، قال اولهما في صباه ، واحتذى فيـــه ابا الطيب حتى يكاد يكون صورة منه في كل شيء وبخاصة في الفخـــر بنفسه والتحامل على المنافسين من الشعراء . واكبر الظن ان هذا التحامل ليس الا عدوى وصلت جراثيمها اليه من استاذه ومثله الاعلى ، والقارىء لقولـــه :

رويدك ايهـــا العاوي ورائـــي   لتخبرني متى نطق الجمـــاد (١٥)
سفـــاه ذاد عنـــك الناس حلـــم   وغـــى فيـــه منفعـــة رشـــاد
أاخمـــل والنباهـــة في لفـــظ   واقتر والقناعـــة لـــي عتـــاد

١٢ – الموازنة ص ٤٣ .

١٣ – نفسه .

١٤ – ان خير وسيلة لاصدار أحكام دقيقة على الشعراء ، هي اتباع طريقة الاحصاء التي يدعو اليها الأستاذ جب ، استاذ الدراسات العربية والاسلامية بجامعة اكسفورد ، وقد طبق أصول هذه الطريقة زميلنا الدكتور عبد العزيز عتيق على ابي فراس الحمداني في رسالة الدكتوراه التي تقدم بها الى جامعة أكسفورد .

١٥ – سقط الزند – السفر الثاني – القسم الاول ص ٢٨٦ .

١٦ – نفسه ص ٣٩٥ .

او قوله :

بأي لسان ذامني متجاهل ... عليّ وخفق الريح في ثناء (١٦)
تكلم بالقول المضال حاسد ... وكل كلام الحاسدين هراء
ومن هو حتى يحمل النطق عن فمي ... اليه ويمشي بيننا السفراء
واني لمثر يابن اخبر ليلة ... وان عزّ مال فالقنوع ثراء

والقارىء لها ولأمثالها يدرك قوة الشبه بينها وبين شعر ابي الطيب . وقد جمع كتابه سقط الزند هذا القسم من الشعر .

وهناك نوع اخر قاله بعد ان زهد في الناس واعتزلهم في بيته وضمّنه تأملاته في الحياة ، ونصائحه للأحياء ، وان شئت فقل ثورته عليهم . وفي هذا الشطر يقوي الشبه بينه وبين ابي تمام ، وذلك لان الصنعة هنا من جناس وطباق ونحوها لا تطغى عليها العاطفة الجياشة او الخيال الجامح كما ترى في سقط الزند ، بل تظل بارزة واضحة وسط ما يحيط بها من فكرة هادئة ، او نصيحة متعقلة ، وهذا يذكرنا بأبي تمام الذي يطغى الفكر عنده على العواطف . ولكن رغم كل ذلك لم يبلغ مبلغ ابي تمام في الاحتفال للبديع او التعقيد فيه . وأظهر انواع البديع عنده الجناس .

ومن الطريف ان تعلم انه التزم فيه ايضا ما لم يلتزمه احد من الشعراء ونشير بذلك الى رأي دعا اليه الخليل بن احمد الفراهيدي في الجناس (١٧) وأوجب فيه ان يتفق المتجانسان في اللفظ دون المعنى . ومع ان هذا الرأي ظل مطّرحا لا يهتم به الناس كثيرا ، فقد كان المعري من أسرع الشعراء الى الاستفادة منه واليك احدى قصائده لترى مدى نجاحه في ذلك :

تكرم أوصال الفتى بعد موته ... وهن اذا طال الزمان هباء (١٨)
وارواحنا كالراح ان طال حبسها ... فلا بد يوما ان تكون سباء
يعبّرنا لفظ المعرة انها ... من العُرّ قوم في العلا غرباء
فان إباء الليث ما حل أنفه ... بأن محلات الليوث إباء
وهل لحق التثريب سكان يثرب ... من الناس لا بل في الرجال غباء
هم ضاربوا اولاد فهر وجالدوا ... على الدين اذ وشى الملوك عباء
ضربا يطير الفرح عن وكر امه ... ويترك درع المرء وهي قباء

---

١٧ ـ راجع الصناعتين الخانجي ص ٢٥٠ .
١٨ ـ اللزوميات ص ٣١ .

وذو نجب ان كان ما قيل صادقـا فمـا فيـه الا معشر نجبـاء
هل الدين الا كاعب دون وصاهـا حجـاب ومهر معوز وحبـاء
وما قبلت نفسي من الخير لفظـة وان طال ما فاهت بـه الخطبـاء
تفزع أعرابيـة ان جـرت لهـا نواعب يستعرضنهـا وظبـاء
ومـا الأربـي للحي الا مسفـة علـى انهم في امرهـم أربـاء
تعادت بنو قيس بن عيلان بالغنـى فثابوا كـأن العسجد الثؤبـاء
واولا القضاء الحتم اخبـى واقد ولم يبن حول الوافديـن خبـاء
وعادوا الى ما كان ان جـاء عارض رأوا ان رعيا في البـلاد ربـاء
يبيئون قتلاهـم بأكثر منهـم وان قتلوا حـرا فليس يبـاء

والقارىء لهذه القصيدة يجد فيها عددا وفيرا من الجناس معظمه على شرط الخليل بن احمد ، اما قليله فيتبع مذهب الجمهور الذي يميل الى التساهل والرفق بالنفس وبالناس . وما من شك في ان الخليل وأبا العلاء كانا يدركان ان اختلاف المعنى ادق في الصناعة لانه يذكرنا بما بين المفردات من تباين في معانيها رغم اتحاد لفظها ، فهو كما اشرنا سابقا نوع من التلاعب بالالفاظ يحسن او يقبح تبعا لبراعة الشاعر واستعداده الشخصي .

خـــاتمة

اظن انه لن يضير هذا البحث ان نقف به عند هذا الحد ، معتزمين ان نعمل على اتمامه ، ان شاء الله تعالى بعد قليل . واني لأعرف الناس بما فيه من فجوات يجب ان تملأ ، وإجمال ينبغي ان يفصل .

الست ترى ان ما نذهب اليه من ان الشعر القديم يميل الى الصدق والقصد يمكن ان يكون موضع جدل ومناقشة ، وأن من حق أي انسان ان يعترض فيدعي ان المبالغة والغلو عرفا في كل العصور . وان من ذلك في الجاهلية قول المهلهل بن ربيعة :

فلولا الريح اسمع من بحجر صليل البَيض تقرع بالذكور

وفي العهد الاموي قول الفرزدق :

ان الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز واطول

وسيكون من حق هذا المعترض علينا ان نجري له بعض الاحصائيات ، كي نثبت ان ما ورد من ذلك في الشعر القديم نادر ومستساغ وبذلك يطمئن الى سلامة النظرية التي بين يدينا .

وسيكون الموقف في التصوير اشد دقة وتعقيدا ، لان بعض المحدثين كالبحتري يكاد يكون صورة من الاوائل في هذا الصدد ، ولبعض اخر مذاهب جديدة ، كابن المعتز ، الذي يحاول الاقتراب من الاصل المنقول عنه، كما كان يفعل القدامى ، ولكن بعد ان يخلع عليه جمالا جديدا ، ويعرضه في

ثياب انضر وازهى (١) .

وربما برهنت الايام على ان كتابنا الحالي سيكون مختصا بتحديد النظريات مع ذكر نماذج محدودة عليها ، بينما يهتم الكتاب المرتقب بالتطبيق المفصل على تلك النظريات .

وهناك امر اخر لم يحظ بالعناية التامة هنا ، ونرجو ان نتمكن من ان نوفيه حقه في المستقبل ، وهو موقف القرآن من العقليتين القديمة والحديثة . ولن نكون قد قمنا بواجبنا على الوجه الصحيح حتى نعرف موقف شعراء العربية على اختلاف بيئاتهم وعصورهم من المذهبين .

واذا كان لنا ان نذكر للقارىء قاعدة عامة تعينه على التمييز بين القدامى والمحدثين ، فذلك ان يتذكر كلما قرأ لهؤلاء او اولئك ان الاوائل كانوا يعتمدون دائما على حواسهم ، بينما يستعين الاواخر كثيرا بعقولهم . واذا قرات هذا البحث في ضوء هذه النظرية فستطمئن اليه ، وربما فتحت امامك آفاق لم تفكر فيها بعد .

وأخيرا ارجو ان اكون بهذا البحث قد بذلت مجهودا متواضعا في سبيل اعلاء ذلك البنيان الضخم الذي أرسى زميلنا الفاضل الدكتور شوقي أساسه ولن نسخط ان شاء الله تعالى اذا وقف منا بعض الباحثين نفس الموقف الذي وقفناه من الدكتور شوقي مسددين او معارضين ، فاننا لم نقل اخر كلمة في الموضوع ، كما ان الحق احب الينا ، واكرم عندنا من اي شيء اخر والحمد لله اولا وأخيرا . والسلام عليكم ورحمة الله .

محمد عبد العزيز الكفراوي

---

١ ــ اقرأ ما كتبه المؤلف عن ابن المعتز .

مراجع البحث

اخبار ابي نواس ــ مطبعة الاعتماد سنة ١٩٢٤ .
اخبار ابي تمام .
الاغاني ــ مطبعة التقدم .
الامالي ــ دار الكتب سنة ١٩٢٦ .
الاوراق ــ مطبعة الصاوي سنة ١٩٣٤ .
ابن الرومي ــ للاستاذ العقاد ــ مطبعة حجازي . الطبعة الثانية .
البيان والتبيين للجاحظ .
البيان المغرب لابن عذاري ــ اخراج ليفي بروفنسال .
التطور والتجديد في الشعر الاموي للدكتور شوقي ضيف .
تاريخ الادب العربي للاستاذ السباعي بيومي . مطبعة العلوم سنة ١٩٣٧ .
تهذيب الكامل للسباعي بيومي .
حديث الاربعاء للدكتور طه حسين .
ديوان ــ عبيد بن الابرص ــ ليدن ــ ١٩١٣ .
ديوان ــ امرىء القيس ــ شرح السندوبي ــ مطبعة الاستقامة سنة ١٩٢٠ .

ديوان طرفة ـ شرح الشنقيطي .
ديوان ابي الطيب المتنبي ـ شرح العكبري . مطبعة الحلبي سنة ١٩٣٦ .
ديوان ابي العتاهية ـ بيروت سنة ١٨٨٢ .
ديوان ابن الرومي ـ كامل كيلاني ـ مطبعة التوفيق الادبية .
ديوان زهير بن ابي سلمى .
ديوان الاعشى ـ المطبعة النموذجية .
ديوان جرير ـ مطبعة الصاوي . الطبعة الاولى .
ديوان ابي نواس ـ المطبعة العمومية . الطبعة الاولى .
ديوان بشار بن برد .
ديوان البحتري ـ مطبعة هندية . الطبعة الاولى .
الذخيرة لابن بسام . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٩ .
زهر الآداب ـ المطبعة الرصافية سنة ١٩٢٥ .
سقط الزند ـ مطبعة دار الكتب سنة ١٩٤٦ .
سيرة ابن هشام ـ مطبعة حجازي ١٩٣٧ .
الشعر والشعراء ـ مطبعة المعاهد سنة ١٩٣٢ .
الشعر الاندلسي ـ ترجمة الدكتور حسين مؤنس . مطبعة لجنة التأليف والنشر .
شعراء النصرانية .
الصناعتين ـ لابي هلال العسكري الاستانة . الطبعة الاولى .
ضحى الاسلام ـ مطبعة التأليف والنشر . الطبعة الثانية .
طبقات الشعراء ـ مطبعة سعادة .
عصر ما قبل الاسلام للاستاذ مبروك نافع ـ مطبعة وادي النيل .
الفن ومذاهبه ـ مطبعة لجنة التأليف والنشر ـ الطبعة الاولى .
في علم النفس ـ للاستاذ حامد عبد القادر والاستاذ الابراشي .
اللزوميات ـ مطبعة الجمالية . الطبعة الاولى .
ليلى والمجنون ـ الدكتور هلال . مكتبة الانجلو المصرية . الطبعة الاولى .
معجم الادباء ـ مطبعة دار المأمون سنة ١٩٣٨ .
المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ـ مطبعة بولاق سنة ١٢٨٢ هـ .
المفضليات ـ مطبعة المعارف سنة ١٣٦١ هـ .
الموازنة بين ابي تمام والبحتري ـ مطبعة صبيح .
مجموعة رسائل الجاحظ ـ مطبعة التقدم . الطبعة الاولى .

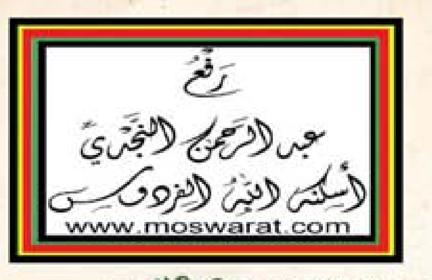
نيكل ــ مختارات من الشعر الاندلسي .
نقد الشعر لقدامة بن جعفر ــ القسطنطينية . الطبعة الاولى .
النابغة الذبياني للاستاذ عمر الدسوقي .
نفح الطيب ــ المطبعة الازهرية . الطبعة الاولى .
الوساطة بين المتنبي وخصومه ــ دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٤٥ .
يتيمة الدهر للثعالبي ــ مطبعة الصاوي . الطبعة الاولى .

الفهرس

مقدمة الطبعة الثانية ٥
شكر ٦
الاهداء ٧
الباب الاول : ١١
العناصر الاصلية للشعر العربي ١١
الطبع ١١
الصدق او التزام الحقيقة ١٧
الميل الى التصوير ٢١
الموسيقية ٢٧
بناء القصيدة ٣٠
الباب الثاني : ٤٢
الفصل الاول :
عصر صدر الاسلام ٤٢
العصر الاموي ٤٥
لماذا اتجه شعراء ذلك العصر الى الشعر الجاهلي ٤٧
الفصل الثاني :
مظاهر تشابه الشعر في العصرين الاموي والجاهلي ٥٢
الفصل الثالث :
النقائض والغزل بنوعيه امتداد للشعر الجاهلي ٥٥

الباب الثالث : ٦٦
مقدمـة : العصر العباسي ٦٦
الفصل الاول :
بناء القصيدة ٧٠
الفصل الثاني :
اغراض الشعر ومدى ما اصابها من تطور ٩٢
الغزل بالمذكر ٩٢
شعر الزهد او التزاهد ٩٥
الخمر والمجون ١٠٠
الطبيعة ١٠٥
الخصومات ١٠٨
الغزل ١١٩
الهجاء ١١٩
المـدح ١٢١
الفخر ١٢٨
جولات الشعراء في جوانب النفس البشرية ١٢٩
الفصل الثالث :
عناصر الشعر وما اصابها من تطور او جمود ١٣٨
الطبـع ١٣٨
استفحال الثورة وتشعبها ١٤٩
محاولة الاقناع ١٥٣
العنصر الثاني ١٥٨
التزام الحقائق ١٥٨
العنصر الثالث ١٦٩
التصوير ١٦٩
العنصر الرابع ١٧٨
الموسيقية ١٧٨
الفصل الرابع :
استرداد الشعر العربي لحريته ١٨٧
خاتمة ١٩٨


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com